عزيزي أودين

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: عزيزي أودين

اسم المؤلف: ميّ صالح سلّام

التدقيق اللغوي: د.ياسر عوض

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٨٤٣٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٤٢٨-٨-٩



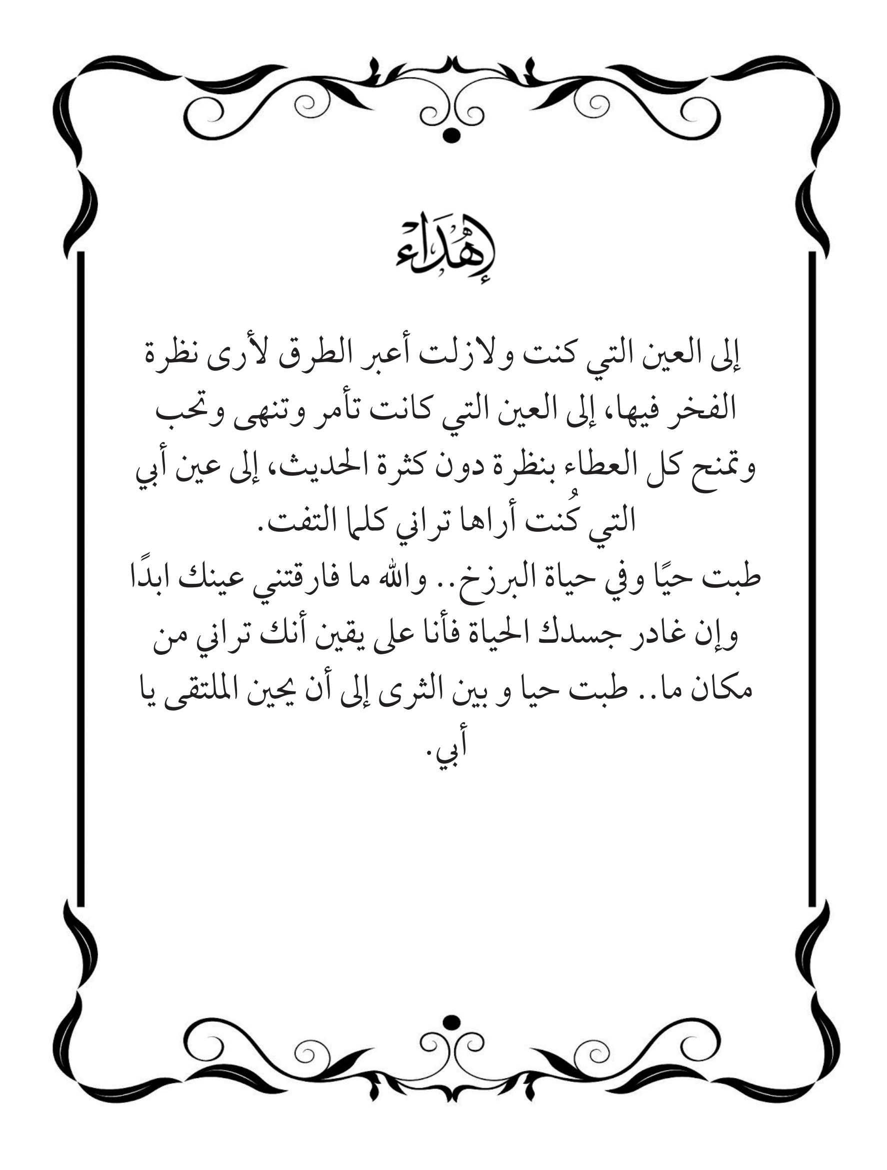

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

عزيزي أودين





إهداء

إلى العين التي كنت ولازلت أعبر الطرق لأرى نظرة الفخر فيها، إلى العين التي كانت تأمر وتنهى وتحب وتمنح كل العطاء بنظرة دون كثرة الحديث، إلى عين أبي التي كُنت أراها تراني كلما التفت.

طبت حيًا وفي حياة البرزخ.. والله ما فارقتني عينك ابدًا وإن غادر جسدك الحياة فأنا على يقين أنك تراني من مكان ما.. طبت حيا و بين الثرى إلى أن يحين الملتقى يا أبي.

"رسائل من مديم أرغون "

عزيزي أودين:

يتطلب الأمر أكثر من مجرد قناع نحاسي أسود وقرون، وأكثر من مجرد رداء أسود، أكثر من مجرد دم بارد لقتل الحيوانات، أكثر من مجرد أساطير تسلبك آدميتك وتنعتك بالشيطان، لو أني لم أرَ في قلبك شيئا من النور لم آتِ إليك، ولو أنك لم ترغب في مجيئي لما تركتني حية إلى الآن، بالنسبة لمسخٍ ينبذه العالم، لن يظهر كل يوم صديق ليمد يده له، ويا صديقي بالنسبة إليّ فإني لست أطمئن لأحد في كل يوم. دعني أخبرك شيئا؛ لا أحد يهتم.

لا أحد يهتم إن قتلت أولئك الذين ألقوك رضيعا في الغابة وطاردوك، لا أحد يهتم إن صببتَ غضبك على الحيوانات تقتلهم بلا هوادة.

لا أحد يهتم إن عدتَ تجلس على عرش المدينة أم لا، قد تفعل كل هذا، ثم تجد نفسك تصرخ لتحتفل بالنصر بمفردك؛ لأنه لا أحد ينظر حتى إليك، في خارج الدائرة التي تضع فيها نفسك، يعيش الناس في دوائرهم الخاصة، في همومهم ومشكلاتهم التي لا تجعلهم يرونك حتى.

أعلم كم كان سيئا ما مررتَ به!! أعلم كم كان قاسيًا!! لكن صدقني أنت لا تريد أن تُفني عمرك في كل هذا الغضب، صدق بأنك لا تؤذي أحدًا سوى نفسك. ربما تود لو أنك تسامح نفسك يا صديقي، ربما تود لو أنك تسامح عالمك، ليس لأجله، وإنما لأجلك.

"ماكو".

الآن..

في ردهة منزل بسيط أمام شرفة ذات ستائر بيضاء تطلّ مباشرة على البحر، وأمامها وعاء زرع نحاسي ضخم به نخلة في بدايات العهد، وقفت سيدة في عقدها الخامس تتحدث إلى طبيب وبجوارها ابنها، وصديقة ابنة زوجها.

- أغلق الباب من فضلك.

- كيف هي؟

- سيدة وعد، أنا لا أعرف ماذا أقول، الأمور تزداد سوءًا، كنا نظن أنها أصابت رأسها بشيء أثناء حادث احتراق المركب لكن ليس من دليل على إصابة في الرأس. إنها أسباب صدمة نفسية واضحة، دعينا لا ننسى أنها تعرضت للحادث في اليوم التالي لرحيل أمها، إبقاؤها هنا في هذا المنزل ليس سببًا كافيا للعلاج.

- ما مدى السوء؟

- في هذه الحال لا يدرك المريض أنه مريض بالفعل فيستمر بالحديث إلى أشخاص خيالين، لكنها المرة الأولى التي أصادف فيها مريضًا يعرف مرضه لكنه يفضل الإبقاء عليه وعدم التخلص منه، إنها وبطريقة ما تفضل الإبقاء على هذا الأودين رغم أنها تعرف أنه ليس موجودا أصلا لكنها لا تنفكّ تتحدث إليه وتكتب الرسائل بادئة إياها بـاسمه، أعتقد أننا أصبحنا بحاجة إلى النقل للمَشفَى.

– مستحيل، كانت هالة تكره المستشفيات بشدة، وكذلك زوجي، أألقي بابنته فيها وأهرب؟!

سآتي لها بأفضل الأطباء، وسأبقى هنا بقربها، لكني لن أحجز ابنة زوجي في مَشفًى، لم أكن قريبة منها في السنوات الأخيرة، ربما أتت فرصتي لأقبع بجوار الباقي من ريح زوجي وخليلتي معا.

تدخَّل صديق قديم مقاطعا حديث زوجة الأب عن ابنة زوجها الراحل:

– لكن.

فردت عليه صديقة بلقيس بقسوة لتوقف حديثه.

– قاسم، لا تتدخل.

– ماريان أنت لا تفهمين.

– هذا لا يهم يا صديقي، انظر حولك لا شيء يهم، أنا أؤيد رأي الخالة وعد، وأثق بابنة خالتي جيدا.

أنا أعرف بلقيس جيدا؛ إنها قوية وقادرة على شفاء مرضها كما تدركه تماما، هي تعلم أن أودين ليس موجودًا فعلا وتقرّ بذلك، يوما ما ستفك قيده، وستتركه يرحل.

– لكن يا سيدة وعد، ما نحاول أنا وقاسم قوله...

– شكرا لك أيها الطيب، طاب محياك يا ولدي، أما عن قاسم ومريان فأنا أعرف أنهما يؤيدان رأيي، أليس كذلك يا قاسم؟

– أنا بأمرك أمي.

- من فضلك رافق الطبيب إلى الباب.
- تفضل سيدي.

عزيزي أودين،

مرحبا من البعيد؛ حيث كنا من المفترض أن نلتقي ووصلت أنا وتخلفتَ أنت عن الموعد، لكن لا بأس الأمر ليس بهذا السوء.

- مرحبا.
- أودين، ظننت أنك لن تأتي.
- ومتى تخلفتُ عن موعد؟

جلس على الكرسي أمامي وراح يشيح بنظره ناحية الأفق البعيد في البحر كعادته كلما بدأ الحديث:

- لماذا تخاطبينني بصيغة البعيد دائما؟ يشعرني هذا بالسوء.
- أنت تعرف السبب.

راح يطلق من صدره صوت تنهيدة بسيطة، وتابع:

- كيف لي أن أعرف؟
- بالطريقة نفسها التي تعرف بها أني أخاطبك بصيغة البعيد دون أن تقرأ خطاباتي.

حينها لم يصدر ردًّا على حديثي وكأنه قد ضاع في الأفق، فعدت إلى خطابي

لأكمل ما فيه.

دعني أخبرك أنه لا شيء مطلق يا صديقي، حتى ما تؤمن أنه أبدًا لن يتغير، قد تستيقظ ذات صباح لتجده قد تغير، ودعني أعيد قولها بهذه البساطة: قد تغير.

كنت في شرفتي بالأمس بجوار أزهار أمي الزاهية، كما تعلم هي كل ما بقي الآن لأتحدث عنه في خطاباتي.

لكن هكذا تجري الأمور.

أمران جميلان كعيون المها يا صديقي؛ تلك الزهرة الصغيرة في شرفتي، والوطن.

لا أدري ما الذي قد يدفع إنسانًا لترك الوطن الذي وُلد فيه ويغادر لأرض لا يعلم كيف يكون حاله فيها طواعية، دون أن يكون مُكرهًا على فعل ذًلك؟!!

ولِمَ لا يبحثون عن صديق مثلك، يتبادلون أحاديث كتلك التي حظينا بها، تلَك التي لم تدم طويلًا، لكنها صنعت عالمًا بعيدا عن هذا العالم بكل ما فيه من قسوة؟

صحيح أن لكل أسبابه، لكني أرى أن قبل ترك الوطن لتصبح غريبا، فإنك تحتاج لأكثر مًن سبب مقنع لفعل ذلك، تحتاج أن تكون مُكرها مُجبرا على ذلك؛ كأن يخطفك أحدهم ويلقي بك بعيدا عن أرضك، عن الأمان، عن الحياة بكل ما فيها من قسوة ولين.

أعتقد أن الغرباء عن أوطانهم هم أرض جليد باردة، وكأن الصقيع يندثر

من أبدانهم.

عليَّ ذكر هذا لك، هذا الصباح في حافلة المترو جلس أمامي فتيان يبدو أنهما في مقتبل العشرين، كان يبدو على أحدهما الغضب الشديد، كانا يتشاجران على ما يبدو، أو ربما يتناقشان بحدة حول أمر ما.

كنت أراقب حركة شفتيهما في صمت، لكن لا أنكر دفعني الفضول لنزع سماعات هاتفي، وقطع صوت الموسيقى لأرى فيما هو الخلاف بينهما فسمعت أحدهما يسأل الآخر فقال:

- من أين أتيت بكل هذه القسوة؟

فأجابه قائلا:

- من مكان ليس ببعيد عن هذا العالم.

و ما الذي يعرفه شابان يحملان حقيبة مدرسية عن قسوة هذا العالم يا أودين؟! هل كانا هناك عندما سقطت الشمس من السماء على أهل الأرض لتحولهم لرماد مندثر كما حدث في هيروشيما أو نجازاكي؟ أم كانا هناك عندما رمت المجانيق الجثث المتعفنة بالموت الأسود على القلاع التي أوت العزل والأطفال عندما أراد أحد الجبابرة الانتصار في الحرب بالطاعون الذي أصاب جيشه؟

و ماذا لو أن أحدًا حدثهما عن قسوة العالم فعلا، هل تقف القصص عند روايةٍ ما؟ هل ينتهي السرد؟! كلا والله إنه عالم ذو دم بارد.

أتدرى يا أودين، لسبب ما تمنيت حقا لو أنهم أبدًا لا يعلمون أن هذا العالم ليس مكانا طيبا يا أودًين؛ إنه مكان موحش وقفر لا يخجل أبدًا أن يأتي

إليك بصباح ما، حاملًا حدثا يجعلك تدرك أن كل ما آمنت به يوما كان مجرد تقدير خاطئ للأمور لا أكثر.

كتلك التي وقفت في تسعينها من بداية خريف العام ١٩٨٩ على أحد شواطئ الأطلسي، تنتظر عودة مراكب الحرب حاملة معها السلام المتمثل في حبيبها الذي رحل عن وطنه، تاركا إياها بلا وطن، وقضى في صحراء باردة بعيدًا عن كل ما آمن به يومًا، مدركًا في لحظته الأخيرة أنه قضى لأجل حرب تقدر بلا شيء، وأن مصيره إلى الدفن في أرضٍ ليست أرضه، وأنه لا أحد قد يأتي قبره باكيًا!!

و بلا شفقة لا ينفك البحر يرسل أمواجه، ولا يتوقف أمام كل تلك المشاعر المبعثرة في داخلها، فتنتظر وتنتظر ولا شيء سوى موج عاتٍ بين مده وجزره، لا شيء سوى هواء الخريف الذي يُسقط في أجزاء روحها الذابلة كما يُسقط أوراقَ الشجر.

ثم يأتي فتى صغير يعبث على الشاطئ فيشد طرف ثوبها بعنف، ويهتف ساخرا: " لقد انتهت الحرب أيتها المجنونة "؛ فتفيق للحظة، لتجد نفسها وحيدة تماما تنتظر عودة اللا شيء.

لم تعرف حتى بتلك الأيام التي أحس فيها ذلك المفقود، بأن الحرب قد دقت أقصى طبولها، واشتدت المعركة، واغتاله اليأس قبل الرصاص، فبدأ يغني أغنيةً كانت تغنيها أمُّه في صغره قبل النوم ولسانه يرتجف، ويحلم بذلك الأمل أن يعود إليه، فيتمنى أن يعود للمنزل فيجد أخته قد أعدت الحساء الدافئ في انتظاره، وحبيبته تنتظره بجوار الفراش لتغني له فينام نوما عميقًا هادئًا خاليًا من صوت الرعب والموت حوله من كل حدب وصوب.

وينظر إلى سقف غرفته فيجد صورة السحاب قد طبعت عليه، سحاب أبيض وسماء زرقاء، وليس تلك الرمادية ذات السحاب الأسود.

و يغلق عينيه للأبد دون أن يدري حتى إن كان جسده سيواريه التراب أم أنه سيُترك للعراء.

وتعاود حبيبته النظر إلى الشمس، فإذ هي شهيدة الغروب، الذي نثر دمها فوق البحر لتصيب زرقته باللون الأحمر، وكأنما يخبرها أنه لا سفن تعود بل إن البحر محمّل بدماء المُنتظر؛ فتعود لتغلق عينيها وتحدث نفسها قبل الرحيل، غدًا سيعود لزرقته، وستعود الشمس لنورها، وسأعود لأنتظر.

إنا وبكل ما أوتينا من قوة ضعفاء، تقهرنا الحروب يا صديقي، وتمزقنا في الأَرض شِيعًا، رغم جمال أرضنا وزينتها بالأخضر والأزرق، فهي تحوي الكثير من البقع السوداء، تلك البقع؛ حيث مخيمات اللاجئين والمضطهدين لعرقهم، ودينهم؛ حيث كل صرخات الألم التي تلوح من كل الأنحاء، تكاد تخترق أذني كشظايا الحديد.

إنه عالم قاس، وألوانه في الحقيقة باهتة، ليست كتلك التي اعتدتُ تصويرها في لوحاتي. ليس كذلك الذي رسمته على جدار غرفتي، العالم ليس مكان يزهو بالألوان يا صديقي.

- حمقاء، كعادتك.

- أودين.

سقط القلم من يدي على الورقة بعد أن مزقتِ الكلماتُ الباقي من رغبتي في الكتابة.

- ألن أتمكن يومًا من رؤيتك بدون قناعك المسخ؟
- متى تتوقفين عن البؤس، بدأت أكره خطاباتك؟
- هل تتوقف عن قراءتها يوما؟

شاح بنظرة ناحية السماء ولم يرد جوابا، وحينها فقط بالنظر إليه، بدأت أستمتع بصوت الموسيقى الهادئ على الرغم أنها تدور منذ الصباح إلا أنه الآن فقط بدأت تصيب أذني.

...

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ٧:٣٠ ص

كان منظرًا بديعًا بالألوان الجميلة التي تتلألأ من بعيدٍ بين الأحمر والأصفر والبرتقالي والرمادي المائل للأسود، كأنها أضواء (أورُورا) تخترق الأفق البعيد بروعة لم أعهد لها مثيلًا، وكنت أستمتع بالمشاهدة بينما أشعر بشيء يحملني ويحيط بكل أطرافي، وجوارحي، وجسدي الهذيل برفق، صحيح أنه كان باردًا بعض الشيء لكني كنت أشعر بدفء غريب يحيط بقلبي ويطمئنه، لكنه كان دفئا كاذبا، ثم بدا لي الظلام يصبح أقوى من ذلك الضوء شيئا فشيئا فيمحوه ، وبدأ النَفَس في صدري يطلق نفير الاختفاء، إذ كانت حالي أني أهبط للأسفل ببطء، إلى أن اختنقت روحي بذلك الشيء المحيط بها، وكادت عيني تفقد ذلك الضوء. كنت حينها مستسلمة تمامًا لذلك الشعور وتأبَى نفسي المقاومة، كنت أريد أن يستمر ذلك الشعور هادئا كما هو عليه.

كأني سأغمض عيني للحظات وحينها ينتهي كل شيء.

إلى أن أتاني ذلك الصوت ليس من أعماق ما أغوص فيه ولكن من أعماقي أنا، أن الوقت لم يحِن بعد.

عندها ومن حيث لا أدري تحول كل الهدوء إلى صراع جَمّ، كأن شيئا في داخلي انفجر فجأةً ووجدت نفسي في منتصف صراع عنيف مع الماء المحيط بجسدي؛ فاستعنت بكل خبرتي في السباحة، وبالباقي من عزمي، وقوتي وحركت كل أطرافي بعنف في ثورة من الغضب على ذلك السائل الناعم وقررت أنه ليس يوم نهايتي، وقاومت بقدمي وقبضت كل عضلة في جسدي، إلى حد أني شعرت بالنبض في جميعها في آنٍ واحد، كأني يومًا لم أستمع إلى صوت قلبي بهذا القرب، ولم أشعر بخروجٍ ودخول الدم فيه بهذا الوضوح، إلى أن بلغت السطح وأصدمُ رأسي بذلك الكمّ من الهواء الذي ظهر من عدمه، وغلبني خور عزمي فسقط مرة أخرى ليغطي الماء رأسي، ولكني عدت بقوة للسطح إلى أن كاد نصف جسدي العلوي يبلغ السطح دفعة واحدة، وأصدم بكتفي لوح خشب باقيا من الحطام فتشبثت به، وواصلت نزاع الماء والهواء في رئة واحدة إلى أن احتضنت ذلك اللوح الخشبي، وقد كان حينها كلَّ إرثي وغنيمتي.

ألقيت رأسي عليه وكأنه وسادة ناعمة على فراش من ريش النعام إلى نفسي المرهقة. ومن حولي كانت ألوان النيران تحرق مركبي ورأيت الأضواء التي أبهرتني، وهي بشكلها الحقيقي نيران تلتهم زورق نجاتي. خُيل إليَّ أن أولئك الذين تضرب بهم الكوارث في هذه اللحظات يهب العالم كله لنجدتهم، لكن حينها لم يكن هناك من أحد!!

لا شيء سوى قطعة من الخشب الناجي من الاحتراق وسترة نجاة

برتقالية طافية على السطح من على بعد ما يقرب مترين مني وليس لي طاقة بالسباحة إليها، ويبدو أن هذا هو الواقع لو أن جسدي احترق مع أخشاب ذلك المركب لتفحم دون أن يهبَّ أحد لنجدتي.

أنا " بلقيس أحمد "؛ اسمي بلقيس وينادونني بل، فترى أمي في الأول عزة الملكات، وفي الثاني رقة أميرة الجميلة والوحش.

...

١٧- ٩- ٢٠١٨ / ٧:٣٢ ص

- علينا العودة للقاهرة لم أعد أحتمل البقاء هنا.

- ماريان، تعلمين أنه لا يمكننا الرحيل قبل أن نكمل ما أتينا لأجله.

- بلقيس، لقد أكملنا بالفعل ما أتينا لأجله، انتهى حفر البئر الحمقاء، ولا شيء يدعونا للبقاء هنا.

- لا يمكننا فقط الانسحاب وترك الأطفال في هذه المحنة.

- تبًّا، أنت لا تفهمين، هذه ليست قضيتنا.

في منتصف شجار شبّ بيني وبين ابنة خالتي ماريان تدخّل قاسم؛ وقد كان رفيقا آخر لنا في رحلة كانت قد بدأت قبل شهرين إلى غينيا.

- قضية مَن إذًا؟

- اسمع قاسم، إذا وقعت المشكلات بسبب هؤلاء الأطفال في هذا البلد، لن تجد من يحمل قضية الدفاع عنك.

– وهل هذا سبب كافٍ بالنسبة إليك لتركهم للموت والرحيل، وكأننا لم نعرف بالأمر قط؟!

– تبًّا لكِ، لا تتهميني بعدم الإنسانية، أنا لم أقطع هذا الشوط اللعين من دمشق للقاهرة لغينيا، لتتفوهي بهذا الهراء، أنا أكثر مَن يعرف المعاناة، وعشتها بأم عيني، لكن اسمعاني جيدًا، أتيت إلى هنا لأجل واجب إنساني وقد انقضى، فيما عدا ذلك أنا لن أحمل أيَّ إثم إن تركتكما خلفي عالقين في هذه الحماقة، وسأحمل حقائب العودة وأنهي رحلتي، تبًّا لكما.

خرجت حينها ماريان من الكوخ القصبي الذي كانت القرية تستضيفنا فيه، وكادت أن تنفكّ أواصر الباب المصنوع من أعواد الخيزران من شدة فتحها، وإغلاقها له.

– بلقيس، بطريقة ما... ماريان محقة، أصبح علينا العودة.

– قاسم، كيف؟!

– بلقيس، لقد كان خطأ منا أن نجاري تلك الفكرة من البداية، إن القتال في معركة بلا أسلحة هو انتحار. ماذا يدريك، ربما جعلنا حياة هؤلاء الأطفال أكثر سوءًا وحوّلنا حياتنا إلى جحيم، بل إنه ربما تنتهي حياتنا هنا أيضا ونصبح ضحايا. عليكِ تركُ العناد جانبًا والتفكير في الأمر بجدية أكثر، أعني هيا نحن لا نستطيع النوم حتى، أصبحنا بحاجة إلى المساعدة، لا أظن أنه أصبح بإمكاننا مساندة أحد.

من ثم لحق قاسم بـ مريان، وتركني وحيدة في ذلك الكوخ، لتعصف الأفكار برأسي.

أقسم ثلاثتُنا عندما غادرنا دمشق على الدفاع عن الضعفاء ومساندتهم في شتى بقاع الأرض، وهو الأمر الذي دفعنا للتطوع لدى إحدى الجمعيات الخيرية في القاهرة التي تقدم المساعدة للمحتاجين، وبطبيعة دراستنا للهندسة، كنا قد أشرفنا على بعثة منطلقة إلى غينيا لحفر عدد من الآبار في بعض القرى، والتي قد جمعت لها الجمعية التبرعات. انتهت البعثة رسميا من عملها منذ أسبوع مضى، وتم بالفعل حفر بئرين للمياه في قريتين مختلفتين وهو ما أتينا لأجله. كان من المفترض أن نحمل حقائبنا للقاهرة عائدين مع باقي البعثة قبل عدة أيام، لكنني قابلت الفتى بابو.

بابو طفل دون الثانية عشرة، شأنه كشأن آلاف الأطفال في غينيا يعاني مما نعرفه جميعا؛ الفقر والجوع، كحال الكثيرين في مختلف بقاع الأرض، لم يعد الأمر مستهجنًا أو صعبًا أن تقابل طفلا بهذه الحال، إنهم كثيرون جدا في كل مكان، إلى حد أن أمرهم اندرج تحت منصة العادي والمألوف.

لكن بابو له قصة مختلفة؛ إنه رسام بارع، وسارق بارع أيضا، فقد سرق قلبي وراهنني عليه بالباقي من حياتي الذي أصبح على المحك بسببه. في المرة الأولى عندما التقيت به كان عليَّ أن أقطع شوطا كبيرا من الركض خلفه، كنت ألاحقه كاللص؛ لأنه بالفعل كان كذلك إلا أنه كان أجمل لص التقيت به.

كنت قد تركت حقيبتي بجوار البئر، وبدأت أتحدث إلى العمال تحت أشعة الشمس التي كدت أن أشعر بها فوق رأسي لا يفصل بيننا شيء، فتسلل وسرق الحقيبة، ثم جلس بالقرب يفرغ محتوياتها مسرعا باحثا عن المال لكنه وجد ما جعله ينسى العجلة من أمره وجلس إلى جذع الشجرة الذي اختبأ

فيه يرسم بألواني وفي كراسة الرسم خاصتي والتي اعتدت حملهم في حقيبة الظهر خاصتي دائما، كانت الحقيبة تحتوي هاتفي النقّال وأوراقي والوفير من المال في ذلك اليوم.

لكن عندما داهمتُه تركها وفرّ هاربا مع الورقة التي كان يرسم عليها، هذا كل ما سرقه لا شيء آخر، دفعني الفضول للقبض على هذا اللص الصغير، فقد أردت بكل جوارحي أن أرى ما هو مرسوم على تلك الورقة حتى إني إلى هذا اليوم لا أجد سببا منطقيا للاندفاع خلفه، كأني أردت ذلك من داخلي كأني أردت أن أعرفه.

ولم يكن بالأمر اليسير حتى إن ممارستي لرياضة التنس باستمرار جعلتني أعاني لكي أتفوق على بابو في الركض، وقبضت عليه بالفعل، بعد أن لحقت به إلى سوق القرية.

لكن عندما فعلت لم أدرِ ماذا أفعل به، هل أقاضيه لأجل ورقة سرقها؟ والناس من حولنا ينظرون وَهو ينظر إليَّ باستغراب.

حينها سحبت الورقة من يده، فوجده قد رسم قوس قزح، وشعرت حينها أن نقصا بداخلي قد اكتمل حتى جرفتني مشاعر استغرابي لنفسي إلى الضحك الشديد، أعني هل قطعت حقا كل هذا الشوط من الركض لأجل ورقة مرسوم عليها قوس قزح؟!!

بدأ الناس ينصرفون، ونهضت من على الأرض لأعود أدراجي، بينما بقي بابو مُلقًى على الأرض، ظننت أنه سيتابع الفرار عندما أتركه، وتابعت طريق عودتي، لكني فوجئت به يتبعني في طريق السوق، فاستدرت إليه وأشرت بيدي بعيدًا؛ أن " اذهب، اذهب، ليس لي حاجة بإيذائك يا فتى".

لكنه تابع السير خلفي، لم أعرف حينها ما السبب لكن تابعت الطريق للمخيم دون توقف.

تلك القرية التي كنا فيها كان من المفترض أن تكون محطتنا الأخيرة وبعدها نغادر للقاهرة، وكنا قد بدأنا العمل فيها للتو.

خلال أسبوع واحد من تلك الحادثة كنت أصادف الفتى بابو بالقرب من مخيم عملنا كل يوم تقريبا، دون أن أتحدث إليه، فالحقيقة لم أكن لأفهم لغته على كل حال، أحيانا كان يرمقني بابتسامة وأحيانا كنت لا أراه في الجوار لكنه كان مداومًا خلال ذلك الأسبوع على القدوم، حتى ظننت أنه ربما لديه عمل ما في المنطقة.

وفي إحدى المرات أثناء استراحة الغداء، كان يجلس بالقرب عند نفس الجذع الذي رأيته عنده للمرة الأولى، فخطر ببالي أنه ربما أذهب إليه براية سلام، والمتمثلة حينها في الألوان وورقة، وطبقي من الغداء. عندما اقتربت كان يتابع الابتسام وتتوسع شفتاه، كأنما حصل على ما كان يرجو.

لم أفهم حينها الأمر، لكني وضعت الطعام أمامه وجلست أنظر إليه، ووضعت أيضًا الورقة والألوان فبدأ يأكل ورحت أنظر أنا إلى يديه لا تبدوان بهذا السوء، كان ذا بشرة بالغة السواد، كقطعة فحم لامعة وجميلة حقا، وشفتين مفلطحتين وأنف كبير مبطط في وجه وأسنانه ناصعة البياض. لم يكن جسده نحيفا هزيلا وليس بالسمين أيضا، إنه فتى إفريقي معتدل البنية، معتدل البنية وجميل. كنت أحملق فيه وهو على حاله يتناول الطعام.

عندما انتهى جلس أمامي، ظننت أنه سيهتم بالورقة والألوان لكن لم يفعل حقيقة، بدا وكأنه في حيرةٍ ما كأنه هو الآخر يعلم أنه لو تحدث لن

أفهمه.

على كل حال مددت له الورقة والألوان لأمضي، لكن بمجرد أن أبرزتهما أمامه إلا وخطفهما من يدي وبدا مهتمًّا كثيرا ويلوح لي كأنه يقول: انتظري سأريك شيئًا ما. فعاودت الاعتدال في الجلوس فأنا أيضا كنت أرغب في معرفة ما يود أن يوصله لي.

توقعت أنه سيقوم برسم شيء مبهج كقوس قزح الذي رأيته في المرة الأولى لكن ما رسمه كان غريبا ومؤلما؛ لقد رسم هيكلا باللون الأسود يشبه جسد إنسان، ونثر بالقرب منه الكثير من اللون الأحمر كأنه يشير إلى إنسان جريح ينزف بشدة.

في العادة إذا طُلب من طفل أن يرسم، وهو لا يجيد رسم الشجرة أو الزهرة متبعا تعليمات أحدهم، فإنه سيبدأ بالرسم بعفوية معتمدًا على ما يصوره له خياله، أتساءل: كيف سيُحاسب العالم المنشغل بترساناته النووية عن خيالات هؤلاء الأطفال؟

شعرت بالاستياء والحزن، لكن كما قلت سابقا، إنه حال الكثير في كل مكان الآن، الذي أصبح يندرج تحت العادي والمألوف.

ظننت أنه أمر عادي ربما لكثرة النزاعات في تلك المنطقة، وحملت الورقة وعدت إلى المخيم، ثم اصطدمت بعبد الرحمن؛ مرشدنا ومترجم الرحلة والمقيم في المنطقة أيضا، فسألته عن الطفل القابع تحت جذع الشجرة القريب منا، فقال شيئا عجيبا بالنسبة لي؛ إنه لص صغير يعمل لدى عصابة تسيطر على المنطقة وتروّج للمخدرات.

و بينما نتحدث أنا وعبد الرحمن شعرت بكتلة من الجسد تركض بسرعة نحوي إلى أن اصطدم بجسدي وطوقه بكلتا ذراعيه، ونظرت فإذا به الفتى، وهو يشيح بنظره ناحية زقاق بعيد يبدو أن فيه أحدًا يراقبه ويثير الذعر في نفسه. كان يرتجف من الخوف فوجدت نفسي أطوقه بكلتا ذراعيّ وأبعد ناظره عن الشخص الذي يبدو أنه يثير الرعب فيه.

وانتبه حينها قاسم ومريان وباقي الفريق لما يحدث والتفوا حولنا، حينها سألني الجميع إن كنت على معرفة به، لكن لم أعرف ماذا أقول. أنا لا أعرفه ولا أعرف لماذا عليَّ أن أحميَه؟ لكنني شعرت أنه يتوجب عليّ فعل ذلك وبشدة.

نظرتُ إلى عبد الرحمن حينها؛ فقد كان الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يُطلعني على حقائق الأمور وقد فعل، ومن يومها وأنا عالقة برفقة رفيقيّ ماريان وقاسم هنا مع بابو وحفنة الأطفال الآخرين العالقين مع بابو في المأزق ذاته.

- أنت أنانية.

- تَبًّا! أفزعتني، أليس لباب هذا الشيء جرس تقرعينه قبل الدخول؟!

- انظروا من يتأفف من الوضع الآن؟!

- مريان، لقد اتخذت قراري، اِسمعيني، اِحزمي أمتعتك وغادري أما أنا فلن أفعل، أن لا أستطيع ترك الفتى هنا ليلقى مصير الموت، أعتقد أني سأموت هنا حسنا.

كانت على وشك أن تبدأ الصراخ في وجهي كعادتها، لكن قاسم منعها

رافعا يده نحوها مشيرا لها بالتوقف عن الحديث، ورد هو بنبرته الهادئة:

– تتحدثين عن الموت كأنه رحلة تطوعية أخرى وستنقضي، من أين تأتين بكل هذا البرود؟

ثم جلس على الطاولة وتابع:

– اسمعاني جيدا، نحن لسنا أطفالا، جميعنا دون الخامسة والعشرين، هذا يعني أننا قادرون على التصرف بحكمة والتحلي بالقليل من العقلانية أيضا، ماريان لا أحد يتهمك بأنك أقل آدمية منا أو أنك لا تشعرين بأزمة الأطفال، نحن جميعا ندرك أن كل من في هذه الغرفة يقدر الأمر حق قدره، وحقا يرغب في مساعدة هؤلاء الأطفال، لكن بلقيس عليك الأخذ في عين الاعتبار أن هؤلاء الأطفال هذا كان حالهم قبل أن نأتي إلى هنا وسيكون حال غيرهم بعد رحيلنا عن هنا، ليس هذا وحسب، نحن الآن بين خيارين؛ أن نترك المركب كما وجدناها أو نبقى لنغرق مَن فيها ونغرق معهم، بلقيس بطريقةٍ ما نحن لا نساعد بابو، نحن قد نتسبب في قتله هو ورفاقه، وقتلنا معه أيضًا بالطبع.

لم يكن لديّ من رد، لم يكن هناك من سبيل للرد، لم يكن لديّ حيلة لم يكن لديّ شيء أقوله، اكتفيت بالصمت، وخرجت تاركة الكوخ إلى حيث كان يجلس بابو في المرة الأولى التي رأيته فيها بمفردي أنا وعجزي عن الحراك.

أدركت تماما في هذه اللحظة أني علقت برفقة بابو والأطفال الخمسة الآخرين بلا حيلة أو سبيل، إما أن أذهب وأتركهم ليعودوا للعمل غير الشرعي وتعذيب الأطفال أو أن أبقى بلا حيلة وأتسبب في قضائنا جميعا.

لم تكن المرة الأولى التي أشعر فيها أني محاصرة بلا خيارات، ولم تكن المرة الأولى أيضا التي أستسلم فيها بغير تفكير، كأن عقلي توقف عن العمل، كان عليّ تحمّل الأمر نفسه عندما تركت دمشق للقاهرة مع أمي في العام ٢٠١٥ كان عليّ مواجهة الكثير والكثير من الصمت بلا تفكير.

بينما كنت على حالي غارقة في العدم داخلي، شعرت بريح طيبة هبت عن يميني، وانتفضتْ كل جوارحي عندما رأيت مَن أتى بها، حتى إني فزعت من مقامي على قدمي:

- أمي!!
- مرحبا بل.

***

بياعة الزَّنْبق.. بساحة الميسات..

- أودين استمع إلى هذه الأغنية، أحبها كثيرا.

باعت خمس باقات..

عدل ناظره عن الأفق إليّ وراح يسمع معي الألحان العذبة لإياد الريماوي وكلمات عدنان العودة.

بياعة الزنبق... بساحة الميسات باعت خمس باقات...

وحدة إلي... مني إلك.. بس بتنزلي سبع سموات...

وحدة لمين؟ مدري لمين!! بس عالأكيد مو حزين...

وحدة لأرملة الشهيد...

شاريتا قبل الغلا صبحية يوم العيد...

بياعة الزنبق... بساحة الميسات باعت خمس باقات...

وحدة لأم... بتموت عالزنبق البلدي...

وبتنوح... يــا ولدي...

يــا ولدي...

وآخر وحدة لقاتل... ناوي يخبّي بوراقا، جرح القتيل... قبل ما يسيل...

جرح القتيل... قبل ما يسيل...

بياعة الزنبق... بساحة الميسات...

نفّقت كل الباقات... ورجعت عالمشتل مشتاقة...

زرعت أصابيعا العشرة... العشرين...

لتطلّع الحقلة...

لتطلّع الحقلة...

سوريــيــن...

بياعة الزنبق... بساحة الميسات باعت خمس باقات...

بعد شوي بطلت الغنية وبطل معا حس بدفا.

- ماذا يعني وطن؟

أفقت وكأني كنت في غيبوبة ما، ونظرت إليه في بهائه رغم ردائه الأسود الغريب وقناعه المسخ، وكنت واثقة جدا من إجابتي.

- أنت.

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ٨:٣٠ صباحا

أعشق اللون الأزرق بشدة لكني لم أتخيل يوما أن يكون مخيفا حقا إلى هذا الحد، رغم جماله الذي يفوق كل شيء إلا أن حقيقة وحدته في الصورة كلها لعيني، تجعله يبدو مخيفا حقا.

لا شيء سوى الأزرق على مرمى بصري، في السماء، والمحيط الشاسع من حولي حتى الباقي من أجزاء المركب احترقت تماما وغاصت للأعماق تاركة إياي مع قطعة الخشب وسترة النجاة البرتقالية التي تطفو بقربي... يبدو الأمر كلوحة فنية كلها بالأزرق وبها نقطة برتقالية.

لطالما اعتقدت أن وحدتي ستكون سبب سعادتي، لطالما أردت الابتعاد عن كل شيء، وأظن أن الصدفة لعبت دورها بشيء من السخرية؛ إذ لطالما أردت أن يتحطم قاربي على شاطئ جزيرة نائية ليس فيها أحد، لكن ليس أن يتحطم في منتصف محيط شاسع من الماء دون ملامح لليابسة على مرمى البصر..

ربما تأتي سمكة قرش الآن وتبدأ بالدوران حول جسدي وتنهي الأمر برمته، أو ربما يمر حوت ضخم فيحملني في أحشائه ويمضي إلى أعماق

ساحقة..

لم تكن لديّ أي أفكار إيجابية حينها، لكن عدت لأسأل نفسي: هل نجوت من الغرق لأموت بأفكاري هنا؟!

بدأت الشمس بالدوران حول رأسي كأنها أشرقت هذا الصباح لأجلي فقط. كان عليّ أن أشغل نفسي بأفكار أخرى حينها، أفكار كالأصوات التي كنت أحاول تخيلها في رأسي مختلفة ورائعة... ربما كصوت سيدة بدوية جميلة تتغنى بألحان حنجرتها لا أكثر، وتقول كلاما ليس بمفهوم كطلاسم السحر، تأتيني بصوتها من صحراء بعيدة في بلاد المغرب، تجعل صوتها يرن بأصداء تجذبني إليها بشدة، يا للسخرية!! أيعقل أني فُتنت بصوت حورية بحر ما، لكن حسب الأساطير إن الحوريات تسحر بصوتها الرجال فقط. آه... لست بحارا قد يحملك عبر البحار الشاسعة في سفينته يا حريتي، ولكن لا تتوقفي عن العزف بصوتك؛ إنه يأسرني.

...

- أودين؟! مهلا إنه أودين!! أودين.. أيُعقل هذا حقا؟ أنت أودين.. لكن من أين أتيت؟

عزيزي أودين:

مرحبا، كيف هي الأحوال؟ أتمنى أن كل شيء على ما يرام، ومن عندي فإنه ليس من شيء على ما يرام، لكن هكذا تجري الأمور.. أردت إخبارك عن ذلك الحلم، عندما رأيت نفسي أقف على جسر خشبي جميل ومن تحتي يجري نهر من الماء الصافي البراق إلى حد أني كنت أرى كيف تلهو الأسماك الملونة

فيه بوضوح، وعلى ضفتيه من بين الأعشاب الصغيرة تلهو الأرانب ذات الفرو الأبيض كبياض الثلج.

و سمائي زرقاء صافية، ويصل إلى أنفي رائحة العطور الذكية الطيبة من الزهرات الصغيرات التي تنمو على حواف الجسر نفسه، إلى حد أني ظننت أني في الجنة، ولكن سرعان ما غيمت سمائي وغابت شمسها، وذبلت الزهور من أمامي، وجف النهر ونمت الأعشاب الصغيرة لتصبح أشجارًا ضخمة أحاطت بالجسر لتجعله كالسجن المقيد بـالقطبان.

ورأيت الناس من على الجسر يأكلهم اثنان من الوحوش السوداء، ففزع قلبي، إلى أن جاء من بين القطبان، ثعبان ضخم باللون الأسود المزركش وجلده يلمع كأنما هو مرصع بالماس وعلى رأسه حلي من ذهب، فأتى والتقم تلك الوحوش؛ دفاعا عني واتّجه إليَّ وحدّق بنظره ولكني لم أكن خائفة، ونظرت لعينيه فإذا بهما يفيضان دفئا ونورا.

و لكن أدار رأسه عني ومضى في سبيله بعيدا، وعاود النظر بنظرة واحدة أخيرة تفيض بالأسى، قبل أن يختفي تماما بين الأشجار.

وأظن أني من حينها، وأنا عالقة داخل ذلك الحلم على ذلك الجسر، أنتظر عودة ذلك الثعبان علّه يعيد الضوء أو قليلا من الدفء إلى تلك الأشجار المتخشبة الصلبة.

إليّ عاود الحلم نفسه، ورأيت نفسي أقف على الجسر ذاته وهو على حاله غارق في الظلام. ولكن هذه المرة سمعت صراخك من بين الأشجار الضخمة فهرعت إليك، فإذا أنت عالق بين فكي تمساح ضخم في حفرة من الوحل، أقحمت نفسك فيها، وتسيل الدماء من كل جسدك. ولا أملك لك

شيئا، فلا أجد حتى صوتي في أحلامي يا صديقي فأصرخ. وأكتفي بالفزع من نومي، فأقوم لأتمنى أنه مجرد حلم سيِّئ لا أكثر...

التوقيع: ماكو.

...

- دعي اللوح.

- ماذا؟!

- دعي اللوح.

- لكن لو تركت اللوح سأغرق.

- ستموتين على كل حال، ثم ليس من شيء يدفعك للمثابرة.

- ما الذي تقوله؟! قد يأتي أحد لنجدتي.

- الآن في هذا المحيط الشاسع... لا فرصة لك، دعي اللوح.

كان يبدو باردا في حديثه من خلف قناعه الشيطاني، وكأن أمر موتي وقع هين لا يؤثر سلبا فيه شيئا، فنال من هدوئي وجَلَدي فصرخت في وجهه:

- تبًّا لك، لن أفعل سأتابع السباحة إلى الشاطئ، لديَّ سترة نجاة بقربي.

- أتعنين تلك السترة هناك؟!

نظرت فإذا بها سبحت على بعد أميال بعيدا.

- آه، لا.

- بلى، جرفها التيار بعيدا، كما يجرفك الآن ربما لأعماق أبعد، ربما لأسماك

ضارية تأتي فتلتهم جسدك، أليس من الأفضل أن تتركي اللوح.

كان يتحدث بكل هدوء وبرود كأنه أتى ليُجهز عليّ، لا ليساعدني.

- تبًّا لك، لن أترك اللوح..

أدرت وجهي لذلك المسخ من خلف غطائه الشيطاني، تبًّا لكل شيء كان في تلك اللحظة، تبًّا لتلك البرودة التي كادت أن تجمد جسدي، تبًّا لذلك اللون الأزرق الطاغي على كل شيء، وتبًّا لسترة النجاة التي ابتعدت عني.

***

٢٠- ٩- ٢٠١٨

- أمي!! لكن كيف؟

- بالطائرة، لقد كان سفرا طارئا شاقا إلى هنا.

رحت أتلجلج في الحديث كأن صاعقةً من السماء نزلت برأسي.

- أنا..أنا..

- أنت، لا تريدني أن أرحل بسلام دون القلق بشأنك.

- أنا لا أفهم شيئا.

وضعت حينها رأسي بالأرض فأنا لا أتوقع من أمي إلا صفعة على وجهي إذ انقطعتُ عن الاتصال بها في الأسبوع الذي كان من المفترض أن أعود فيه كي لا تطالبني بالعودة.

تلك السيدة الأنيقة في كل رونقها، وثوبها القيم وعطرها الأنيق، الذي

يزف قدومها من بُعد أمتار. كم أرغب أن أرتمي بين ذراعيها لكن لا أقدر قبل أن أحصل على السماح.

- سيدة هند. مرحبا سيدتي.
- مرحبا قاسم.
- تفضلي خالتي الكوخ قريب من هنا، مرحبا بك.
- شكرا لكِ مريان.

بدا الأمر وكأن قاسم ومريان كانا ينتظرانها في الواقع:

- كنتما تعلمان بالأمر إذًا.

أعادت أمي النظر إليّ بحدّة فعلمت أنه ليس مسموحا لي بالحديث وعاودت بصري للأرض.

- حسنًا لِنَرَ ذلك الكوخ الذي أسركم عن العودة مع الرحلة، وأين هو ذلك البابو، أتحرّق شوقا لرؤيته.

- من هنا سيدتي.

أشار قاسم لأمي إلى الطريق وتبعناها جميعًا عائدين إلى الكوخ. حينما وصلنا كان علينا تدبُّر أمر كرسي نظيف لتجلس أمي عليه؛ فهي سيدة أنيقة وملكة تحب أن يُكرم مقامها.

و الجميع بيننا يدرك ذلك جيدا، فوقفت تنظر حولها إذ لم يكن في الكوخ ما هو مناسب لتجلس عليه، فأسرع قاسم بإحضار كرسي قديم من الخشب كان موضوعا للاستعمال في الكوخ ووضع عليه قطعة ثياب من حقيبته علّه

يكون مناسبًا:

- عفوا سيدتي، استريحي من فضلك.

نظرت حولها قالت:

- أتساءل: كم من العناء يستحق الفتى بابو لـتتدبروا أموركم في مثل هذا المكان.

ثم نظرت إلى الكرسي بشفقة وتوجهت إلى قاسم:

شكرا لك يا عزيزي، لكن بدل البحث عن كرسي لي حريٌّ بكم حزم أمتعتكم؛ لأننا سنغادر اليوم إلى القاهرة، سأنتظركم في السيارة.

حينها التهب قلبي:

- لكن أمي؟!

- بل!! أنا أنتظرك في السيارة، وانتهى هذا النقاش.

لم أستطع حينها إلا أن أُقدِمَ على خطوة انتحارية بالنسبة إلي:

- لن أفعل!

توقفت أمي عن السير إلى باب الخروج، وكأن حينها توقفت جزيئات الهواء حولي عن الحركة، لكنها لم تستدر لي، فتابعتُ الجنون:

- لن أغادر هذه الأرض قبل أن أجد خلاصًا لمن لجاء إليّ.

كادت عين قاسم ومريان أن تغادر مقلتيهما، وهما يحدقان بي، لكن أمي لم تنطق بكلمة، ولم تستدر، حتى إنها تابعت السير خارجة من الكوخ إلى

السيارة.

لم أعرف حينها ماذا عليَّ أن أفعل، لكن للحظة كان أفضل خيار لديّ بعد أن عصيت أمر أمي أن أبقى هنا وألقى نفس مصير الأطفال وأنتهي معهم.

كان قاسم ومريان ينظران إليّ وطالت لحظة الصمت، فلا أعتقد أن أيًّا من ثلاثتنا كان لديه حل، كنا غارقين في التحديق ببعضنا فقط ، وفجأة ارتجفت أبداننا نحن الثلاثة من كلمة قالها عبد الرحمن الذي ظهر على باب الكوخ من العدم:

- يا رفاق.

فزع ثلاثتنا وكأنا كنا نائمين واستيقظنا فجأةً في منتصف كابوس، حتى إن عبد الرحمن بدا مندهشا من رد فعلنا، فراح يتحدث في نبرة هدوء ممزوجة بالاستغراب:

- لقد.. حلت السيدة هند مشكلة الأطفال الستة، وأودع خمسة منهم ملجأ في العاصمة، وأما عن الفتى بابو فسينتقل للعيش مع عائلة بالتبني في السويد، لكي يبتعد عن العصابة التي تعتبره قائد التمرد الذي حصل فيها، وجميعهم سيغادرون كلٌّ إلى وجهته اليوم.

كان الصمت والتحديق مستمرًا، لكن الفرق هذه المرة أننا كنا نحملق في عبد الرحمن الذي تابع قائلا:

- لكن ستأخذكم السيدة هند للقاء الأطفال قبل الانطلاق بالطائرة هذا المساء، فهي ترغب في رؤيتهم بعينيها أيضا، عليكم الانتهاء من تجهيز الحقائب، السيدة تنتظر في السيارة.

حينها وضحت الأمور لـماريان وقاسم، ورغم أنها قد ساءت فوق رأسي أنا إلا أنه لا بأس فقد ظهرت عرابتي الحارسة وحلت مشكلتي في هذه الأرض وبإمكاني الذهاب الآن.

هلل ثلاثتنا بالفرحة وأصبحنا منشغلين بسرعة حزم أمتعتنا فقد كنا قد انتهينا من هذه الرحلة أخيرا.

لكن كان عليّ أثناء حزم أمتعتي أن أفكر في اللحظة التي سأواجه فيها أمي.

فكرت أن أشرح لها كيف كان الأمر عندما ترجم لي عبد الرحمن كلام بابو عن العصابة الذين استعبدوه، وعن لجوئه إليّ هو وباقي الأطفال علّها تدرك أنه لم يكن لي بُد إلا البقاء حتى لو لم أكن أستطيع المساعدة.

انتهينا من الحقائب وأسرعنا مهللين إلى السيارة التي كانت تقل أمي وعبد الرحمن والسائق، كانت سيارة معدة للسفر تتسع لعدة ركاب، وضعنا حقائبنا، وكانت حالتنا رثّة حقا إلى الحد الذي جعلت حوارا ساخرا يدور بين عبد الرحمن وقاسم أثناء وضع الأمتعة في السيارة فقال عبد الرحمن:

- تبًّا يا رجل!! متى كانت آخر مرة حصلت على حمام منعش؟!

فنظر قاسم باستنكار من حديثه واكتفى، وركب عبد الرحمن بجوار السائق بصفته مرشد الرحلة، وركبت ماريان مع قاسم في الكرسي الخلفي وتركوني على خط النار في مواجهة أمي في الوسط، لكنها حتى لم تنظر إليّ.

أذكر شعوري حينها؛ كنت أحترق من الداخل كطفل يجلس أمام كل رفاقه في الصف على كرسي المشاغبين بجوار الباب.

و كانت أمي تنظر من خلال النافذة من وراء نظاراتها الشمسية في صمت وأراهن أنها كانت غارقة في وجوه اللؤلؤ الأسود من حول البيوت القصبية. فما أنا إلا ابنة أمي، وما ورثت ما أنا عليه إلا منها.

أخذتنا إلى منزل عبد الرحمن؛ حيث يختبئ الأطفال، وتمكنت حينها من توديع الساحر الأسمر الصغير الذي سحرني بحبه. أما عن ركوب الطائرة والعودة فحقا لوهلة ما ظننت أن هذه اللحظة ستأتي أبدا.

قبل ذلك كنت قد علمت كل شيء عن قدوم أمي من عبد الرحمن؛ فقد علمت أنها عرفت ما حدث من باقي الطاقم الذي سبقنا بالعودة، وطلبت التواصل مع مرشد الرحلة، ودبرت معه كل شيء، تحمل نفقات الأطفال ونقلهم إلى دور الرعاية، وتوثيق أسرة راعية لـبابو بعيدا عن غينيا.

صحيح أن أمي لم تصفح، ولم تتحدث معي طوال الرحلة للقاهرة، لكن لحظة العودة إلى المنزل أنستني الأمر برمته:

- عدت أخيرا لا أصدق، شكرا أمي.

بمنتهى العفوية طوقتها بذراعيّ دون الانتباه إلى كوني معاقَبة، لكن جمود جسدها وعدم تقبّل أي رد فعل منها أعادني إلى رشدي فاعتدلت وأخذت خطوتين للوراء، ووضعت نظري ناحية الأرض.

و توقعت أن السيدة هالة القوية حتما ستسير دون قول كلمة:

- خذي قسطا من الراحة الآن، سنتحدث في المساء.

ها.. بنبرة استغراب رفعت رأسي وقلت:

- أنا آسفة أمي لم أقصد ما قلته هناك.

أخذت ملكتي نفسا عميقا، قبل أن تبدأ بالانصراف وقالت:

- لا بأس، جميعنا نخطئ.

ثم ظهرت مروة من خلف الركن الزجاجي الملاصق لباب الفيلا، وتفوح من ثيابها رائحة الطعام الذكي، وقلت في نفسي: كم اشتقت لطهو هذه المرأة!! لكن وضوح الموقف المتوِتر لانصراف أمي بملامحها الجادة ووقفتي كالطالب المنبوذ على ذنب حق أجّل ترحيبنا الهزلي قليلا.

ثم ذهبت أمي وبقينا وحدنا فانطلق الهمس:

- عدتِ أخيرا، ظننت أن السيدة ستقتلع رأسك.

- تبًّا للسانك هذا يا امرأة!! صحيح أني اشتقت لطهوك كثيرا، لكن لسانك هذا أحد الأسباب التي ستجعلني أترك هذا البيت.

أومأت بيدها ساخرةً بتلك الحركة الغبية التي أكرهها، وعادت تثرثر:

- تتركين البيت، وهل تقدرين على عصيان السيدة؟! سأذهب لأرى إن كانت تحتاج أي شيء، أما عنك فإن دخلت المطبخ فأنا أحذرك من الأكل دون غسل اليدين، أو هدر الطعام.

ثم انصرفت من أمامي وتركتني أثرثر بهمس:

- مَنِ السيد في هذا البيت أنا أم تلك المرأة؟

لكن رغم كل شيء لم أكن لأقاوم رائحة الطعام الشهي الذي تعده، ذهبت إلى المطبخ وأكلت بدون غسل يدي، وفتحت كل الأطباق لتشيط

غضبا من هدر الطعام.

و ذهبت مروة لخدمة أمي كما كانت تفعل من ست سنوات مضت، منذ أن انتقلنا للقاهرة، تتبعها أينما ذهبت في المنزل كوصيفتها، وتعد لها فنجان القهوة الذي ليس له مثيل كما تقول أمي دائما.

كان شوقي للمنزل حقا لا يوصف، فَرُحْتُ أجوب بين أروقته الواسعة، كنت أراه دائما أكثر براحا واتساعا من القاهرة كلها، منزل صغير بفناء بسيط يتوسط كل تلك العمائر، لكنه قصر شاهٍ هندي واسع الخيال، تفوح رائحة الريحان من كل ركن فيه وهذا بسبب اعتناء أمي بالنباتات بشكل مستمر ورغم وجود مروة وحجّاج كعاملَيْن في المنزل منذ أن انتقلنا إليه إلا أنها كانت دائمة الاعتناء بزهورها وأحواض الأسماك بنفسها، وأعتقد أن هذا دائما كان سبب جمال تلك الأشياء الذي لا يوصف.

منزلنا يعتمد في معظم دعامته على الخشب بكثرة، وبابه أزرق؛ اللون المفضل لأمي. تفوح منه دائما رائحة الريحان، حسنا لكي أكون منصفة أكثر الريحان والقهوة.

ذهبت إلى غرفتي الجميلة كما هي دائما، ملجئي وأماني بعد ذراعَيْ أمي، أذكر حينها أنه من شدة تعبي فإني غفوت بمجرد إلقاء جسدي الهالك على الفراش.

***

الآن في الشرفة.

- عليك ترك الماضي، إنه أشبه بروح عالقة في رأسك بين السماء والأرض



فلا أنت تدعينه يهنأ بمثواه الأخير، ولا تتحملين احتراق خلايا جسدك بقربه واحدة تلو الأخرى.

- آه. لا تعلم كم أشعر بذلك حقا!! كأني أشعر بكل ذرة في جسدي تحترق على حِدَةٍ، وعليَّ أن أعاني نفس الألم في كل مرة.

- إنه انتحار بطء، حتى إنه أسوأ من ذلك الذي قمت به عندما التقينا أول مرة.

كأنه يتفنن في إثارة غضبي في كل مرة يتحدث فيها منذ أن التقيته، ثار غضبي ونهضت من على الكرسي إلى مشغّل الموسيقى اللعين وأطفأته ثم استدرت إليه بغضب:

- كم مرة عليَّ أن أخبرك أني لم أكن أحاول الانتحار في ذلك اليوم، كم مرة عليَّ أن أخبرك أنه كان حادثا لعينا، تبًّا أنت لا تتوقف عن فعل هذا في كل مرة.

راح يدير وجهه وقناعه المسخ ناحية البحر، ولم يتحدث:

- أودين.

- أنا لا آتي بالحديث من عندي..

ثم أطلق نفسا عميقا وراح يتابع.

- بلقيس، أنت تعلمين أني أنا صوت نفسك لا أكثر، أنت تدركين كل شيء لكنك تريدين للأمر أن يستمر هكذا.

- تبًّا لك، أنظر إليك الآن تحدثني كأني أقيدك بسلاسل ما.

قام مغادرا يجر وراءه وشاحه الأسود الذي يغطي كل جسده، ومر من أمامي كأنه لم يرني، ودون أن يهز مروره في الريح شيئا فلم يقف جسده حاجزا بيني وبين الرياح فلا زلت أشعر بهوائها البارد يرتطم بوجهي رغم تغطية صورته المشهد كله من أمامي.

تمنيت لو أن تدفقها البارد توقف لحظة مرروه، تمنيت لو أن الرياح تهمس في أذني أني مخطئة وأنه هنا حقا.

أودين ذلك الذي قابلته للمرة الأولى في تلك الليلة.

...

٢١- ٩- ٢٠١٩

أفقت على كابوس لرجل يرتدي وشاحا أسود، لم أتوقع أن المرة الأولى التي أغفو فيها في منزلي بعد العودة يأتيني حلم مزعج، ثم نظرت فارتعدتْ كل فرائصي فجأة؛ فقد كانت مروة تقف بجوار الفراش مباشرة:

- أيتها الحمقاء، أتريدين إصابتي بنوبة قلبية؟ ماذا تفعلين هنا؟
- شاهدْتُكِ وأنت تتضررين من الحلم.
- ماذا تعنين أنك شاهدتِني وأنا أتضرر من الحلم؟
- نعم.. أنا أقف هنا منذ عشر دقائق.

- يا إلهي، تريد هذه المرأة قتلي حتما!! تبًّا إن كنتِ هنا منذ عشر دقائق، لِمَ لَمْ توقظيني؟!

- أتيت لأفعل ذلك، فقد أرسلتني السيدة لأوقظك لأجل العَشاء،

ولكني خفت أن أفزعك من نومك، لقد كنتِ تتصببين عرقا وتبدين منزعجة كأنك تحلمين بكابوس، فخفت أن أزعجك.

- تبًّا! أنت خفتِ أن تُفزعيني لكنك تركت الكابوس يفعل ذلك؟!

عندها ظهرت رمز الهدوء فجأة على باب غرفتي بعد أن أثار الصياح غضبها:

- ما كل هذه الجلبة؟

اعتدلت مروة في وقوفها ونهضتُ أنا لأقف بجوارها.

- لا شيء أمي.... لا شيء سيدتي.

نظرتْ إلينا بصمت لبرهة ثم أمرتنا بالعدول عن الصراخ وتابعت:

- لقد غفوتِ منذ أن وصلت، حتى إنك لم تغيري ثيابك، أتوقع أن تغتسلي وتبدلي ثيابك وتلحقي بي، أما أنت فحضّري العشاء سنتناول الطعام اليوم في الشرفة بجوار الفناء، تبدو الأجواء هادئة في هذه الليلة أريد الاستمتاع بذلك.

- حاضر أمي... حاضر سيدتي.

ثم انصرفت أمي تتكئ على عكازها الخشبي المطعّم بالأحجار الكريمة، لكني كنت قلقة بشأنها.

- مروة!

- ماذا؟

- ما بال أمي ذابلة روحها؟! رغم اتكائها على هذا العكاز لسنوات

مضت إلا أنها تبدو حقا بحاجته الآن كأنها تلقي بكل كاهلها عليه.

– لا أدري حقا، أنا أيضا أشعر بالأسف عليها كثيرًا، لا أدري إن كانت غاضبة منك بسبب تلك الرحلة، لكن إن كانت كذلك فلِمَ لا تفضّ غضبها فيك وتنهي الأمر وتعود إلى طبيعتها؟

عدت أنظر إلى مروة وهي تتحدث وكأنها تتمنى أن تفضّ أمي غضبها فيّ:

– مروة أريد أن أسألك شيئا؛ لماذا عليَّ أن أتحملك؟!

– لأني أتحملك.

قالت الكلمة بمنتهى البساطة وانصرفت من أمامي؛ فَرُحت أتمتم في غيظ:

– آه، لو أصابتني جلطةٌ ما ستكون بسبب هذه السيدة لا محالة، إنها تريد قتلي حتما.

كان لا يزال حينها كل شيءٍ عبثيا وجميلا بطريقة تجعلني راضية عن الحياة بكل ما فيها، تقابلني مشكلةٌ ما فتهبّ أمي من العدم لنجدتي كما اعتدت دائما.

تلك الليلة لا أستطيع أبدا مهما حاولت أن أنسى تفاصيلها؛ كان هواؤها باردا قليلا ويحمل الدفء في نسيمه وريحه الطيب، عندما نزلت الدرج كانت أمي تجلس في الشرفة، وكانت مروة أنهت تجهيز الطاولة للعشاء، وعلى الرغم من امتلائها بكل صنف ولون إلا أني لم أمتلك الشهية للطعام، كنت أشعر أن أمي تريد إخباري بشيء مهم، شيء ما كنت أعلم في نفسي أني لن أحبه.

حملت أمي الشوكة وبدأت في تناول الطعام برويّة ورقيّ كعادتها، لم تكن المرة الأولى التي أراقبها فيها وهي تأكل، فقد كانت سيدتي رائعة في كل شيء حتى إني كنت أمضي نصف يومي في مراقبة كل فعل تقوم به.

– إذا استمريت في التحديق، فإنك ستفوتين طعم طهو مروة الشهي.

لا أدري ما أصابني ومن أي حدب انقذف كل ذلك الخوف في قلبي، كنت أتساءل: أهذا كله بسبب انقطاعي عن الرد على مكالماتها خلال الأسبوع الذي علقتُ فيه مع الفتى بابو؟

لكن كنت أشعر أنه أعمق من هذا، وجاء الصمت معبرا عن خوفي.

وضعت أمي الشوكة جانبا ومسحت برفق على ثغرها بمنديل ورقيّ، وتابعت:

– الحمد لله، سأذكر دائما أنه كان طعما طيبا وشهيا، وسأذكر أيضا أن مروة اعتنت بي جيدا، و كانت خير سند لي هي وحجاج أيضا، لقد هوّنا العيش كثيرا على غريب نازح من بلاده، وعلى الرغم من نزوحه إلى أقرب أبناء عمومة وطنه شبها به، إلا أنه يبقى الحنين للوطن يا ابنتي.

– أمي... ما الأمر، هل أنت غاضبة بسبب ما حدث في غينيا أنا لم...

ضحكتْ وتبسم ثغرها ولم تكد تصيب أذني صوت ضحكتها البسيط.

– و هل ما حدث في غينيا هو أكثر كوارثك؟! دعينا نخرج للفناء، حتى يتسنى لمروة متابعة عملها، لا يبدو أننا سنأكل رغم طيب الطعام الليلة.

قامت أمي تتكئ بشدة على عكازها إلى استراحة من كراسي الخوص في

فناء بيتنا، وتبعتُها أنا، وباشرتْ مروة عملها، قبل أن توافينا بالقهوة؛ حيث كنا نجلس.

– أتذكرين تلك المرة التي وضعتِ فيها السيف البلاستيكي في عين مريان اليسرى حتى كدتِ تصيبينها بعاهة طوال حياتها؛ لأنها مزّقت دميتك؟ لم أصدق حينها شكلَ مربيتك عفاف عندما هرعت إليَّ لتخبرني ما حدث.

– نعم، أذكر أنكِ منعتِني من متابعة تدريبات التنس كعقاب على فعلتِ.

– آه، لقد كانت فكرة أبيك، كان يعلم مدى شدة تعلقك بذلك التدريب لكن علينا وضع عقاب قاس حينها.

تبسمت، وضحكت ضحكة خفيفة:

– هذا لم يمنعني من الشعور بالذنب، أقسم لكِ أمي.

– نعم، نعم أفهم ذلك لقد استمريت لفترة طويلة، تشعرين بالذنب، حتى إنك توقفت عن تناول الطعام الذي كانت تعده الدادة عفاف، كنت تجبرينني على إعداد الطعام بنفسي، كنت أترك عملي باكرا لأجل ذلك.

– أظن أنه لو لم تتمكن ماريان من تجاوز تلك الجراحة وإصلاح عينها لشعرت بالذنب إلى الأبد.

– كان يتوجب عليك ذلك حقا، لقد كان كابوسا صعبا الحمد لله أننا تجاوزناه، لكني أظن أن مربيتك لم تستطع تجاوز الأمر بسهولة، لقد كانت تبكي كل يوم، يا إلهي كم كانت طيبة تلك المرأة!!

أجبتها بخبث، مُقارِنًة السيدة عفاف بـمروة:

– طبعا كانت كذلك، كيف لا أعرف هذا وقد عرفت مروة؟

ضحكنا جميعا، وإذ أتى المطلوب على ذكر سيرته، فأخيرا ظهرت مروة بالقهوة، وكنت قد تنفست الصعداء وبدأ خوفي يقلّ، وأطمئن إلى كونها ربما ليلة عادية سأتجاوزها وينتهي الخوف.

– لا أدري حقا كيف هو حالها الآن، لم أحدثها منذ سنوات، لقد رفضتِ القدوم معنا، رفضت الهروب، تمسكت بكل شيء هناك، لقد كانت أكثر إيمانًا مني بالبقاء.

شعرت أن أمي تعود إلى تلك الأيام عندما غادرنا دمشق:

– أمي، هوّني عليكِ، لم يكن لدينا خيار آخر حينها.

– نعم... نعم، لا أكاد أصدق أني تركت قبر أبيك، وأتيت إلى هنا، كيف عساني أدفن بقربه الآن؟

– هيا... لماذا تذكرين هذا الآن؟

مدت يدها إلى كوب القهوة الذي صنعته مروة، وأخذت رشفة وتابعت:

– لا أزال أذكر تلك الليلة التي أخبرني فيها أبوك أن أقوم بدفنه تحت أزهاري، كنت أروي له قصةً عن شعر أخواتي الذي قمت بدفنه تحت شجرة الفل، كما تعرفين لقد كن ثماني فتيات يعشن في بيت واحد، وكنت أنا التاسعة، لكِ أن تتخيلي الأمر، كان في منزل أبينا ركن قديم لا يجلس إليه أحد، يبدو كخندق ضيق صغير، وكان فيه مكان ضيق بين حجرين، كانت أخواتي حين يقمن بتمشيط شعرهن يضعن الخصلات المتساقطة فيه على مدى سنوات حتى كبرت ووجدتهن يفعلن تلك العادة فكنت على شاكلتهن أقوم بالأمر

ذاته، إلى أن أتى يوم وجلست طويلا أفكر في شأن هذا الخندق المليء بشعر الحسناوات، وفي يوم آخر اشترى أبي شجرة فلٍّ صغيرة وأهداها إليَّ؛ لعلمه بمدى ولعي بالنبات، فخطرت لي فكرة أن أقوم بتجميع شعر الحسناوات ودفنه تحت شجرة الفل ليغذّي جذورها، كنت أحب كثيرا فكرة دائرة الحياة، أننا عندما نموت فإن أجسادنا تتحلل لتتغذّى عليها البيئة والنباتات، لذلك فإنا نعود بصورة أخرى عندما تمتص الطبيعة أجسادنا، وقلت له: إن من بين كل الأشجار في ردهة منزل أبي كانت تلك التي دفنت تحتها شعر أخواتي هي الأقرب إليَّ؛ فقد كانت تذكرني بهن بعد أن هموا بأزواجهن، فصدّق على جمال تلك الشجرة فقال لي: "ليكن قبري هنا في الحديقة تحت أزهارك فأتمكن من العودة فيها، وتأتيني كل يوم لتعتني بي كما تعتنين بتلك الأزهار".

- لهذا قبر أبي موجود بحديقة بيتنا في دمشق؟

- نعم، لقد وافقتُ على رأيه، وكذلك وافقتْ (وَعْد).

ثم عادت تتذوق قهوتها وتابعت:

- أتعلمين، كانت القهوة مجرد مشروب بالنسبة إليَّ قبل أن ألتقي أباك. لقد كان يحبها بشدة حتى إنها كانت شريكتي الثالثة، لم تكن غيرتي من زوجة أبيك الأولى كغيرتي من القهوة، كنت أحب السيدة وعد بشدة، وكنت دائما ممتنّة لها؛ لأنها منحتني فرصة للبقاء بقرب أبيك، لقد منحتني ما لا يمكن لامرأة في العالم منحه، وقد كانت طيبة عطوفة، وكنت أحبها مثل أختي تماما، إنها أمك إن غابت شمسي، عليك العودة للمنزل وجمع إخوتك.

- أمي!!

- بل، أنا صادقه في هذا، وعليك أيضا أن تعودي بي إلى حيث كانت تلك الأزهار، إلى حيث أبوك، وانثري فوقنا الزرع والزهر، أريد أن أعود فيه مع أبيك.

- أرجوك ما سبب هذا الكلام الآن؟

ضحكت هي، وخفت أنا وارتعد قلبي:

- لا تخافي أنا لن أذهب الآن، أظن أنني سأستمتع بالقهوة أولا على الأقل.

ساد الصمت لبرهة وهي تحدق بي، ثم قالت:

- لقد كنت ممتنّة دائما لله؛ لأنه منحني إياك، كنتِ دائما أعظم انتصاراتي وأكثرها بهجة في عيني رغم كل شيء، رغم كل نجاح حققته كنت الأروع بينها جميعًا، لا أرغب أبدا برؤيتك حزينة، ولا تتوقفي عن افتعال المشكلات، فجميعها تأتي من وراء قلبك، وهو طيب بما يكفي ليجعلها جميعها في طريق الخير.

- سيدتي ومليكتي، أنا أصرخ في وجه العالم؛ لأني أعلم أنك تقفين خلفي.

تبسمت وقالت:

- و سأكون دائما هناك لأجلك، مهما تغيرت الأحداث تذكري جيدًا يا بلقيس أني أعيش في قلبك، وأنا دائما هناك لأجلك.

لا أدري من أين أتت تلك الجملة اللعينة حينها:

- لا أريد أن أُحرم من رؤيتك أمي.

مدت يدها إليَّ، وضعتها على خدي وربّتت عليه برفق وقالت:

- سأكون دائما هناك لأجلك، فإن قلبي متعلق بك.

لم أستطع كبح فيض صدري:

- يضيق نَفَسي بالخوف الذي لا أعرف مصدره يا أمي.

- لِمَ الخوف؟ إنه شعور سيئ.

ثم وضعت الفنجان على الطاولة وبدأت بتغيير الحديث:

- أخبريني، ألا زلتِ تحبين قراءة قصصي؟

- نعم طبعا.

- جيد، لقد انتهيت اليوم من كتابة قصة جديدة، ما رأيك أن تذهبي لتحضريها من مكتبي؟ ربما تخفف قراءتها عبء الخوف هذا.

نظرتُ إلى أمي لبرهة ثم قررت في نفسي أنه نعم سأحارب الخوف بالتجاهل، إنه شعور يخنق روحي وكنت أريد محاربته بأي شيء.

- حسنا سأفعل.

هممت بالنهوض فجأةً لأحضر الكتاب لكن:

- مهلا، الآن.

- نعم لِمَ لا؟

نظرتْ إلى وجهي لبرهة وقالت:

- حسنا لا بأس، اِذهبي.

لو كنت أعلم سر تلك الـــــــ (مهلا) حينها لركعتُ إلى قدم أمي ولم أُضِع لحظة من التحديق بوجهها، عندما عدت إلى الفناء لم تكن أمي هناك حينها، فنظرت إذًا هي بالداخل، فأخبرتني مروة أنها صعدت لغرفتها لتستريح وأنها ستخلد للنوم.

لم أفهم فقد ظننت أننا سنجلس سويًا إلى مجلد قصتها، ونظرت إليه فوجدت اسما غريبا؛ "مديم أرغون "، كانت حيرتي بين الصعود إلى أمي والجلوس إلى المجلد وعدم إزعاجها، فخلصت إلى العودة إلى مكتبها والجلوس على أريكة فيه تحت مصباح مضيء لأقرأ ما جاء في قصة أمي الأخيرة، وهناك التقيتُ أودين للمرة الأولى..

***

الآن

- إذًا وهل أحببت لقاءنا الأول؟

التفت فإذا به قد عاد:

- لقد عدت!

- كيف لا وقد استدعيتِني؟

- ألم تكن ترغب في العودة؟

- ليس مِن عائد لا يرغب في العودة.

رحت أنظر ناحية البحر.

- أتمنى لو كنت هنا حقا.

- أنا هنا دائما.

- لقد أحببتُ لقاءنا الأول، اقترحت أمي ذلك؛ لأنها عرفت أنه سيقتل الخوف في قلبي، وقد فعل، كنت مطمئنة حينها إلى حد أني أمضيت الليل كله عاكفة على صفحة في المجلد لأعرفك، إلى أن ألقيت بفتاتك في قرية نائية، واختفيت، لكني لم أعرف إلى أين ذهبت، ولم أستطع أن أسأل أمي أين أنت؟

***

٢٢-٩-٢٠١٨

- سيدتي!!

انتفض جسدي الغارق بين أوراق مديم أرغون عن الأريكة التي جلستُ عليها في الليلة الماضية مفزوعا بصوت صرخة من أعلى الدرج، ولم أرغب أن أصدق أذني، وهي تلاحق صرخات مروة: "سيدتي، لا ترحلي.. لا ترحلي أرجوك".

فقمت من مكاني أصعد الدرج بحذر ولا أعلم من أين أتى قاسم، ولِمَ يجلس على الدرج محنيّ الرأس، ومن أين أتى حامل الحقيبة الجلد هذا، ولماذَا تنوح مروة خارج غرفة أمي، ولماذا تبكي ماريان هنا.

- بل لم نستطع إيقاظك، لم أصدق مروة عندما أخبرتني في الهاتف أنها تشك في الأمر وأن خالتي لا تستجيب لمحاولاتها في إيقاظها، أكدت عليها ألا تثير فزعك، وأتيت بالطبيب مع قاسم وأكد لنا الأمر.

كانت مريان تثرثر وتثرثر، لكني معتادة على هذا منها، تجاوزتها إلى حيث ترتخي أمي في فراشها، ونزلت على ركبتيّ ورحت أحدق في وجهها الصامت الهادئ، وناديتها:

- أمي!

صفحة سوداء.

***

الآن

- تلك اللحظة التي ناديت فيها أمي لآخر مرة كأني سمعت صوتك. لكن ذلك الحزن كان كثيرا جدا عليَّ لأتحمله.

لا أذكر أني ذرفت دمعة واحدة، لكن يا ليتها سالت أنهارا على خدي، لم أستطع.

لم أكن أريد أن أصدق شيئا مما يحدث، لم أصدق أن قاسم ومريان كانا يعلمان بالأمر، ولم أصدق أن الأسبوع الذي تأخرت فيه في غينيا كان نفسه الذي أخبر فيه الطبيب أمي أنه لا سبيل للعلاج.

- كيف؟

- لقد كانت أمي تعاني من مرض خطير ولم تشأ أن تخبرني، تخيل أنها تركت في وصيتها جملة تقول فيها: إنها لم ترغب أن تفقد ضحكة واحدة من ضحكاتي، لم تشأ أن ترى الحزن في عيني.

تبًّا يا رجل! كيف لها ألا تخبرني؟ كيف تخبر ماريان وقاسم ولا تخبرني؟!

وكيف لم يمكنها أن تأتي باكرا ذلك الأسبوع فتصرخ في وجهي وتقول: سأموت؟! كيف، كيف لها أن تذهب فقط بهذه البساطة؟

- لا أنا لا أعني كيف حدث الأمر.أنا أعني كيف يمكنك أن تتمسكي بكل تلك التفاصيل الواضحة لحدث بهذا القدر من الألم؟!

نظرت إليه إذ أثار في نفسي السخرية فكيف لهذا المسخ أن يشعر بما أشعر به حقا؟!

- نعم أنت محقّ، لا بد أني حمقاء إذًا.

- نعم أنت كذلك بالفعل.

ثم أصاب ألسنتنا الصمت وعادت تصيب أذننا الموسيقى:

" لا تسأل الجرح عما به... بل ادعُ له بالشفاء

و امضِ إلى حيثما شئت فلن... تكسر فيَّ الكبرياء

لا تبكِ على حب قتلتَه... ولا تكتب له قصائد الرثاء..

لا تبكِ على حب قتلته... ولا تكتب له قصائد الرثاء".

- لم أصدق حينها كيف جرت الأمور لقد كنت هناك بجسدي، لم أُرِد أن أصدق أي شيء، كأني رفضت الواقع كله وهربت إلى قصة أودين؛ آخر ما كتبتْه أمي، لم أذرف دمعة واحدة عندما ناديتُها ولم ترد، فقط قمت من جانب فراشها وعدت إلى المكتب؛ حيث أوراق المجلد المنثورة، ورحت أجمعها جميعا وجلست أُغرق نفسي بين سطورها، وأنا على يقين أن هذا كله لا يحدث فعلا، أنا لم أستيقَظ على صراخ مروة، وأمي لم تخبئ عني مرضها،

ومريان وقاسم والطبيب ليسوا هنا، كل شيء طبيعي، وأنا أقرأ قصةً لأمي، وليست آخر كلماتها.

في صدمتي كان على ماريان وقاسم تولي كل الأمور الأخرى، أتت السيدة وعد من دمشق، وغسّلتِ الجثمان، وسافرت عائدة معه إلى دمشق ليستقبله إخوتي من زوجة أبي الأُولى وعد، والباقي من أقاربي هناك لتقبع أمي في مثواها الأخير بجوار أبي تحت رعاية زوجة أبي الأولى وعد وفي غياب تام من ابنتها التي رفضت تصديق الأمر.

" لا تبكِ على حب قتلته... ولا تكتب له قصائد الرثاء ".

- لماذا لم تصدقي حقا أنها رحلت؟ أعني الناس يرحلون.

- لقد كنت ضعيفةً أهرب من الواقع دائما يا صديقي، أذكر أنه بعدما أمضيت اليوم كله قابعة في المكتب بجوار المجلد زادت الجلبة في المنزل، وكادت تصيب أذني تـلك الأصوات؛ مثل: "عزائي سيدة وعد ".. و" لا تبكي يا مروة " و" لا أصدق حقا أنها رحلت "، كنت أرفض حديث الجميع عن رحيلها، وكنت أيضا أرفض أن أصدق أن أمي وعد أمامي في غرفة مكتب أمي في القاهرة، كانت تحاول أن تحدثني لكني كن أرفض أن أسمعها فكيف أسمعها وأنا أرفض أن أصدق وجودها أصلا؟ فلم يكن هناك من داعٍ في ناظري لتأتي من دمشق إلى القاهرة.

- لهذا هربت من المنزل يومها؟

- لم يكن هروبا من المنزل، كنت أريد أن أنعم ببعض الهدوء، وليس لي أفضل من يخت أمي القابع على الشاطئ بالقرب من بيتنا في الإسكندرية،

أخذت ورق المجلد، وركبت السيارة بكل هدوء وسافرت إلى الإسكندرية لأصعد على متن القارب، وأبحر به وحدي دون حجّاج، لم أكن أريد أن يصحبني حجاج في تلك الرحلة، كنت أقول لنفسي: أنا لست طفلة، لمَ أزعج حجاج وأمي أكثر حاجة إليه في إدارة البيت؟ كان رفض ما يحدث هو كل ما أفكر فيه، كنت أبحث عن قليل من الهدوء بعيدًا عن كل الأحداث، لم يكن معي هناك سوى مديم أرغون. عندما أبحرت كانت الشمس قاربت على الرحيل فكنت أراقب لونها البديع وهي تحضن البحر، ثم غفوت، هذا كل ما في الأمر، لأجد نفسي في صباح اليوم التالي غارقة بالقرب من مركب مشتعل.

- محاولة بائسة للانتحار.

تبسمت بسخرية وقلت:

- ليس لي طاقة بجدال معك.

ثم عدت أنظر إليه وهو غارق في نظراته ناحية البحر:

- رغم أنك أردت قتلي، لكنك بطريقة ما أنقذت حياتي، جدالي معك لثماني ساعات في المياه هو ما أبقاني حية.

- لم أفعل، لو كنتِ تريدين الموت حقا لما أتيت بي لأتجادل معك.

استدار إليَّ واقترب من وجهي بقناعِهِ المسخ وهمس:

- أنت من أنقذت نفسك في ذلك اليوم.. وأنت من أتى بي.

" إذا هجرتَ فمَن لي؟ ومن يحمّل كلي؟

ومن لروحي وراحي؟ يا أكثري وأقلي

إذا هجرت فمن لي؟ ومن يجمّل كلي؟

ومن لروحي وراحي؟ يا أكثري وأقلي".

***

عزيزي أودين

مرحبا، " هكذا تجري الأمور "

يا صديقي العزيز أودين، لم أعد أفهم إن كنت تنوي العودة أم أن ريحك قد ذهبت مع من ذهبت ريحهم، لكني هنا يا صديقي أنظر للسماء كل ليلة، وأنتظر أن تأتي الشهب بأخبارك.

تحياتي ماكو.

"ماكو"

جميلة في الخامسة عشرة تبعث برسائل إلى أحدهم يُدعَى "أودين"، وتبدؤها كلها بـــــــــ" عزيزي أودين ".

في عصر مقدونيا والإسكندر الأكبر، وصلت عائلة مقدونية إغريقية هم البطالمة إلى عرش مصر، فبعد أن كان قائدا في جيش الإسكندر الأكبر، وصل بطليموس الأول لحكم البلاد في العام٣٢٣ ق.م، فأكمل بناء الإسكندرية، وجعلها عاصمة للبلاد.

حاملين علومهم وفنونهم وأديانهم ومعتقداتهم إلى كل مكان؛ حيث

رست سفنهم، وحطت جيوشهم، انصهر البطالمة مع الحضارة المصرية فأخذوا منها واتَّبعوا سبلَها، أو كأنما المصريون قد ابتعلوا خصالهم بكل ما أَتَوا به، وأخرجوهم مرة أخرى مصريين.

فبنوا قراهم وأعمدتهم، والأديرة، وانتشروا في الأرض وحكموا البلاد بداية من بطليموس الأول إلى كليوباترا.

و في مدينة صغيرة تقع بعد شقي النهر في أقصى الجنوب في دِرب من الرمال الذي يرجع في وقتنا هذا إلى الصحراء النوبية، في وادي الخَويّ بعد شلال صغير، قد كان حوض قديم للنهر، قامت به ممالك جاء ذكر سيرتها في الصحف والأسفار، وسمّوا المدينة باسم شجرة نخيل عرفت بـ " مديم أرغون "، ويقال لها الآن: مديم الأرجون؛ كانت تنبت في الوادي، المحاط بالكامل بأشجار غابة تفصله عن الصحراء التي كانت تحول بينه وبين أقرب مدينة أخرى، عمل الناس بالزراعة والتجارة الشاقة لبعد المسافات، واقتناء حيوانات الحقول كما أخذوها عن الفراعنة، وكما علمهم المصريون.

كانت الحياة بسيطة والناس يعيشون في رخاء، ولكنهم تأثروا بمعتقدات السحر في مصر القديمة، فكانوا يقتلون ويصلبون كل ساحر؛ خوفًا من أن تصيب لعنة سحره أرضهم، ففر السحرة إلى خارج حدود الغابة، وسكنوها، فأطلق عليها الناس في مديم أرغون: غابة الشياطين، وكان الذهاب إليها محرمًا، وإذا ما فرّ أحد الحيوانات للغابة، فلا يذهب في أثره أحد؛ خوفا من أن تقتلهم الشياطين أو بالأحرى الذئاب.

حقيقةُ الأمر أن الغابة كانت فارغة لا يسكنها سوى فيالق الذئاب التي كانت تهجم على المدينة من حين لآخر فتقتات على قطعانهم من الماشية،

وكان الناس يظنون أن السحرة يرسلون إليهم الذئاب للانتقام منهم بسبب طردهم من المدينة؛ فتسلحوا بالعتاد، وحصنوا حدودهم بالحجارة والحديد، وأقاموا سورا ضخما فصل مديم أرغون عن الغابة المقابلة لها، وتعلموا صيد الذئاب، فقلّت هجماتهم.

لكن أصاب أهل المدينة هاجس من السحر فأصبحوا يسمون كل من يَدّعي ابتداع شيء جديد لا يصدقه عقلهم: ساحرا مجنونا. وعاثر الحظ من يثبتون عليه تهمهم؛ فإنهم يطردونه هو وذويه من المدينة إلى الغابة في طقوس احتفالية ليأخذ شرّه معه.

كانت الطقوس تقتضي أن يُعلّق الساحر من كلتا قدميه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، ويُغطّى بدم الذئاب، ويصنعون حوله دائرة من دماء الذئاب ذاتها؛ ظنًّا منهم أنهم يحبسون شروره وسحره داخلها، ومن ثم يأتي الكهنة فيقومون بقرع الطبول حول الضحية، ويتغنَّون بأسفارهم ومن ثم يلقونه في الغابة وفضائها، وقليل مَن كان يصمد مِن المطرودين في الغابة، فإما أن يموت من الجوع في الغابة المحاطة بالصحراء من بعدها، أو تلتهم لحمه الذئاب، ولم يكن منهم ذو حظ وافر، فلم يكن بإمكانهم حتى قطع الغابة والصحراء فيصلون إلى المدن المجاورة، وحتى في تلك المدن لم يكن أحد ليستقبلهم؛ فالمشهور عن مدينة مديم أرغون في ذلك الوقت أنها لا تطرد سوى السحرة، والجميع كان يخشاهم، وما من أهل مدينة كانوا يرغبون في إيواء ساحر.

كان من بين أهل مديم أرغون امرأة في الأربعين من عمرها تُدعَى "غيم" عكفت على دراسة علوم الطب فيما بقي من علوم الفراعنة، وما جمعه الإغريق

من علوم ، وكانت بين الحين والآخر تقدم العلاج لأهل القرية بالمجان.

كانت سيدة إحدى قصور مديم أرغون، وحَصور ذات قيمة ومقام كريم بين أهل المدينة. لم يكن لها زوج ولا ولد، لكنها كانت قوية جدا وتقود الرجال والنساء بالقول الطيب الحسن، وعلى الرغم من جمالها الفاتن إلا أنها لم تُفتَن بأحد من الرجال، وكانت إذا ما طلّت لحديقتها بثوبها الأبيض الحريري ذي الطراز الإغريقي استهلت طيور الطاووس الأبيض بطلتها، ففردت ريشها ترحيبا، كانت غيم تحب ذلك المنظر في حديقتها كثيرا، وتحفل بوصفه في مجالسها إلى علماء وأدباء القرية التي كان من بينها مجالس الغناء والشعر والفنون، ويحضر مجالسها ساسة القوم وشيوخهم.

كانت غيم ذات فكر متّسم بنور العلوم؛ فلا تهتم بالمعبد، ولا تقدم القرابين للآلهة، ولا تنحني في وجود الكهنة والعرافين مما كان يثير سخط الكهنة والمعبد عليها وعلى سخريتها المستمرة منهم في مجالس السمر خاصتها.

***

الآن

كيف لا يشدو المغني في محياها الجميل يا عيني..

بانةٌ لا يستملها مَن لا يميل يا عيني..

على الهوى صبر جميل..

- أنا أذكر تلك الكلمات؛ إنها من حفلة الصوفية في عامي التاسع.

- ماذا؟ تعنين كلمات هذه المقطوعة؟

– نعم، لكن ليس بهذا الشكل تحديدا، كان تُؤدَّى بطريقة أخرى، لفرقة من الصوفية.

وجه ناظره إليَّ باهتمام، فرحت أحيا تفاصيل تلك الليلة.

– في عيد زواج أمي العاشر أَخَذَنا أبي إلى حفلة في بزار في ضواحي دمشق، وكان قد أعد ذلك خصيصا لأجلها.

كنا نجلس على طاولة في ردهة واسعة، لم يكن فيها سوى طاولتنا وكانت الردهة فارغة تماما، بدا على وجه أمي الاستغراب لكنها كانت كالملكة في فستانها الأزرق المرصّع بالحلي الصغيرة التي لا يكاد يُلمح بريقها، ولم تسأل عن سبب وجود طاولة واحدة في البزار، أولا أتى النادل وأضاء الشموع ثم وضع عصير الليمون أمامنا.

تبسمت أمي وسألت مستنكرة: "الليمون؟! " فضحك أبي وقال: إنها ليلتك، لن يشاركك فيها القهوة. كنت أشرب العصير بعفوية، وأنا لا أفهم سبب الصمت الطويل بينهما، كنت أرى أنهما يحدقان ببعضهما فقط، لم أكن أعلم أنهما يتحدثان كثيرا في تلك النظرات. وبينما نحن جلوس دخلت مجموعة من الرجال في عباءات بيضاء وملأت الردهة في شكل دائري، حينها نظرتُ إلى أمي فإذا بعينيها بريق لامع، إنها من أروع المرات التي كانت تظهر جمال عينيها، وكنت أحدق بها كما أفعل دائما، كأنها كانت امرأة من السماء قليلة الحديث والفعل لكنها بقوة تُلين الصخر، حينها أخذ أبي بيد أمي وصعدا على درج من أسفل الردهة يؤدي إلى طابق ثانٍ يطل على الردهة من الأعلى وبينما يصعدان كأنما يصعدان سلمًا إلى السماء انطلّقت كلمات الصوفيين كوقع على القلب مع حركاتهم المميزة التي لم أستطع فهمها حينها لكنها كانت رائعة

إلى الحد الذي جعلني أذوب فيها:

" بعدتُم ولم يبعُد عن القلبِ حُبكم..

وغِبتُم.. وغِبتُم وأنتم في الفؤادِ حضورُ..

كيفَ لا يشدو المغني في محياها الجميل يا عين

بانةٌ لا يستملها في الهوى من لا يميل يا عيني

على الهوى صبر جميل ".

- أرى أنها وضعت الكثير منها في غيم.

عدت أنتبه إليه:

- نعم أظن ذلك، أظن أنها فعلت.

أودين!!

- همم!

- لماذا أردت قتلي في ذلك اليوم؟!

- ماذا؟!

***

و في أحد الأيام أتى غيم حراس من القصر الحاكم، يطلبون إليها الحضور إلى القصر، ورغم ضيق نفسها بالحكام والملوك، إلا أنها قامت لتلبي طلب المريض، فإذا بإحدى زوجات الحاكم، وتُدعَى "حور"؛ سيدة في الثلاثين تشكو ألمًا في معدتها، فبشّرتها "غيم" بمولود جديد.

لكن مع مرور الأشهر الأولى أصاب المرأة الإعياء الشديد واستمر الأمر طوال فترة حملها حتى إنها لم تغادر فراشها إلا للضرورات القصوى، سلم كل الأطباء في القصر في ذلك الوقت زمام الأمور إلى غيم فقد كانوا يعتبرونها الأكثر مهارة بينهم في الطب، فعكفت هي وخادمتها "مارسيل" على شفاء حور على مرأى ومسمع من كل أهل المدينة والقصر الحاكم.

فكانت تعطيها العقاقير والأعشاب؛ آملةً في أن يأتي مولودها سالما، وتعود حور لطبيعتها بعد أن تضع حملها.

مرت الأشهر التسعة وحور تعاني من الإعياء الشديد، والحاكم ينتظر في لهفة وليّ عهده.

وفي أحد أيام الشهر الأخير تقرر إقامة مراسم الاحتفال بالأمير الجديد حسبما هو معهود لدى أهل مديم أرغون؛ خرج الحاكم لصيد الغزلان ليعود للقصر بوليمة كبيرة من الغزلان يقام عليها مراسم الاحتفال بالمولود الجديد؛ حيث كانت مراسم الاحتفال بمولود الحاكم تقتضي بأن يأتي الحاكم بوليمة من صيده، فخرج هو ورجاله في رحلة صيد ليعود بالغزلان. وفي يوم خروجه أصاب حور ألمٌ شديد، وجاءها المخاض فاستدعى الحراس "غيم" لتهمّ بنجدتها، ولكنه كان يوما عصيبا، كثير الرياح، وشديد البرودة، لم تشهد "غيم" في حياتها ميلادًا أصعب من ميلاد ذلك الفتى، كانت أمه تصارع الموت وهي تضعه.

و لم تكن الأحوال من داخل القصر فقط سيئة، بل من خارجه أيضا، ضربت عاصفة رعدية المدينة وهطلت الأمطار بغزارة في الوادي على غير ما اعتاد عليه قاطنو المنطقة؛ فأهلكت الزرع وأطاحت بضعاف المنازل التي لم

تكن مُعدّة لمواجهة الأمطار الشديدة بحكم المنطقة شحيحة الجود.

وكان الحاكم في الغابة يصارع الطقس السيئ، وتنزلق قدم حصانه على الأرض التي خار تماسك تربتها بفعل المياه، حاول الحراس إقناعه بالعودة والتخلي عن طقس صيد الغزلان من أجل وليمة الاحتفال بالمولود، لكنه أبى إلا أن يحقق لابنه كل طقوس الميلاد، إذ كان الملوك الشجعان وحدهم يدخلون الغابة للصيد في حال رزقوا بمولود جديد.

ولم يشأ الحاكم أن يصيب المولود شؤمٌ من عدم إقامة المراسم؛ فترجّل عن حصانه، وراح يرمق النظر بين الأشجار ليتفقد غزالةً بعد أن نظر إليها وهي تحتمي إلى جذع شجرة من المطر الغزير، فظن أن الفرصة سانحة لصيد أول غنائمه، وبينما هو مستند إلى ركبته، ويثبت سهمه بدقة، إذا بصياد آخر كان يتربص بنفس الفريسة؛ فظهر ذئب قوي من بين الأشجار وانقضّ على الغزالة وقسم رقبتها من المنتصف، فثار غضب الحاكم ، ونسي أن الذئاب تصطاد في قطيع، فتصرف بعفوية وأطلق السهم على الذئب، فسقط قتيلا.

كان من المفترض أن تفر الذئاب الأخرى خوفًا، لكن ما حدث في تلك الليلة كان جنونا مفاجئا للجميع؛ فإذا بقطيع الذئاب ينهال من بين الأشجار على الحاكم ورجاله، وقبل أن يتمكن من سحب سهم آخر ليلقمه قوسه قفز أحد الذئاب إليه فأصابه بعضة قاتلة في العنق.

دفاعا عن الحاكم الذي كان على الأرض يصارع ذئبا فوق عنقه أطلق أحد الرجال السهم على الذئب فقتله، واستعد الرجال برماحهم وسيوفهم لقتال الذئاب بينما سحب رجلان الحاكم وأخذاه على حصانه ليعودا به مسرعين إلى القصر ينهبان الطريق وسط ازدياد الأمطار وانحدار التربة من

تحت أقدام خيولهم بفعل المياه والرياح.

و لم تكن الأوضاع في القصر بأفضل من خارجه، فقد كانت قُوَى الأم قد بدأت تخور وتستسلم للموت وهي تلفظ آخر طاقتها في إخراج المولود، إلى أن صرخ صرخة الحياة الأولى وكأنه انتزعها من الموت نزعا؛ فصرخت " غيم":

- يا إلهي، إنه أمير قويّ حقا، لم أَخَل أنه قد يقاوم كل هذا يا سيدتي.

نظرتْ إلى حور فإذا هي بإعياء شديد، تلفظ أنفاسها الأخيرة، تمد يدها إلى الطفل علّها تحظى بحمله ولو لمرة واحدة، فوضعته "غيم" بين ذراعيها، وقبّلته أمه، ولفظت كلمة واحدة:

- أودين.

وقضت روحها بعد أن سمّت مولودها، وفي انشغال غيم وخادمتها مارسيل لم تتمكنا من منع الخادمات اللاتي خرجن يصرخن من داخل الغرفة: "لقد ماتت سيدتي"، وانطلقت أصوات النواح من بين الجدران، وفي الوقت ذاته انفتحت أبواب القصر على مصراعيها بقوة، وتعالت الأصوات من الأسفل: "استدعوا الأطباء؛ الملك مصاب".

وضعت " غيم " الطفل عن يدها إلى مارسيل وذهبت إلى الطابق السفلي لتسعف الحاكم، فإذا به مصاب بجرح خطير في العنق، وقد غرس الذئب أنيابه في رقبته بإحكام ونزف الكثير من الدماء، وما من سبيل لشفائه، فانهالت "غيم " عليه تحاول إيقاف النزيف وتتمتم:

- تماسك سيدي، أرجوك تماسك.

لكن صاحب الجرح كان مدركًا لقرب نهايته؛ فاستجمع كلَّ ما بقي لديه من قُوى وأمسك يد غيم عن علاجه اليائس، وسألها وهو يتوسل النطق بصعوبة:

- هل نجت حور؟

فصمتت "غيم" فعرف الملك جوابها، فأعاد سؤالا آخر:

- هل نجا الأمير؟

- نعم سيدي، إنه بخير حال لا تقلق.

حينها استاء وجه الحاكم، ومد يده إلى عنق غيم فقرب أذنيها من فمه وقال:

- سمعتُ عنك أنك طبيبة بارعة لا تؤمنين بأقاويل التشاؤم والسحر، والطبيب لا يُهلك إنسانا بل يداويه... عليك بأخذ الوليد... اُهربي بعيدا عن القصر، لا تدعيهم يقتلونه، سيتهمونه بدم أمه وأبيه بأنه جلب النحس إلينا والشؤم.. لا تدعيهم يقتلونه أيتها الطبيبة؛ إنها بلاد داؤها الشؤم، وليس للشؤم دواء.

كانت تلك آخر كلمات الحاكم الذي عاش عمره يناصر الكهنة ويطرد السحرة، وكأنه قد أتاه الحق المبين في آخر أنفاسه، وحينما أدركه الهلاك ما كان أمامه من سبيل للشك في كذب معتقداته، كانت مفاجأة إلى غيم، فعلقت الكلمات في رأسها، وأرادت الهرب بالوليد لكنها كانت قد تأخرت، إذ فور ما لفظ الحاكم آخر أنفاسه نزل أخوه "عالية" من أعلى الدرج وهو يركض إليه، وفور ما رآه جميع الحضور انحنوا على أقدامهم خوفا من بطشة:

- ملكي، سيدي، كيف؟!. لا!!

ثم نظر إلى الحارسين اللذين جلباه وهما يركعان على ركبتيهما وصرخ:

- ماذا حصل؟ كيف حصل هذا؟

فأجابه أحد الحراس في نوبة من الذعر:

- سيدي، هجمت علينا الذئاب وأصيب الملك.

صرخ عالية وقال:

- كيف سمحتم للذئاب بقتل أخي وأنتم فيه قوة وعتاد؟!

فأدرك الحارس الآخر أنهما هالكان لو لم يلفّق قصة قوية توضح أنهم حاولوا الحيلولة دون إصابة الملك بقوة؛ فقال محاولا حماية حياته من بطش الحاكم الجديد:

- لقد فاق عدد الذئاب المئة ذئب يا سيدي... كلها هاجمت دفعة واحدة، لا بد أن السحرة أرسلوهم لقتل الحاكم.

- ماذا تقصد؟ كيف لفيلق ذئاب أن يتجاوز عدده المئة؟!

- سيدي، هي لم تكن ذئابا عادية، كانت أسرع من البرق في السماء، لقد مزقت الرجال أمامنا تمزيقا، وتمكنّا من الفرار بالملك في اللحظة الأخيرة، لقد كادت تلتهم أجسادنا جميعا.

قام عالية في ثورة غضبه، وسحب رمح أحد الحارسين بعنف وغرسه في قلب المتحدث، ونظر إلى صاحب الرمح وقال:

- هل رأيت السحرة؟

فتلجلج الآخر في الحديث، وهو ينظر إلى جثة رفيقه وهي تنتفض منها الروح، وأجاب في فزع:

- لا يا سيدي، لكننا لم نتمكن من منع الذئاب.

- كان دوركما حماية الحاكم لا أن تعودا به ميتا وأنتما حَيّان.

فقام بعنف وغرس رمحا آخر في صدره هو أيضا فأرداه قتيلا.

فقضى على الاثنين في مرأى ومسمع من كل مَن في القصر، ومن بينهم غيم التي كانت تراقب المشهد في فزع بجوار جثة الملك، وهي تنظر إلى وحشية الحاكم الجديد، وأصبحت على يقين أن الطفل إن كان نجا من براثن الموت، فإنه لن ينجو من براثن عمه المجنون.

رفع عالية صوته مجلجلا في القصر كله:

- اليوم مات أخي وزوجته وطفله، إنه يوم شؤم هذه المدينة، في كل عام في هذا اليوم سأخرج إلى الغابة وأعود برأس اثنين من السحرة انتقاما لما فعلوه بأخي وولي عهده.

فردت إحدى الخادمات في القصر، وهي تبكي في انحنائها على الأرض لا ترفع رأسها:

- لكن الطفل حي يا سيدي.

انتبه عالية إلى صوت الخادمة وقال:

- حي!! أين هو؟ أحضروه.

حينها ارتعد قلب "غيم" وشعرت أن الحاكم سيقتل المولود في نوبة غضبه

تلك وأنه سيتهمه بالشؤم، ولكنها بقيت صامتة على مضض، إذ لم يكن في القصر حينها من يجرؤ على رفع عينيه فينظر حتى إلى الحاكم الجديد.

كانت تراقب الخادمة وهي تقترب حاملة الطفل بفزع. أتت الخادمة بالطفل، ووقفت على بعد خطوتين من الحاكم ثم انحنت على ركبتيها، ورفعت يدها بالأمير إلى عمه الذي هدأ روعه فور ما رآه، وسقط الرمح حينها من يده، وراح يقترب ببطء، فنظر إليه وحمله على عكس توقعات "غيم"؛ هو لم يقتله بل بدا مهتمًّا له، وقام فنادَى إلى الخدم أن يحملوا الطفل إلى غرفته، وأن يجعلوا "غيم" الراعية الشخصية له إلى أن يشتد عوده؛ فتنفست غيم الصعداء، وقالت في نفسها: إن الحاكم الراحل كان مخطئا في تقديره، وإن أخاه رغم همجيته فإنه لن يقتل ابن أخيه على الأقل. فقامت هي والخادمات إلى الغرفة التي كانت مُعدّة سلفا للطفل، وغسلت جسده بالماء، و ألبسته الثياب، ووضعته في فراشه الناعم، وغرفته الفارهة ذات الأشغال والزينة الذهبية، وفي صمت وحزن عكفت الخادمات على قضاء الليلة في تنظيف القصر من الدماء، وإعداد البهو لمراسم الدفن والتتويج.

و بينما الجميع منشغل بحاله أتى أحد وزراء الحاكم يقال له "سيزوس" فدخل غرفة الطفل ووجد غيم بقربه ترعاه في فراشه، فنظر إليها وقال:

- هو بصحة جيدة إذًا.

فأجابته غيم:

- نعم يا سيد سيزوس، إنه كذلك.

- لقد كان يوما عصيبا يا غيم أليس كذلك؟

- لقد كان يوما عصيبا على الجميع سيد سيزوس.

فأومأ برأسه وغادر غرفة الوليد، لكنّ غيم أحست منه غير الخير. انقضت الليلة وفي صباح اليوم التالي ولّت شمس الحاكم القديم وجاء يوم الحاكم الجديد، وأُعِدّت مراسم الدفن والتتويج في اليوم ذاته؛ فخرجت العربات تحمل جثمان الملك القديم في جمع من جنوده وزوجاته والجواري، وكان يتقدم الموكب أخوه عالية وهو يحمل شعلة من النيران في يده كأنه يرشد به الميت إلى مثواه الأخير كما ورد في سفر مدينة مديم أرغون.

انتهت مراسم الدفن وعاد الجميع إلى القصر مرة أخرى لتبدأ مراسم التتويج وأغاني الكهنة وتراتيلهم؛ احتفالا بالحاكم الجديد.

كانت غيم تراقب الوضع بفزع تارة، وتارة أخرى بسخرية، لا تنفك تنظر للوليد وتعاود النظر إلى عمه الذي لا يفارقه الوزير سيزوس كظله، وهي بخبرتها في حكام ووزراء مديم أرغون تعرف أنه لا خير يُرجَى من مقربة الوزير إلى الحاكم كظله.

بدأ أهل المدينة يصلحون ما أفسدته الأمطار في الليلة المشؤمة. واستمرت الإصلاحات في المدينة، والاحتفالات بالحاكم الجديد، والصلوات من الكهنة والعرّافين، ولم يكن أحد يفكر في الوليد الجديد، وغيم كانت تتوسم أن الأمور قد حسُنت مستقرًّا ومقامًا لها.

ظنت أنها ستتمكن من رعاية الوليد على مرأى ومسمع من القصر الحاكم، وفي حمايته، فقد تخيلت أن المدينة ستلهي الحاكم وسيزوس عن الوليد، وأنها ستحافظ عليه كما أوصاها والده، وستكون أمه العرابة دون الحاجة للفرار.

كانت تذهب وتجيء بين قصرها وقصر الحاكم إلى أن جاء اليوم السابع من ميلاد "أودين"؛ ظهرت علامة غريبة جدا على الرضيع لم تعرف غيم لها تفسيرًا، وهي أن عينيه كانتا تملكان لونين وكلاهما مختلف تماما عن الآخر؛ إذ كانت عينه اليمنى باللون الأزرق الفاتح كما السماء الصافية، واليسرى بالأسود القاتم كما الفحم المحترق، الحالة التي تُعرف في الطب الحديث بالـ"هيتروكروميا".

عكفت غيم على كتب الطب في مكتبة قصرها عَلَّها تجد شيئا لدى المصريين أو اليونانيين مشابها لنفس حالة الرضيع فلم تجد شيئا مذكورا كهذا، ولم تستطع أن تكبح ألسنة الخادمات اللاتي أشعلن خبر لون عينَيْ الوليد المخيف في القصر والمدينة كما النار في الهشيم.

أما أهل المدينة فقد ساور قلوبهم الشؤم من المولود الذي مات أبواه وغرقت مدينتهم في ليلة ميلاده، ولم يكن الشك بعيدا عن قلب الحاكم الجديد؛ إذ كان لا يزور الطفل في غرفته وكأنه لا يرغب في رؤيته. وهو الأمر الذي ظنت غيم أنه بسبب انشغاله بأمور تولِّي الحكم لذلك لم تفكر في الهرب بـأودين.

و لكن بعد أن رأت الخادمات ما بدا على الصغير أجزمن أنه من نسل السحرة، وأنه شيطان صغير. وبدأت الأقاويل تنتشر في القصر والمدينة عن الطفل ذي العينين المخيفتين. ومع تناقل الأخبار تتزايد الحبكات، فكل ناقل للقصة يُضيف عليها جزءًا من خياله. إلى أن وصلت القصة مسامع الحاكم عالية بعدما أخبرته إحدى الجاريات بأمر عيني الفتى؛ ففزع من مقامه كأن الشكوك في داخله قد تأكدت، وزاد الأمر سوءًا حينما أتاه الوزير سيزوس

وهو جالس في قاعة الحكم في البهو الكبير للقصر المزركش بالنقوش الفرعونية الممزوجة بفنون البطالمة ليؤكد الحبكة المناسبة للقضاء على وليّ العهد:

- إذًا هل هي صحيحة تلك الأقاويل؟

رد عالية بثقة واستهجان لسؤال سيزوس.

- أي أقاويل؟!

- الناس في الطرقات والأسواق يسألون: ما بال الأمير ذي العينين المخيفتين؟!

- ما الذي تقصده؟ إنه مجرد طفل.

جلس سيزوس على كرسيٍّ أمام الحاكم في بهوه وراح يسترسل الكلمات:

- يا صديقي عالية، إن رجالي في كل مكان في هذه المدينة ينقلون إليَّ همس الناس في خلائهم وسرهم وعلنهم، أنت لا تريد أن يقول الرعيّة أن الحاكم الجديد يأوي شبلا من نسل الشياطين في بيته.

ثار عالية، واندفع من مقامه ناحية سيزوس بقوة وصرخ في وجهه:

- ما الذي تقوله؟

- اهدأ يا ملكي، صدقني أنا قادم إليك بما يتداوله العامة.

- إذًا قم بقطع ألسنة الجميع.

قام سيزوس من مقامه بعد أن انفضّ عنه عالية، وأدار سيزوس رأسه عن الحاكم وراح يتحدث بمكر:

– لا بأس إن قُطع ألسنة الجميع فهو أمر سهل، ما الذي قد يحدث لو أنا قطعنا رأس رجل أو رجلين؛ لأنهما يظنان أن الوليد الذي مات أبواه وغرقت المدينة للمرة الأولى منذ أن جاء أسلافنا إلى أرض وادي مديم أرغون في يوم ميلاده، الذي يملك لونين مختلفين للعين في وجهه في سابقة لم يرها إنسان هو شيطان من نسل السحرة؟

لعب سيزوس بمكره في الحديث بذكر كل ما يثير الشك في نفس عالية، لكن نفس عالية كانت ترغب في التمسك بالرضيع:

– ما حدث لأخي وزوجته كان مجرد حادث لا أكثر، لا يمكن للسحرة أن يملكوا تأثيرا على قصر أبي.

عاد سيزوس يبث السم بلسان صديق:

– عالية، واجه الأمر يا صديقي، لأجيال عدة قام أسلافنا بطرد وحرق السحرة، وكلانا يعلم أنهم يحاولون الانتقام بشتى الطرق، أَفِقْ، كيف لا ترى بعينيك المصيبة التي حلّت بقصرك؟!!

بينما يحاول سيزوس إقناع عالية بشرور أودين جاء الحاجب يستأذن دخول الطبيبة غيم.

– الطبيبة غيم تستأذن للدخول سيدي.

– أدخلها.

دخلت غيم في كامل زينتها وثوبها الأبيض المكشوف من على كتف ومعقود على الآخر على الطراز الإغريقي، وأطلت كسيدة أنيقة على الحاكم لا تخشى منه ولا تهاب مجالسه، كل خطوة تخطوها تذكرها كيف كان مرورها

بهذه القاعة في السابق قويًا لا يشوبه ضعف أو خوف، وكيف أصبح الآن بعد أن ترك لها الحاكم القديم ما تقلق بشأنه، مرورا ذا قوة مصطنعة، كي لا تمكنهم من رقبتها أو من رقبة الوليد:

- أتيت لأُعلِمك سيدي بمرض الأمير الصغير وأستشيرك في أن أصطحب فخامته معي إلى قصري لأتمكن من تقديم العلاج المناسب له، والبقاء بقربه باستمرار، وسنذهب حتما في جمع من خادماته.

نظر كل من عالية وسيزوس إلى بعضهما البعض وهما يستمعان إلى حديث غيم، ثم تحدث سيزوس محاولًا فهم سبب رغبتها في أخذ الرضيع، واهتمامها به:

- نعم.. نعم سيدة غيم، نحن نتفهم قضية مرض الأمير، ولكن ألديك تفسير لها.

- لم يَرِدْ شيء في كتب مصر القديمة أو الإغريق عن مثل هذا الأمر، لكن ربما هو مرض عادي ويزول ببعض الأعشاب المستخدمة لعلاج العينين.

تابع سيزوس حديثه بنظرات الخبث إلى عالية:

- الأعشاب.. نعم، تُرى ما هو رأي سيدي عالية في هذا الأمر؟ أنسمح للطبيبة بأخذ الأمير بعيدا عن القصر؟!

دخل عالية في الحديث لينفذ رغبة سيزوس في الرفض الذي أملاه عليه من خلال نبرته في الحديث بعد أن تمكن تماما بخبثه من عقله:

- إنا نرى أن أميرنا لا يغادر القصر الحاكم أبدا.

انفعلت غيم، وأجابت في لهفة:

– لكن يا سيدي إنه بحاجة للرعاية.

– هنا في القصر يرعاه عشرات الجواري والخادمات، مَن في قصرك لرعايته؟ أيجد في قصرك ما لا يجده في قصر مديم أرغون؟ القصر ذي سبع البوابات التي لم يُبْنَ بحجمها في البلاد؟ القصر الذي يخدم فيه آلاف الجاريات والخادمات؟ القصر الذي تُملأ أركانه بالأطباء والجنود؟ أيجد الراحة في مكان بعيد عنه؟!

– يجد العلاج من دائه في قصري سيدي، وهذا كل ما هو بحاجة إليه الآن.

تدخل سيزوس محاولا الإيقاع بها:

– العلاج!! وأي علاج هذا الذي لا يُحضّر إلا في قصرك؟ دعيني أستوضح شيئًا ما سيدة غيم، ما الذي يدفع سيدة في مثل جاهك وسلطانك أن تُفني وقتها في رعاية أميرنا وأمِّه الراحلة من قبله؟

– لأني طبيبة أولا، والطبيب لا يترك مريضا يستغيث، وثانيا لأن الحاكم عالية أولى شأن الطفل إليَّ.

– نعم، نحن نعلم أن سيدي عالية أوكل شأن الطفل إليك، ولكنا نرى أن طبك يدفعك لترك قصرك الفاره للعمل كمربية أطفال لدى أميرنا، لا يبدو هذا منطقيا أليس كذلك سيدي عالية؟

رأت غيم في حديث سيزوس ما في نفسه من عزم، وأيقنت أنه لا سبيل لأودين في قصر مديم أرغون، ورأت أن الحاكم ليس فقط وحشيًا متهورًا،

بل هو أيضا يُصغي إلى وزيره الفاسد.

لكن لآخر لحظة أراد عالية في نفسه إنقاذ الفتى من شرور منصبه كحاكم:

- اسمعي سيدة غيم، إنا نمنحك يومًا من هذه اللحظة، اُعثري على تفسير لما يحدث لِعَيْن أميرنا وأسمح لكِ باستكمال رعايته.

- يوم! مدة قصيرة جدًا لعلاج الأمير.

- سأكتفي بتفسير منطقي لحالته، لا يهمني علاجه الآن، إنّ سيدةً من عِلْية القوم مثلك يا غيم لا يخفى على مسامعها ما تداوله أسوار المدينة وجدرانها عن ابن أخي، أعطني سببا لأصدق أنه ليس حقًّا ما يُقال فيه.

تأكدت غيم في تلك اللحظة أنه ما من سبيل أمامها سوى الهروب بالطفل من القصر، فما دام عالية قد وصل إلى تصديق ما يقوله العامة عن الأمير، فإن الأمر لن يكون ببعيد لو أنه قام بحرق أودين أو ألقى به في الغابة للذئاب.

- سأعمل على إيجاد تفسير لحالة الأمير يا سيدي، اسمح لي بالانصراف.

أشار عالية بيده إليها لتغادر القاعة وهو يرمقها بالنظر؛ إذ لم يكن كلاهما يشعر بالارتياح تجاه الآخر.

في طريقها نحو موكبها لمغادرة القصر وجدت موكب كبير الكهنة العجوز "مالي" يستند على كاهل الكاهن الأول من بعده "زاكوم"، يتحرى الخطوات قدما بقدم، لا يبصر من النور شعاعا بسبب إصابته بالعمى، ويزحف إلى قاعة الحكم؛ حيث عالية وسيزوس.

وعرفت حينها غيم أن الأمور ستزيد سوءًا؛ إذ كان مالي هو الباعث

الأول لأفكار الكهنة وأهل المدينة، وهو الذي يجمع القرابين باسم الآلهة لحمايتهم من الشياطين كما يدَّعون.

الآن وقد حضر يجر جسده الخائر إلى قصر مديم أرغون لا تتخيل غيم أن الأمر أقل من ادِّعاء بشيطانية أودين. فلم تغادر القصر، وعادت إلى الداخل؛ إذ إنها أدركت أنه ما من سبيل أمامها الآن إلا الهرب، وأنه ليس لديها متسع من الوقت لفعل ذلك.

ظنت غيم أن عالية وسيزوس سيلتهيان بأمر زيارة الكاهن مالي، وأنها ستأخذ الطفل دون أن يشعر أحد، كانت خطواتها مليئة بالفزع والاضطراب؛ إذ كانت تعرف أن الهرب لن يكون أمرا سهلا من القصر. وحتى لو تمكنت من الهروب من القصر فأين تذهب من بعد سور مديم أرغون؟ فليس سوى الحقول المكشوفة الواسعة، ومن ثم الغابة والصحراء من بعدها تفصل بينهم وبين أقرب مدينة مسافة سير القافلات، أيام لجيوش ذات عدة وعتاد، فكيف في هذا الوقت القصير تدبّر أمرَ هروبها من مديم أرغون؟ في اندفاع منها ولهفة في الأنفاس فتحت باب غرفة أودين في عجالة على مصراعيه ففوجئت غيم بعالية يحمل الوليد ويدقق النظر في عينيه كأنه يرى شيئا عُجابًا، وفوجئ سيزوس وعالية بأن أحدهم للتو فتح الباب دفعة واحدة في غير إذن من الحاجب للدخول إلى الأمير.

تحدث سيزوس ليسألها عن سبب لهفتها:

– سيدة غيم!! تبدين في لهفة من أمرك، تُرى ما سبب لهفتك تلك التي لا تجعلك تستأذنين للدخول في حضرة سيدي عالية؟

– سيزوس، اهدأ هذا لا يهم الآن.

برر عالية لـغيم موقفها وتابع مستغربًا عودتها:

– ظننتك ستحاولين إيجاد تفسير لهذا الأمر. أَمَا في كتب الطب لديك ما يفسر كيف لطفل جميل مثل هذا أن يولد بلون عينين مختلفتين؟

بدا على عالية أن قلبه يرق كلما رأى أودين في مهده، بدا في حديثه ونظراته إلى غيم كأنه هو الآخر لا يريد أن يصدق أن الطفل ساحر أو شيطان. وبدا كأنه يتوسل غيم لإيجاد تفسير في كتبها أو حجة يصدقها، ويخرج بها إلى الناس فيكفّ ألسنتهم، لكن دعاة الجهل كانوا أسرع من غيم بخطوة.

دخل الحاجب يستدعي عالية للحضور لقاعة الحكم.

– سيدي عالية، الكاهن الكبير مالي في حضرتكم ينتظر في قاعة الحكم.

حينها انتبه الجميع إلى حديث الحاجب وانتفضت الأبدان، فأشار عالية إلى الخادمة أن تحمل الطفل عن يده وتعيده لمهده.

– الوزير سيزوس والسيدة غيم، اتبعاني إلى قاعة الحكم من فضلكما.

لم يعد أمام غيم الآن من بُدّ سوى المواجهة حتى الرمق الأخير، فنظرت إلى أودين تستجدي من جماله القوة والثبات، وتبعت عالية من بعدها إلى قاعة الحكم، والتي بدا فيها من الطريقة المهيبة التي استقبل بها عالية كبير الكهنه أنه سيرضخ له:

– سيدي مالي، لِمَ كبّدت نفسك عناء القدوم إلينا؟ لو أنك أمرت لأتينا نحن إليكم.

أقبل عالية بكلماته ومن ثم مكث على ركبتيه هو وسيزوس أمام مالي

الذي كان يتكئ بكل جسده المليء بالشحوم الذي يواريه في ثوب الكهنة المهلهل إلى الكرسي الأقرب لكرسي الحكم في القاعة، ويوجه رأسه ووجهه المليء بالبثور السوداء والوشوم وعينيه البيضاوين تمامًا من العَمَى إلى أعلى.

- لا بأس...

ثم صمت مالي قليلا وراح يقلب رأسه يمينًا ويسارًا كأنه يستشعر بحسّه بديلا عن نظره كل ركن في القاعة، ثم قال:

- أرى أنكم دخلتم ثلاثة فركع اثنان منكم ولا يزال الثالث واقفا، أيقف أحد في حضرتي غير خادمي "زاكوم"؟

- ماذا؟!

نظر عالية حوله فإذا بسيزوس راكع على الأرض وغيم لا تركع.

فقام من مقامه وثار غاضبًا.

- سيدة غيم، تتجرئين على الوقوف في حضرة كبير الكهنة مالي؟!

أجابت غيم وصوتها يحمل كل نرجسية عرفتها يوما.

- أنا لا أتبع معابد الكاهن مالي، ولا أدين بديانات أهل مديم أرغون.

- ماذا؟ ما الذي تقولينه يا امرأة؟ أتتبرئين من دين الأسلاف؟!

نظر "زاكوم" إلى غيم بغضب وعلق قائلا:

- من هي تلك المرأة التي تتبجح بالحديث في حضرة الكاهن مالٍي؟ أيها الحاكم عالية، أنا أحذرك من لعنة الآلهة إذا لم تأمر بعنق هذه المرأة حالاً.

نظر عالية إلى غيم في ثباتها وهي تتحدّى بوقوفها في حضرة الكاهن مالي كل ما عرفه يوما:

- غيم، اركعي الآن واطلبي العفو من الكاهن مالي ليغفر لك خطأك هذا.

حينها ثار غضب "زاكوم" ولوح بعصاه قائلا:

- أيها الحاكم، أتعفو عَمَّن يسيء إلى الكاهن الكبير مالي؟!

حينها شخص عالية بناظره ناحية غيم وصرخ عَلَّه يستحثها على الركوع:

- غيم!!

فردت بثبات:

- أبدًا.

جاء رد غيم قويًا وقاطعًا لأصوات الجميع الذين كانوا يترقبون في ذهول من شدة جَلَدها، ولكن رَأَى عاليةُ أنها لم تترك له خيارًا آخر:

- أيها الحراس..

صرخ بشدة ليستدعي حراس القصر فيصرفوها من أمامه إلى أن يرى ما هو فاعل بِأمرها، لكن حدثت مفاجأة؛ وهي خروج مالي عن صمته؛ إذ رفع يده بالكف عنها والتزام الهدوء فصمت الجميع وأنصتوا إليه إلا غيم التي لم تعتبر له حتى بعدما كفّ حراس عالية عنها.

- لقد سمعتُ بأمر امرأة حَصور، تسكن قصرًا في مديم أرغون، وتربي في حديقتها طيور الطاووس البيضاء النادرة، إلا أني لم أَشَمَّ ريحها يومًا في

معابد الآلهة. تصنع العقاقير، وتعطيها للفقراء، وتشفي المرضى بغير الماء المقدس في شلالات المعابد، كأن النهر قد قذف بها إلى مديم أرغون من بلاد ليست ببلادنا.

- لقد تربيتُ ونشأت في مصر، وكان أسلافي من أوائل القادمين إلى مديم أرغون؛ هذه أرضي وبلادي.

- جيد، وسمعت أيضا أنكِ كنتِ القائمة بعلاج "حور" قبل وفاتها، وأنك كنتِ مَن وُلِد الشبل على يده، وكنتِ آخِرَ مَن رافق الأسد قبل لفظ روحه.

- نعم حدث هذا كله.

بدا الكاهن كأنما ينسج خيوطًا في رأسه تطيح بغيم والوليد معا:

- نعم... نعم، أحضروا الشبل إليَّ لأباركه.

حينها فزعت غيم وتبادلت النظر إلى عالية، ولم يكن يبدو أنها وحدها من أصابها الفزع والريبة.

- أيها الحراس، أحضروا الفتى من غرفته.

كمن يبحث عن خلاص أخير ألقى عالية أمره، وانتظر أن يوكل الأمر إلى كبير الكهنة مالي. دخلت إحدى الوصيفات تحمل الأمير متبوعة باثنين من الحراس، ثم اقتربت وهي تضع رأسها في الأرض، وليس لأحد من جبهة مرفوعة سوى عالية وغيم وزاكوم، حتى الحارسان لم يقتربا، وركعا من على بُعد من الكاهن مالي، والخادمة عندما اقتربت ركعت على ركبتيها، ووجهت رأسها للأرض ورفعت يدها بالوليد، الذي فزع زاكوم منه فور ما

رآه، فراحت الخادمة تزحف على ركبتيها لتمد الوليد إلى مالي فأوقفها:

- أوقفي زحفك يا امرأة، وأبعدي الوليد عني، انظر في شأنه يا زاكوم، أصحيح ما قيل في لون عينيه؟

- إنه أمر عُجاب يا سيدي، لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا، لون عينيه مختلف تماما إحداهما بالأزرق المضيء، والأخرى أسود قاتم.

سكت مالي قليلا ثم أمر الوصيفة:

- كفي زحفك أيتها الوصيفة، وعودي أدراجك لا بركة للمولود عندي.

فانقبض عالية وقال وهو يتلجلج في الحديث:

- لكن يا سيدي لماذا؟ ما السبب؟

- ألا ترى أن الشياطين قد نالوا من قصر مدين أرغون وزرعوا ذريتهم فيه أم أن العماء قد أصاب الحاكم في أول مُلكه؟

تحدث سيزوس ليزيد من حبكة الكاهن:

- سيدي الكاهن الأكبر، لقد كنا في حيرة من أمرنا والآن بيّنت لنا ما يخلص ضمائرنا، شكرا لك يا سيدي، نتمنى أن تشرف على صلوات التطهير، لنطهر قصر مديم أرغون من دنس الشياطين.

تدخلت غيم في الحديث مقاطعة صوت سيزوس.

- عن أي دنس تتحدث يا سيد سيزوس؟ إنه ولي عهد هذا القصر وأميره.

قام مالي يتكئ على ذراع زاكوم ليغادر القاعة قائلا:

- يحتاج هذا القصر إلى ما هو أكثر من مراسم الطهارة، ومَن يدري ماذا سيحل بـمديم أرغون من سوء ما أصاب قصرها.

وبدأ بمغادرة القاعة يتبعه زاكوم وصغار الكهنة وسيزوس ليرافقهم إلى خارج القصر؛ حيث الموكب الخاص بالكاهن مالي.

و بقيت غيم وعالية في حيرتهما:

- سيدي عالية، لا تصدق ما قيل في حق ابن أخيك.

انفعل عالية وردّ بغضب.

- لماذا عُدتِ؟ لماذا؟

أمرتُك بالذهاب والبحث في كتبك علّك تجدين تفسيرا لهذا الأمر، لماذا عدتِ إلى القصر قبل أن تفعلي ذلك؟ لماذا لم تأتِني ببيانٍ أصدقه وأخرج به إلى العالَمين فأقطع رؤوسهم عن ابن أخي.

جاء رد غيم سريعا لتحاول الحيلولة دون إيذاء أودين.

- أنت لن تسمح لهم بحرق ابن أخيك، هذا ادِّعاء باطل، لا يوجد في الغابة شياطين صدقني.

رد عالية مستغربا ثقتها في الحديث:

- أين الدليل على حديثك يا امرأة؟ من أين تأتين بكل هذه الثقة في تكذيب أسلافنا منذ أن أتينا إلى مصر؟ ما هي حجتك؟

- حجتي هي العقل، انظر حولك، هل رأيت يوما شيطانًا يهجم على مديم أرغون؟

- أرسلوا ذئابهم فقطموا رؤوس أطفالنا وحيواناتنا ودمروا حقولنا.

- إنها مجرد حيوانات برية تسكن الغابات كغيرها من الضواري لا أكثر.

حينها صرخ عالية في وجه غيم:

- تلك الضواري قطمت رأس أخي، اسمعي يا هذه، لا تُملي عليَّ أفكارك المسمومة، اذهبي إلى كتبك وعلومك وعودي بما يفسر ما يحدث للفتى، وإلا بطلت حجتك وكذب ادعاؤك، وصدق مالي وسيزوس.

- لكـ...

قطع عالية حديثها، وقال:

- ليس لديك متسع من الوقت عودي بحجتك وإلا قطمت رأسك قبل أن أحرق ابن أخي.

حينها أدركت غيم أنها والفتى هالكان لا محالة. خرجت مسرعة إلى موكبها لتعود إلى كتبها علَّها تجد شيئا ينقذ أودين، وفي هذه الأثناء كان سيزوس وزاكوم يتبادلان الأفكار عند باب القصر بعدما ركب الكاهن مالي موكبه وانطلق:

- منذ الوهلة الأولى التي رأيت فيها هذا الرضيع علمت أن هناك خطبًا ما.

- ألا يكفي عالية بيانا قضاءُ أخيه وزوجته بفعل شرور الرضيع؟ إنه من نسل الشياطين لا محالة، إن لعنتهم ستصيب قصر مديم أرغون. أيها الوزير سيزوس، اِرجع إلى وليّك وأصلح عقله عَلَّه ينقذ قصره من الهلاك المحتوم.

- نعم، أيها الكاهن زاكوم.

انطلق زاكوم هو الآخر لوجهته واستدار سيزوس ليجد قائد حرسه "أكتيفوس" الذي يترقبه كظله يقف خلفه فاستدعاه.

- بأمرك سيدي.

- أرسل إلى رجالنا في كل أنحاء مديم أرغون فليجمعوا الناس سرًا دون أن يشعر بهم أحد، أريد أن يأتي كل أهل مديم أرغون مطالبين بطرد الشيطان أودين من المدينة، أريد أن تعلم المدينة كلها أن كبير الكهنة مالي أَقَرّ بشيطانية الرضيع.

- نعم، بأمرك سيدي.

لم يمر الكثير من الوقت إلا وكان أهل المدينة مجتمعين أمام قصر الحاكم يطالبونه بإجراء مراسم طرد السحرة على الرضيع؛ إذ بدؤوا يجزمون أنه من نسلهم، وأن الملكة المتوفاة كانت قد حملت إثم خلط دمائها بأحد السحرة.

ارتاب عالية وبدا أن الأمور تخرج عن سيطرته ولم يعلم ماذا يفعل أو كيف يفسر الأمر، ثم جاء سيزوس في أوج الصراع ليضع اللمسات الأخيرة:

- إن الطفل من نسل السحرة لا محالة، أو أنهم سحروه وهو في بطن أمه.

- مستحيل أن يكون من نسل السحرة؛ أنا أعرف "حور" جيدا، لقد كانت ملكةً أبيَّةً من قلبها، لا تبيع مِن أخلاقها شيئا ولو بدمائها ولحمها.

- إذًا لا بد أنهم وجدوا طريقةً ما لسحر الطفل ليتمكنوا من تدميرنا من الداخل.

- مستحيل.

- فكِّر في الأمر؛ إنه ابن الحاكم، وولي العهد، وفي يوم ميلاده مات أبوه، وماتت أمه وهي تضعه، وقد رأت الأمرّين طوال فترة حمله في أحشائها، والآن عيناه المخيفتان، إنه نذير شؤم وسحر عظيم، ألا يكفيك ما قاله مالي عن الفتى؟ عليك قتله الآن، فإنه إن لم يكن من نسل السحرة فهم بالفعل سحروه ليستولوا على الحكم من خلاله عندما يكبر ويحمل العرش من بعدك، سيدي عالية، إنه الوريث الوحيد للعرش إلى الآن. تخيل ما الذي سيصيب مديم أرغون لو أن شرًّا بقدره وصل لعرشها، عليك أن تفكر في شعبك سيدي، عليك أن تهدِّئ الناس المجتمعين خارج القصر.

- مَن قد يفعل هذا بأخي وزوجته؟ مَن يقدم السحر لزوجة أخي فتلد طفلا بهذا القبح؟

- "غيم".

جاء رد سيزوس حاضرًا وكأنه أعد له جيدًا، ولكنه كان ما لم يخطر على بال عالية:

- "غيم" الطبيبة؟!

- تقصد الساحرة، مَن غيرها يُعِدّ العقاقير في المدينة؟ من غيرها يعالج بغير الماء المقدس؟ ومن غيرها كان مطّلعًا على حالة "حور" الصحية؟ والأدهى من هذا أنها أقرت ببراءتها من المعبد، ومن دين أسلافنا، أيحتاج الأمر إلى تفسير؟!

- تقصد أن غيم ليست طبيبة وأنها ساحرة؟ مستحيل، ما الذي قد يدفع

سيدةً كغيم لمزاولة السحر؟

– المال والسلطة، ألم تَرَ كم هي متعلقة بالطفل؟ إنها ترغب بالثراء من ورائه.

– أتبيع أرضنا للشياطين؟ ولكن أي نفع يُرجَى منهم؟!

– ربما هي أيضا منهم، هي لم تتزوج إلى الآن، ولا تزور المعبد، وتزدري الكهنة، أي دليل آخر تريده؟

– لقد أرسلتها لتعود بدليل على براءة الفتى.

– بل إنك منحتها الفرصة للهرب يا سيدي.

سكت عالية، ولم يكن أمامه من بد سوى أن يصدق ما قيل في حق غيم بعد أن بث سيزوس سمومه في أذنه؛ فثار غضبه مرة أخرى، وصرخ في الحارس:

– اجمعوا القوم؛ ستقام مراسم حرق سحرة اليوم.

خرج الحراس فنادوا في المدائن حاشرين، ووصل الخبر إلى مسامع غيم؛ إنه ستقام مراسم حرق للسحرة في المدينة، لكنها لم تأبه وأتتها فكرة وهي أن تعدّ دواءً ما وتدّعي أنَّ مِن شأنه أن يشفي الطفل ويُعيده لطبيعته بعد يومين فتهدّئ من روع الأحداث إلى أن تتمكن من الفرار بـأودين.

وعندما قامت لتجد العشبة التي تصنع منها الماء المعالِج للعيون فلم تجد لديها منها فائضا فقامت إلى حصانها وغادرت إلى الغابة؛ حيث اعتادت جمع الأعشاب الطبية لتبحث عن عشبة طبية لا تسبب ضررًا لعين أودين.

ذهبت غيم إلى الغابة علَّها تجد العشبة لتصنع حجة تجعلهم يؤجلون أمر قتل الفتى لكنها ما كانت تعلم أن الوقت قد انتهى، في غيابها دخل سيزوس وجنوده قصر غيم بخيولهم؛ فأفسدوا الحديقة ودمروا أزهارها وقتلوا طيور الطاووس التي فرّ بعضها من الحديقة، وحطموا الباب الأمامي للقصر، ودخلوا بخيولهم إلى مكتبتها ومعمل العقاقير خاصتها يدمرون ويدهسون كل شيء في طريقهم، فخرجت خادمتها مارسيل تصرخ:

- ويحكم!! ماذا تفعلون؟!

فرد عليها أحد الجنود بسهم أرداها في مكانها، وتابعوا البحث في كل أركان القصر عن غيم ولكن من دون فائدة، فغادر سيزوس وجنوده عائدين للقصر ليؤكد صدق حديثه لـعالية من خلال ادِّعاء هروب غيم من قصرها.

عندما عادت الأخيرة إلى قصرها وجدت أنَّ كل ما أحبَّته يوما قد أرداه التراب والفساد؛ زهورها الجميلة محطمة، وطيور الطاووس تنزف أجنحتها ومحطمة صدورها بالسهام، ومكتبتها الكبيرة ممزقة إلى أوراق على الأرض والحرير الذي كان يغطي جدران قصرها ملوث بأقدام الخيول، ومعملها وعلومها ملقاة رأسا على عقب، كأنه بين أقل من ليلة وضحاها انهدمت حياتها كلها دفعة واحدة.

بينما هي تتجول في ذهول سمعت صوت مارسيل وهي تنادي بآخر صوت لديها من على الأرض:

- سيدتي، غادري مديم أرغون؛ إنهم قوم جهلاء، اِحرقي القصر ومعه جثتي فيُخيَّل لهم أنك حُرقتِ فيه واهربي، أكرمي قصرك وعلومك واحفظيها من دنس هؤلاء القوم، احرقيها ثم اهربي وأعيدي سردها، لا تطفئي ضوء

علومك سيدتي.

كانت غيم تقوم بإسعاف مارسيل أكثر من سماعها:

- توقفي عن الحديث مارسيل، سأساعدك، سنسحب السهم وأداويك.

- لا فائدة من علاجي الآن سيدتي.. أرجوك لا تضيعي المزيد من الوقت.

- مارسيل سأنقذك، السهم ليس قريبا جدًا من القلب.

- ...

- مارسيل... مارسيل...

سكتت مارسيل تماما وغاب ضوؤها، ولكن أصواتًا أخرى تعالت؛

جاءت أصوات الطبول القارعة من خارج القصر لتنبئ غيم بأنه ليس لديها متسع من الوقت؛ إذ اجتمع الناس خارج قصرها وهم ينعتونها بالساحرة، ويقرعون الطبول استعدادا لمراسم الحرق، فعرفت أنها إن لم تحرق علومها التي قضت عمرها تجمعها بيدها الآن فإنها ستحترق معها إلى الأبد.

فقامت بجمع كل ما يُعينها على الهروب وما استطاعت جمعه من قراطيس وأحبار، ووضعته في قطعة من القماش استعداد للهرب مستغلة خوف الناس من دخول القصر بما أنهم يعتبرونها ساحرة، ثم قامت بجمع كل المواد الحارقة في القصر، وأشعلت النيران في كل أركانه وهي تحترق ألما مع كل ما يحترق فيه دون أن يسعها شيء سوى أن تكفكف دموعها وتتابع العمل.

مع كل زاوية تبثّ فيها النيران هي في الحقيقة تحرق جزءًا من روحها

وكأنما تودع المكان الذي قضت فيه عمرها بين البهاء والعلوم إلى أن أضحى بها الحال بلا هوادة شريدةً وضحية لعلمها.

عندما اشتعلت النيران من داخل القصر وتحول إلى شعلة هائلة تضيء الليل القاتم زاد خوف الناس؛ إذ إنهم رأوا أن القصر اشتعل من تلقاء نفسه فراحوا يبتعدون عن النيران فسهل لغيم أن تمتطي حصانها وتفر للغابة من الفناء الخلفي للقصر.

نمت أنباء احتراق قصر غيم إلى مسامع عالية وسيزوس، فأمر عالية سيزوس أن يتفقد القصر باحثًا عنها فذهب في جمع من جنوده؛ فإذا بالقصر قد احترق بكل ما فيه ولم يعد منه شيء سوى التراب المنثور، إلى حد أنه صعب حتى التعرف على الجثة المحروقة فيه، إن كانت تعود لغيم أو للخادمة، فعرف سيزوس أنه لا شمس لغيم بعد هذا حتى لو كانت حية، فإنه لا حياة لها بعد حرق بيتها وعلومها، فعاد يخبر عالية أنه وجد جثتها متفحمة داخل القصر.

- إذًا صدق الكهنة وكذبت غيم.

قالها عالية وهو يعتصر ألمًا فرد عليه سيزوس:

- أكان لديك شك في هذا إلى هذه اللحظة يا سيدي؟

- كان لديّ أمل إلى الرمق الأخير أن تكون قد صدقت، لِتُقَمْ مراسمُ الطرد، اُخرُجوا إلى الغابة وائتُوا بدماء ذئب قوي، وأرسلوا إلى الكهنة ليقيموا المراسم.

قالها الأخير وقلبه يأبَى عليه، لكنه رأى أن يرجّح أصوات مَن هم حوله. عندما علمت الخادمات بأمر الحاكم خِفن أن يقتربن من الفتى وأجزمن أنه

شيطان صغير، فذهب سيزوس إليه في مهده وأخذه؛ استعدادا للمراسم.

عندما وصلت غيم إلى الغابة أطلقت حصانها؛ لكي لا يستدل أحد على وجودها به، وراحت تحتمي بالأشجار والأغصان إلى حين أن تهدأ نفسها، فتنظر ماذا تفعل، وكيف تعرف ما يحل بالفتى، ولكن أتاها الجواب سريعًا، بينما هي في جلوسها في الغابة سمعت صهيل الخيول يضرب في الأرجاء، فاختبأت في جذع شجرة ضخمة تضرب من فوق الأرض، وراحت تختلس النظر؛ فإذا هم صائدو القصر قد أتوا على خيولهم يحملون السهام، فأجزمت أن الحاكم سيُجري مراسم طرد وليس حرقا للرضيع. ولكي تزيد من التأكيد على ظنها اختبأت في طريق العوة للمدينة لترى ما يعود به الفرسان.

في القصر دخل سيزوس وهو يحمل الطفل إلى قاعة الحكم ليستأذن عالية في أخذه إلى المعبد:

- الآن سيدي سأذهب به إلى المعبد، وغدًا صباحًا تقام المراسم.

- ...

نظر عالية من بعيد، وأشار بيده ملوحًا ليأذن لسيزوس بالرحيل حاملًا الفتى دون أن يعلق بكلمة واحدة، فغادر سيزوس، وصعدت إحدى جاريات عالية إلى مقربة من جلوسه على كرسي الحكم ومالت على كتفه وقالت:

- لقد كان يومًا شاقًا على مولاي، لكن لا بد من اتخاذ بعض القرارات الصعبة في الحياة أحيانًا يا سيدي.

- ...

نظر إليها عالية في زينتها، وأطال التفكير: هل هذا كل دور الحاكم؟ أن يأخذ برأي جواريه ومستشاريه والكهنة الحكماء؟

- أخبريني يا هذه، أتصدقين حقًا أن هذا الرضيع في مهده هو شيطان؟

فزادت الجارية من ميل جسدها، وقالت:

- لا أدري يا سيدي، لكن هكذا قال الكهنة والحكماء، فلا بد أنهم على صواب.

فنظر إليها عالية وكأنه سئم حديثها فدفعها بعيدًا عنه لتسقط أمامه على الأرض في بهو القاعة، وقام مغادرًا. فلما رأته الجارية قائما عدلت جسدها، واعتدلت في انحنائها له بينما يغادر في غضب.

في الغابة كانت غيم لا تزال تترقب عودة الفرسان للمدينة في ظلام الليل، يجرّون من وراء خيولهم جثةَ ذئبٍ ضخم، ويحملون أواني يتقطر منها الدماء، فتأكدت ظنونها، وعرفت أن رحلتها مع الصغير لم تنتهِ بعدُ، فقامت تقطع الطريق إلى منتصف الغابة تقريبا؛ حيث كوخ عثرت عليه مرة وهي تجمع الأعشاب، فوضعت أغراضها، وتناولت القليل من الطعام الذي جلبته أثناء فرارها وهي تتأفف توسلا لبعض الطاقة من الطعام لا أكثر، وعندما انتهت عادت تشق ضوء الفجر إلى حيث الطريق المؤدية لمديم أرغون لتقضي ليلتها فيه مع قوس وجعبة سهام؛ تحسبًا لهجوم الذئاب. لتنظر أين يُلقون الطفل في الغابة فتأخذه بعد رحيلهم.

جاء الصباح على الجميع كأنه لم تشرق له شمس، كان أهل المدينة مجتمعين، وكان على وجوهم السخط وإنزال الشرور، وخرج الملك في جمع

من جنوده وهو يرتدي وشاحا من فرو الذئاب، وانطلق بموكبه إلى ساحة معابد مديم أرغون؛ حيث تقام المراسم.

خرج الكاهن مالي محمولًا على كتف ثمانية من الكهنة في موكبه، وخرج الكاهن زاكوم يحمل الرضيع وهو يصرخ عاريًا، ليضعه في منتصف حلقة دائرية، وبدأ الكهنة بقرع الطبول وإشعال النيران في المشاعل، وألقى زاكوم أناشيده وهو يصب دماء الذئب فوق جسد الرضيع، ومن ثم قام بصب الدماء حوله بشكل دائري، وأتوا بجثمان الذئب الضخم وأحرقوه والناس يهللون، وعالية يراقب في صمت تام ولا يبدو عليه شيء من الحراك، فقط يتابع الأحداث بصمت.

راح الكهنة يتغنون بأشعارهم غير المفهومة ويتمايلون بأجسادهم راقصين حول الرضيع الذي كان يصرخ بشدة إلى أن أنهوا طقوس الطرد حتى يطردوا الأرواح الشريرة المحيطة بالشيطان الرضيع طبقا لمعتقداتهم، ثم جاء وقت إلقائه في الغابة، فأمر سيزوس جنوده بحمل الرضيع إلى الغابة ليلقوه فيها، وأمر عالية موكبه بالحراك عائدين فانصرف هو وسيزوس عن المعبد وساحته عائدين إلى القصر، ليجدوا الاحتفالات قد أقيمت للاحتفال بطرد الشر من المدينة، الكل يحتفل إلا عالية، وكان سيزوس يراقب حاله عن كثب:

– سيدي عالية، لماذا لَمْ تقتل الطفل؟ لماذا أقمت مراسم الطرد بدلا من الحرق؟!

نظر إليه عالية في ثبات، وقال:

– لم أكن لأقدر على حرق رضيع حتى لو كان شيطانًا، المهم أننا أبعدنا شر الساحرة والرضيع عن المدينة.

قال عالية كلماته وانصرف من أمام سيزوس غاضبًا، كأنه يفصح له عن ضيقه بما حدث.

في الغابة كانت "غيم" تراقب الوضع عن كثب، وانتظرت في طريق المدينة إلى أن أتتها البشرى بأصوات أقدام الخيول التي تضرب الأرض وهي مصطحبة بأصوات رضيع يصرخ، فمكثت في مكانها بهدوء إلى أن مَرّ الفرسان من أمامها، وبعدما مضوا راحت تتبع آثار أقدام الخيول إلى حيث المكان الذي ألقوا فيه أودين، وحالفهما الحظ؛ إذ كانت أول مَن عثر عليه في الغابة قبل أن يلمحه أو يشمّ رائحته أحدُ الضواري.

بمجرد أن لمحها بعينيه هدأ الرضيع وكف صراخه، لكن هي ما كفت دموعها على حاله وحالها وهما الآن شريدان في غابة لا أمل في النجاة منها. فحملته واتجهت صوب نهر صغير كان يضرب في منتصف الغابة؛ لتغسل جسده بالماء البارد من أثر الدماء، وتلطف جلده من الحرارة، ثم مزقت ثوبها من الأسفل وغطّت جسده به، وأخذته مسرعة إلى الكوخ الهالك في منتصف الغابة ليحتميا فيه.

كان على غيم استغلال كل ما أوتيت من معرفة بالعلوم والفنون، ومعرفة بأهل مديم أرغون ومعتقداتهم لحماية نفسها والرضيع منهم فأتتها فكرة تمنع الناس والحيوانات من الاقتراب من الكوخ ولو بالصدفة، وهي أن تبني جيشًا من الشياطين الوهميين لتخيف بهم الذئاب وترهب السكان، فهبّت إلى أغصان الأشجار تجمع ما استطاعت منها لتصنع منها صُلْبانًا وتضع عليها الطين والأغصان والأوراق مستغلةً كلَّ علمها عن فنون النحت لتصنع تماثيل على هيئة أشخاص لهم قرون وذيول، واستمرت في فعل ذلك على

مدار الأيام والأسابيع والشهور إلى أن أصبح الكوخ محاطًا بمئات الأغصان المصلَّبة والمغطاة بالطين على هيئة تماثيل الشياطين.

كان يصعب على العقل أن يصدق أن امرأة واحدة صنعت كل تلك التماثيل من العِصيّ والطين، لكن مع رضيع يحتاج للحماية والغذاء، كان على غيم أن تمتلك مَن القوة ما لا يمتلكه إنسان. أصبح الكوخ محاطا بالأشجار ومئات الحراس من الطين، وعكفت غيم فيه على توفير الطعام والشراب لها ولأودين من الصيد والنبت في الغابة؛ فبرعت في صيد الغزلان، واقتاتت من الخضر على محاصيل الفلاحين التي كانت تفصل بين الغابة وسور مديم أرغون، فكانت تذهب للحقول في الليل تأتي بالطعام وتعود إلى أودين.

وتُمضي الوقتَ بين رعايته وتدوين علومها مستغلةً ما جلبته من قراطيس وأحبار، ولكن ما ساعها أن تدون كل ما أوتيت من العلوم فإن القراطيس والأحبار ما كانت لتكفي، فكانت تكتب بالعصي على الأرض كي تنشط ذاكرتها ولا تنسى شيئًا.

وفي أحد الأيام جاء أحد الصيادين إلى الغابة فشهد ما فعلته غيم، وظن أنهم حراسٌ من الشياطين؛ إذ كانوا مصممين بشكل هندسي منظم كصفوف الجيوش، فذهب إلى الكاهن زاكوم يخبره أنه رأى جيشًا من الرجال لهم قرون وذيول من الطين يقفون بالمئات في صفوف دائرية في منتصف الغابة، ولا يرى خلالهم شيئا، ولا يحصي عددهم.

وانتشرت الأقاويل في المدينة عن جيش من الشياطين يسكن الغابة، وخافوا هجومهم، فخرج الكاهن زاكوم بفتوى إلى أهل القرية أن أحد السحرة الذين يسكنون الغابة قد حصّن نفسه بجيش من الشياطين،

سيعودن للحياة إذا ما هجم أحد عليهم، وأمر أنه محظور الذهاب إلى الغابة على العالمين، وممنوع الصيد فيما يقرب من منتصفها.

نمت الأخبار إلى مسامع الحاكم عالية فاستدعى وزيره سيزوس:

- تُرى أين يذهب السحرة المطاردون يا سيزوس؟!

- وما علمي أنا يا سيدي، لا بد أنهم يتقابلون مع السحرة أمثالهم، تعلم أن مدين أرغون قد لُعنت بغابة مليئة بالشرور.

- نعم، نعم أنت محق، إنها غابة مليئة بالشرور فعلًا، لقد سمعت بأمر تماثيل الشياطين، أما سمعت بهذا الأمر يا صديقي سيزوس؟!

- بلى يا سيدي، سمعت بهذا الأمر فذهبت إلى الكاهن الكبير مالي لأستفتيه، ولكن لم أتمكن من مقابلته نظرا لسوء حالته الصحية، فقابلت الكاهن زاكوم، هو أخبرني أن تماثيل الشياطين من صنع السحرة.

بدا عالية مهتمًّا لحديث سيزوس:

- نعم استمر، وماذا أضاف زاكوم؟

- سيدي، لقد خرج إلى الناس، وأمر بتحريم الاقتراب من متصف الغابة.

- إذًا لا يقترب أحد من تلك التماثيل؟

- نعم سيدي.

- ولا حتى القائد العظيم سيزوس وجنوده.

- سيدي، لو أنك أمرتني لدككت تلك التماثيل، لكنني أخشى أنها أعمال

سحرة وليس لبشريٍّ طاقة بها فأخشى خسارة جنودي في حرب واهية.

- نعم يا سيزوس أتفهم الأمر، دعنا نتمنى أن تلك التماثيل لا تستيقظ، وتنتقم لما فعلناه بالطفل.

- استميحك عذرا يا سيدي، ولكنها ليست المرة الأولى التي نطرد فيها شيطانًا من مديم أرغون، نحن نثق بأن الآلهة قادرة على حمايتنا ما دمنا نقدم القرابين والعطاءات.

- نعم.. نعم أنت محق، يمكنك الانصراف الآن.

- بأمرك سيدي.

خرج سيزوس، لكن عالية كان قد بدأ يفكر بشكل مختلف، ويتذكر أحاديث غيم عن العقل وازدرائها للمعبد، ولا تنفك صورة أودين تظهر أمامه، ويتمنى لو أنه يعلم ما حدث له في الغابة، ولماذا ظهرت التماثيل من بعده.

مَرّ الوقت وكبر الرضيع ذو العينين الغريبتين، لا رفيق سوى "غيم" وصحف علومها والحيوانات. ولكن في مديم أرغون كان نفوذ المستشار "سيزوس " يزداد يومًا بعد يوم، ومرت السنوات على تلك الحادثة، و"عالية" لا ينفك يحلم كل ليلة بالرضيع يصرخ من الغابة، إلى أن جاء يوم فقرر الذهاب بنفسة إلى حيث التماثيل التي ظهرت بعدما ترك الرضيع في الغابة، فذهب إلى منتصف الغابة غير عابئ بكلام الكهنة عن الجنود الشياطين، وأخذ معه حارسين فقط، كان كلاهما يرتعد خوفًا، ويظنان أن الحاكم قد أصابه الجنون. لم يكن " عالية " بحاجة إلى الحارسين حقا، وإنما أرادهما حتى

إذا أصابه مكروه أن يعودوا بالخبر إلى أهل المدينة فيتولاهم حاكم غيره. وعندما وصلوا إلى المجسمات الموضوعة أمام كوخ غيم بدأ عالية يتحرك بحصانه وسط المجسمات في غير حراك منها وفي غير مساس منه لها، وتبع الحارسان خطواته بحذر.

بحذر شديد كان يمضي كأنه يعبر متاهةً ما، فكلما عبر صفًا من التماثيل وجد الفارق الذي يعبر خلاله قد تغير مكانه بشكل هندسي منظم إلى أن وصل الكوخ؛ فإذا بفتى دون الثالثة من العمر، يصنع بيديه الصغيرتين مجسمات من الطين، وعندما رفع عينيه في عمه أظهر أمارته؛ فارتعب الحارسان وبدآ يطالبان عالية بالرحيل:

– سيدي، علينا الذهاب الآن قبل أن يوقظ الشيطان جيشه، فإنا حينها هالكون لا محالة.

تجاهل عالية كلام الحارس، ونزل من على حصانه، واقترب من الفتى الذي كان يرى وجها بشريًّا غير " غيم " للمرة الأولى منذ مهده، فانتابه الفضول وراح يمد يديه الصغيرتين الملطختين بالطين إلى وجه عمه يتحسس جلده. ولكن من الكوخ رأت " غيم " ما يحدث في الخارج فأصابها الذعر، وأحضرت قوسها وسهامها وخرجت تهدد الملك، فهبَّ الحارسان بسيفيهما صوبها، ولكن ما حدث كان مفاجأة؛ إذ استلّ الحاكم رمحه وغرسه في قلبَيْ حارسيه واحدا تلو الآخر؛ فارتعب الفتى من مظهر الدماء وركض إلى داخل الكوخ، وبقيت "غيم" وعالية، وكانت لا تزال ترفع سهمها في وجهه رغم حمايته لها من الحارسين، لكن ما شهدته من همجيته في الماضي والحاضر جعلها لا تأمن غدره:

- إذًا أنتِ لم تحترقي داخل قصرك حقًا؟

اقتربت غيم أكثر وهي تمسك قوسها وسهمها بإتقان مهددة الملك بعدم الاقتراب، فحاول أن يثبت صدق نيته:

- هوني عليكِ، لست قادما لكِ بالشر.

- ابتعد عن هنا وإلا اخترق السهم قلبك.

اقترب عالية أكثر إلى أن أصبح أمامها مباشرة بفارق بضع إنشات أمام سهمها ينتظر أن تصوب، ولكنها تراجعت، وأنزلت القوس في خوف فنظر "عالية " وهو يستغرب لماذا لم تُطلق:

- تمنيتُ حقا لو أنكِ أطلقت السهم، فكنت حينها أتأكد من أنك ساحرة، ولكن الآن عرفت أنكَ طبيبة، فمن يطيب آلام الناسِ لا يقوى على قتلهم، تمنيت حقا لو أنك كنت ساحرة تحاول حماية شيطان، فأسقط عن كاهلي ذنب ترك ابن أخي رضيعًا في الغابة.

- أنتم مجرد ضعفاء جهلاء بالعلوم وحقائق الأديان، سلّمتم آذانكم وعقولكم للكهنة الذين يقتاتون عليكم وعلى ثرواتكم بحجة تقديم القرابين لقمع شرور الأرواح، والحقيقة أنهم يملؤون بطونهم وخزائنهم.

- كيف تتجرئين على إهانة الكهنة؟ ألا تخشين غضب الآلهة؟!

- لم أرَ الآلهة بفاعلة شيئا لإنقاذ طفل غطيتم جسده بدماء الذئاب، وتركتموه في عراء الغابة.

- لماذا فعلتِ كل ذلك إذًا؟

- لأن أحدهم أوصاني بحياة ابنه في آخر لحظاته قبل الموت.

- أتعنين أخي؟

- نعم، أخوك الملك الراحل، لقد كان يدرك جهلكم وتشاؤمكم، ولا بد أنه عرف أنكم سترُجعون مقتله وموت زوجته إلى الشؤم من المولود، فكانت آخر كلماته وصايةً لي بالحفاظ على حياته.

- أنت كاذبة، ما الذي يجعلني أصدق أنك لم تقدمي العقاقير السامة إلى "حور " في حملها لتقتليها وتلعني مولودها بعينين مخيفتين؟ وما الذي يجعلني أصدق أنك عندما قمت لتداوي أخي من عضة الذئب قتلتِه بدلا عن ذلك؟

حينها أعادت " غيم " رفع سهمها وقوسها في صدره، وقالت:

- ما الذي يمنعني من قتلك الآن وأنت أعزل أمامي؟ بل إني لو تركتك تعود حيًا لعدتَ بالمزيد من أهل المدينة وهدمتَ الوهم الذي أخفتهم به لثلاث سنوات مضت!! ما الذي يمنعني من قتلك وقد أصبحت خطرًا على حياتي أنا والأمير؟ ما الذي يمنعني من قتلك وأنت رجل مجنون يُزهق حياة رجاله بلا هوادة أو سبب منطقي؟!

صمت " عالية " وهو يحاول استيعاب كل تلك الحقائق دفعة واحدة، وراح ينظر حوله ويفكر ما هو بفاعل، لا يمكنه اصطحاب الأمير إلى المدينة، فإنه لو عاد به لحشد سيزوس والكهنة الناس وقتلوهما بعد أن ازداد نفوذ الكهنة وسيزوس.

فرأى أن الحل الأفضل هو أن يصلح الأمور في المدينة أولًا ويعود ليصطحب الفتى إلى القصر.

- لقد ازداد نفوذ سيزوس والكهنة، لقد امتلكوا المدينة.

- أستغربُ كيف لم تَرَ ذلك؟! إن الشيطان الحقيقي هو الذي شقّ بينك وبين وريث عرش أبيك وأخيك الوحيد.

- سيزوس، لقد خانني، لطالما لم أرد تصديق خيانته، لكني دائما كنت أشعر بها.

- لا تلم سيزوس وحده، لولا أنك لم ترغب في تصديقه لما نجحت خطته، في داخلك كنت أنت أيضا ترغب في السلطة.

- لماذا عدتِ للقصر في ذلك اليوم؟ لماذا لم تعودي بأي حجة أصدقها؟ وأخرج بها إلى الناس فأواجه شرورهم وشرور سيزوس؟

- كان ذلك مستحيلا، لقد منحتني فرصة يوم واحد فقط، وقبل نهايته أمرت بحرقي.

ثار عالية، وصرخ في وجهها:

- أنت هربت من المدينة وأثبتِ ذنبك.

- لقد ذهبتُ للغابة لأعود بعشبة أخدعكم بها لتصدقوا أن الطفل سيُشفَى إلى أن أتمكّن من الفرار به.

- إذًا كنتِ تخططين للفرار به في بادئ الأمر؟!

- كنت أحاول حمايته منكم.

بدا عالية لا يزال مكذبا لغيم:

- إن كنتِ حقا ترغبين في حمايته لماذا لم تخبريني الحقيقة؟

ثار غضب غيم حينها وصرخت في وجهه:

- انظر حولك، أنت لا تجيد شيئا سوى غرس رمحك في قلوب البشر.

لقد قتلت حارسيك في أقل من لمح البصر ولم تكترث.

فرد عليها:

- كنت أحاول حمايتك والأمير.

- الآن اعترفت أنه الأمير، إنه أودين أمير قصر مديم أرغون، وسيعود إليه حتما. كان بإمكانك أن تكتفي بأمر رجالك فيكفّوا أسلحتهم عنا بدلًا من غرس الرمح في صدورهم.

- أنتِ لا تدركين الأمر، لو أني عدت بهما إلى المدينة وهما يعرفان سرك لأسرعا إلى سيزوس وأخبراه الحقيقة، وحينها كانت المدينة كلها ستنقلب عليك أنت والأمير، أنت لا تدركين مدى القوة التي أصبح عليها سيزوس؛ إنه يملك كلَّ عيون رجالي وآذانهم.

- لا أصدق ما أسمعه حقًا!! أهذا هو الملك عالية ملك عرش مديم أرغون الذي يثير الرعب في نفوس البشر؟

رد عليها بغيظ مستنكرًا نبرة الشماتة في صوتها:

- نعم، ولكن الآن هذا الملك المهزوم هو كل ما لديك أيتها السيدة الحَصور.

ثم كفّ غضبه بقليل من الصمت وراح يتابع:

- اِعتني بالفتى جيدًا، سأعود لاصطحابكما للمدينة فورما تسمح لي

الفرصة بذلك.

ثم نظر إلى أودين وهو ينظر برعب من خلف باب الكوخ، وعاد ينظر لغيم:

- إياك أن تبثي في نفس ابن أخي الرعب، علِّميه أن الملوك لا ينظرون بخوف من وراء الأبواب، علميه أن يستردّ ما هو ملكه بكل قوته، وإن لم أعد رَبّي الفتى ليستعيد عرشه المسلوب، وينتقم لمديم أرغون من سيزوس والكهنة.

صعد عالية إلى حصانه وهرول عائدا إلى المدينة عائدا إلى قصر مديم أرغون بمفرده، عندما دخل القصر وجد سيزوس ينتظره في البهو الكبير:

- سيدي، أرى أن ثلاثة أحصنة غادرت قصر مديم أرغون وعاد حصان واحد.

- أتحاسبني على مَن دخل وخرج من قصري أيها الوزير؟!

قال عالية كلامه دون أن يتوقف عن السير، وتابع وخلفه سيزوس إلى قاعة الحكم:

- عذرا سيدي عالية، أنا لم أقصد وإنما أردت الاطمئنان أن كل شيء على ما يرام.

جلس عالية على كرسي العرش، وأمسك برمح الحاكم، وراح ينظر ناحية سيزوس بتمعن كأنه يذكر نفسه بموقعه الحقيقي وموقع سيزوس، إنه حاكم مديم أرغون، وليس من الصواب أن يعلو عليه الوزير، كان في داخله يتمنى لو أنه يستل سيفه ويقطع رأس وزيره، لكنه كان يعلم أن الأوان قد فات على

ذلك:

– سيزوس صديقي الوفي.

نظر سيزوس إلى عالية الذي كان يتحدث بملامح جامدة، ولم يعقب:

– هون عليك يا رجل، أنا أمزح معك كنت أجول في المدينة وذهبت إلى الغابة برفقة الحارسين، لكني رأيت أنهما قد مالا لصيد بعض الغزلان فسمحت لهما بذلك، وعدت بمفردي.

علم سيزوس أن عالية يكذب، فليس بينه وبين جنوده من الود شيء:

– لقد أردت الاطمئنان فقط أن الحارسين لم يقصرا في حماية مولاي، لكن يا لكرمك سيدي!!

قام عالية من على كرسيه، ونزل إلى البهو ليتحدث إلى سيزوس بحميمية.

– آه، سيزوس يا صديقي، لقد أهلكني هذا الكرسي وجعلني بعيدًا عن الناس.

– لماذا تظن ذلك يا سيدي؟ الناس يحبونك كثيرًا.

– نعم، وأنا أيضا أحبهم، لذلك أفكر في ألا أجعلهم يقدمون القرابين للمعابد هذا العام، سأتضرع للآلهة علّها تقبل بشيء آخر غير أموال الناس وأرزاقهم تعبيرًا عن حبي لسكان المدينة.

أرى أنهم قد أرهقتهم القرابين وعطايا المعبد، ألا ترى أن عدد العبيد في معابد مديم أرغون أكثر من عدد العبيد في قصري؟

– ماذا تقصد بعدم تقديم القرابين للآلهة؟ ومَن إذًا يحمينا من هجمات

الشياطين؟

– آه يا عزيزي سيزوس، لم أرَ طوال حياتي شيطانا هاجم مدينتنا، حتى الذئاب تمكّنّا من إبعادهم عندما تعلّمنا قتالهم، وأصبحنا نستطيع الصيد في الغابة متى شئنا.

– هذا لأننا نقدم القرابين للآلهة سيدي.

– ألا تقولون إن الآلهة تحمي الحاكم وتحبه، لِنَرَ كم هو مقدار حبها لي، سأصلي لها طيلة أسبوع كامل وأقدم القرابين، وفي المقابل يتوقف المعبد عن أخذ العبيد والأموال من سكان مديم أرغون لهذا العام.

– إلامَ ترمي سيدي عالية؟

ثار غضب عالية ورد باختناق:

– لا شيء، فقط أريد أن أشعر أنني لا زلت أسيطر على الأمور هنا، لِنَرَ ما الذي سيفعله المعبد إذا لم تُقدم القرابين هذا العام؟

ثم التفّ عالية حول سيزوس ووضع يده على كتفه من الخلف، وقال:

– ألا تظن يا صديقي أنه حان الوقت لأستعيد زمام الأمور في هذه المدينة؟

بدا سيزوس كأنه عقد عزمه هو الآخر على خطب جلل:

– بلى سيدي، أنت محق لقد حان الوقت.

كانت تلك آخر كلمة قالها سيزوس قبل أن يستأذن عالية في الانصراف من بهو القصر، وقد كان في نفسه يقصد أنه حان الوقت لغروب شمس

الحاكم ليأتي عهد جديد بقيادته بعد أن تمكن بما يكفي من القوة لفعل ذلك، فذهب إلى "زاكوم" كبير الكهنة وأخبره بما جَرَى:

- لقد جُنَّ حتمًا.

- الأهم من أنه جن لو أنه أقدم على تلك الخطوة فإنه سيستعيد ولاء أهل المدينة، عندها لن نتمكن من اعتراض طريقه، إنه يريد الفتك بمعابد مديم أرغون.

جلس زاكوم وتنهد وقال:

- لقد انتهى عصر تلك الأسرة الحاكمة، لقد طالتها العديد من الفضائح، بعد وليد من نسل الشياطين الآن يأتي الحاكم ويريد محاربة المعبد.

ثم نظر زاكوم إلى سيزوس، وقال:

- من أجل الآلهة ومن أجل المدينة، لقد حان الوقت لإنزال تلك العائلة عن عرش مديم أرغون. نحن نرى أن عقلًا حكيما كعقل القائد سيزوس أصبح الآن أحق بولاية المدينة.

ووافق " زاكوم " على إبعاد عالية من الصورة؛ إذ كان يعرف أنه ليس محل استمرار للمعبد؛ فأتى " سيزوس" بإحدى جواري عالية، وأمرها بدس السم له في الشراب كي لا ينقضي اليوم إلا وقد بلغ " سيزوس" عرش المدينة. وأخلصت الجارية لسيدها " سيزوس " ودست السم لعالية فخَرّ قتيلا في فراشة ليلًا.

في الصباح خرج سيزوس لأهل المدينة ينتحب رحيل ملكه أمام الناس، وأَعْزَى موته إلى أن الشياطين أرسلوا إليه أرواحًا شريرة قتلته في فراشه؛

انتقامًا لما فعله برضيعهم قبل ثلاث سنوات، وصاح في الناس يتغنى بحكمة الراحل وقراره السديد، ثم خرج "زاكوم" من بعد سيزوس يوصي بأن آخر كلمات الحاكم كانت تسليم الحكم إلى مستشاره الأمين " سيزوس"، وغربت شمس عالية، وغطَّى المدينة ظلام "سيزوس".

أما في الغابة بقيت "غيم" تنظر للطريق المؤدي للقصر تنتظر عودة صاحب الوعد تحسس صوت الخطوات من دون صوت لخطوات آتية، وتنظر للفتى الذي تعرف في داخلها أنه لن يصمد طويلا في ظلام هذه الغابة.

مر أسبوع والثاني والثالث والرابع ولم يكن للمنتظر بطريق للعودة، ولم تكن لتطيق عبودية الانتظار؛ فتسللت إلى المدينة في يوم سوقهم لتتحسّس أخبار الملك أو علَّها تتمكن من الوصول إليه، ودخلت متخفية في زي امرأة عجوز تغطي وجهها، تحسس الأقاويل بين الناس، ولكن داهمها الرد فور وصولها؛ إذ عندما دخلت نادَى مُنادٍ بأن على الناس التفرق عن الطريق؛ لأن الحاكم سيمرّ بعربته هو وجنوده، فخفض الجميع رؤوسهم وتفرقوا عن الطريق، وراحوا ينظرون إلى الأسفل، ولكن أثناء مرور العربة رفعت غيم عينيها لتسترق النظر، وكان ما فجعها وأصابها بالذعر؛ إذ إنه لم يكن "عالية " هو من يعتلي عربة الحاكم، بل إنه "سيزوس"، فكاد الرعب يقتلها من شدة خوفها أن يكون عالية قد أخبره عن حقيقتها هي والفتى، ولكن بعد مرور العربة سمعت بين التجار في السوق ما طمأنها:

- أسبوع واحد بعد توليه العرش، وارتفعت الضرائب إلى الضعف.
- لا أحد يدري بعد عام ماذا سيفعل بنا؟
- أتساءل: إن كان "عالية" قبل موته قد أوصى به للحكم حقا.

- لا أعرف كيف يحدث ذلك؟ جميعنا كنا على علم بكراهية "عالية" لـ سيزوس في الآونة الأخيرة بعد أن ازداد نفوذه في القصر، لكن كبير الكهنة بنفسه قال: إن "عالية" فعل ذلك.

- لو كان قد فعل ذلك حقا، فقد رحل هو ليتركنا في هذا الويل.

فعرفت أنه قد مَرّ أسبوع على تولي سيزوس العرش؛ فاطمأن قلبها؛ لأنها كانت متأكدة أنه لو علم بحقيقتها هي والفتى لما مر يوم على بقائهما أحياء.

عادت إلى الغابة مسرعة تنهل الطريق إلى الكوخ لتنظر في عين "أودين" وتعرف أنه الآن ليس عليهما انتظار سبيل للنجاة، وأنه سيكون عليها النجاة بالشبل بمفردهما في الغابة إلى أن يشتد عوده ويستعيد عرين أبيه وعمه ويقطم رأس المعبد وأفكار الجهل في المدينة، ولتوفي بالوعد إلى أبيه بالحفاظ على حياته.

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ١٠:١٦ ص

لا زلت أدير ظهري لأودين، وأفكر أنه آخر ما أود رؤيته في هذا الوقت العصيب، يمر الوقت وأشعر بقواي تخور، ولكني أتشبث باللوح أكثر وأكثر، فقد كان مصدر نجاتي الوحيد.

- لقد مرت ثلاث ساعات منذ أن غرق المركب، ألا تفكرين في ترك اللوح الآن.

- تبًّا لك.

- توقفي عن السباب.

التفت إليه بعنف، لأجده ينظر من خلف قناعه النحاسي الأسود ذي القرون ببرود شديد وأنا أصارع الموت في الماء بمفردي:

- لم يكن ينقصني حقا سوى مسخ مثلك في هذا الوقت.

نظر حوله في كل الاتجاهات بهدوء غريب ثم عاد يقتلني بحديثه الفاتر:

- لا أرى أنك تملكين شيئا آخر في هذا المحيط الشاسع، قد يكون المسخ هو كل ما تملكينه في هذه اللحظة.

- أنت مريض حتما!

- أنا أسدي إليك نصيحة، دعي اللوح.

- أنت تنصحني أن أستسلم للموت؟!

- نعم.

- لا أستغرب الأمر؛ أي نصيحة قد تأتي من شيطان؟!

- وأي مجنونة قد تُفتن بشيطان؟!

- تُفتن؟! تبًّا لك، أنا أشفق عليك.

صمت أودين وأرخى جسده كله إلى الماء، ووضع كلتا ذراعيه أسفل رأسه، وأحال ناظره صوب السماء كأنه يستلقي ليستمتع بشمس الظهيرة.

- أعتقد أنه حَرِيّ بك أن تشفقي على نفسك أولًا.

أثار إلحاحه في الطلب مني أن أترك اللوح فضولي في معرفة السبب:

- لماذا تريدني أن أترك اللوح إذًا إن كنت تريدني أن أشفق على نفسي؟

- ظننت أن تلك كانت إرادتك، لقد تخليتِ عن كل شيء هذا الصباح أتذكرين؟ أنت قررت أن تتركي كل شيء في مهب الريح وهربت، هذا ما فعلتِه، أنت تركتِ القارب يشتعل في بادئ الأمر.

نال مني، كما نالت مني من قبله كلُّ الحياة:

- أعتقد أني حاولت بما يكفي، لقد حاولت كل شيء، لم يكن بد من الاستسلام.

انتبهت فجأة لصفعة قوية من حيث لا مكان، اصطدمت بوجهي، وإذا به قد اعتدل وجلس ولا زال ينظر إليَّ في الهدوء ذاته:

- هل آلمتُكِ؟

- تبًّا لك.. كيف تجرؤ؟!

كدت أترك اللوح وأنا أحاول الوصول إلى وجهه فأرد له الصفعة، ولكن سرعان ما عدت أتشبث به، وقلبي مأجوج بالغضب، بينما كان الهدوء لا يفارقه، وزاد الأمر سوءًا عندما عاد ليسترخي، وينظر للسماء:

- بمجرد أن تصفعك الحياة تفكرين في الرد السريع، وليس من رد يصيب، ألم تهلك تلك المضغة الضعيفة في صدرك من طيش عقلك، ألم تشفقي عليها يوما فتفكرين قبل اتخاذ القرار.

- لقد صفعتني على وجهي!!

عاد يرد بهدوء:

- تستحقين ذلك، لم يكن من داعٍ لردّ الصفعة، لنعتبرها هدية بسيطة.

...

عزيزي أودين،

كانت كل الطرق تؤدي إليك يا صديقي، ربما كنت سيئا جدا لكنك كنت أفضل صديق، كنت الساحر الأكثر طيبة ممن ادَّعوا الملائكية. كنت واضحًا ويظهر كل شيء من داخلك كأني وحدي أراك، فعرفتك حتى أكثر مما عرفتَ أنت نفسك.

كان ذلك الضوء قبل أن ينطفئ نقيًّا براقًا وجميلًا، وإلى أي مكان ذهبت أعرف أنك تشع ضوءًا هناك، لكنني بلا ضوء في غيابك يا صديقي، لقد خفتت أضواء العالم في قلبي.

- أودين.

- ماذا الآن؟

- هل ستظل صامتا هكذا؟

- ماذا تريدينني أن أفعل؟

- تحدث!

- ماذا أقول.

- أخبرني هل كنت تقرأ الرسائل؟

- أي رسائل؟

- رسائل "ماكو" إليك.

أدار ظهره إليَّ واعتدل في نومته على جانبه الآخر كأنه يرفض ما حدثته فيه.

- اهتمي بشؤونك، لقد قارب وقت الظهيرة، والشمس تحرق رأسك، وجسدك كاد يبلى في مياه البحر المالحة.

نظرت حولي فإذا هو محق، كانت الحرارة شديدة جدًا، إلى حد أني شعرت برأسي يذهب ويجيء مع حركات الموج الخفيفة، وتجرفني المياه إلى أعماق لا أعرف للعودة منها سبيلًا.

- ربما كنت محقًّا، ربما عليَّ ترك اللوح الآن.

اعتدل في جلسته أمامي، وراح ينظر إليَّ من خلف قناعه، واقترب مني.

- هل تريدين حقا ترك اللوح في أعماقك؟

- لا أدري، جميعنا يستسلم في لحظة ما.

ثم تلقيت مفاجأة أخرى، تلك الصفعة لم تكن لطيفة أبدًا، وكالعادة لم أعرف متى قرر صفعي، هو فقط داهمني بيده على وجهي.

- هل أنت أحمق؟ ما الذي تريده؟ لماذا تستمر بصفعي على الوجه؟

- لأنك تتأخرين في اتخاذ القرار.

- تبًّا لك!! هذا لا يعني أن تصفعني على وجهي؟

عاد يعتدل في جلوسه وقال:

- هذه كي تتعلمي أنه مهما ارتفع صوتك وتابعتِ الصراخ، هذا لن يغير في واقع الأحداث شيئا، عليكِ أن تكوني ندًا لكل حدث على قدر قدره، لا أظن أنه حان وقت الاستسلام بعد.

- أيها الأحمق، ألستَ من تريدني أن أترك اللوح؟ ثم كيف تقول إني لا أقدّر الأمور؟ ألا يُعد تحملي لك للآن تقديرا للأمر على قدر قدره؟!

اقترب مني مرة أخرى بقناعه الأسود ذي القرون وهمس في أذني:

- أنا هنا؛ لأنك تريدين ذلك.

ثار غضبي عليه، ورحت أصرخ في وجهه:

- أتظن حقا أني قد أرغب بساحر مثلك ليبقى جانبي هنا الآن؟

اعتدل في جلسته، وخفض رأسه في سوء من حديثي، وشعرت بالأسف لما قُلتُه:

- ربما كنت ساحر القصة، لكني أكثر مَن نزف، لماذا لم تسألي أمك عن سبب لعنها لي بعينين مختلفتين في اللون؟ لِمَ لَمْ تسأليها: لماذا فقدت أبويَّ في المهد؟ لماذا قذفت بماكو في طريقي؟ لماذاَ سبّبت لي كل هذا الألم؟ ولماذا جعلتني ساحر القصة؟

- لقد تخليت عنهم، تخليت عن الجميع، كان بإمكانك أن تعود، كان بإمكانك أن تنقذ الجميع، لكنك تركت النيران تلتهم كل شيء.

- إن كرسي عرشهم كان مفعما برائحة العبودية، ولم أغرم بشيء في حياتي سوى الحرية.

- وما ذنب " ماكو" والآخرين؟

- ذنبهم أن هذا كان مصيرهم، هكذا أرادت أمك... هي مَن كتب القصة على كل حال.

- اِخرس!! أعرف أمي، لو أنها أحست فيك أملًا لما كان ذلك ليكون مصيرهم، أنت تبرر لنفسك سوء عملك لا أكثر.

- لم أشأ ترك "ماكو" تعاني.

- لكنك فعلت...!

- نعم فعلت ولكني لم أشأ فعل ذلك.

أصابه صمت، ممزوج بالألم:

- أريد أن أراك، أريد أن أرى ما رأته "ماكو" فيك، أريد أن أراك من الداخل، أريد أن أرى أودين الذي تحدثت عنه في رسائلها.

- لم يكن هناك ذلك الأودين، لقد كانت تتوهم.

- لكني أشعر أنه هناك.

- كيف تعرفين؟

- لم تخطئ أمي يوم تقدير الأمور حق قدرها.

- ربما أخطأت هذه المرة.

- كلا.

- توقفي، أنت تحفلين بها كثيرًا، هي جعلت مني هكذا، هي عزلتني

عن العالمين، وتركتني أعيش في الغابة لأتلقى العلوم على يد إحداهن، هي حرمتني أمي وأبي في يوم مولدي، هي جعلتني الساحر الكبير في القصة، هي جعلتني بائسا ولعنتني بكل الشرور.

- ربما كنت كذلك يا صديقي، لكنك كنت أقلهم سوءًا، وكنت أكثر من نزف، كسحر منقلب على ساحره.

***

... عكفت "غيم" في حياة أودين تعلمه كلّ ما عرفته من علوم، وتزرع فيه كل رعب للبعد عن المدينة لكي تحميه من أهلها إلى أن بلغ ثماني سنوات.. لكن في أحد الأيام ابتعدت عن الكوخ لتجلب الطعام؛ ربما صيد الأرانب البرية، أو إذا ظفرت بغزال تكون قد حققت الصيد الثمين.

خرجت إلى الغابة تغطي جسدها بأوراق الشجر والأغصان من بعد الحرير والذهب حينما كانت طبيبة البلدة الأولى، تترقب بشدة خروج أحد الأرانب البرية من جُحره لتطلق سهمها عليه، وتظفر بقوت اليوم لها ولأودين، ولكن بينما تنتظر شَرَدَ بالُها في تلك الأيام التي كانت فيها سيدة في مديم أرغون، يأتيها الطعام والشراب أصنافًا، ويحفل بمجالسها العلماء والأطباء والشعراء، ويطوف حولها الخدم من كل حدب وصوب.

و بينما هي في شرودها خرج الأرنب من جحره وانطلق مسرعا إلى حد أن سهمها لم يصبه؛ فقامت تركض خلفه إذ كانت آخر رغبتها خسارة صيد اليوم الثمين، وأثناء ركضها علقت قدمها اليسرى في بركة من الوحل، وسقطت على وجهها في الطين وتأذّى كاحلُها كثيرا فصرخت، ولكن من دون أحد ليساعدها في الأرجاء؛ فقامت إلى نهر قريب تلملم جسدها المغطى

بورق وأغصان الأشجار والطين، لتنظف نفسها فظهرت صورتها البشعة على سطح الماء، وتذكرت تلك الأيام الخوالي حينما كانت الخادمة توقظها في الصباح لتحضر لها حماما دافئا تَهنأ به، ثم تجد الفطور على أريكتها المريحة، والآن هي مجرد كهلة تبدو كعجوز في الستين؛ فبكت بكاء حارًّا، واختلطت دموعها بماء النهر ولا أحد يهتم.

عندما انتهت من غسل جسدها بمياه النهر التي ولّت بالطين وأوراق الشجر عنها عادت إلى الكوخ دون صيد تفكر في أي نوع من الأعشاب ستتناوله هي وأودين في ذلك اليوم، ولكن عندما بلغت الكوخ حصل ما لم يكن في حسبانها:

- أودين... أودين!

ظلت تنادي، ولكن من دون إجابه أو رد؛ إذ كان ابن الثامنة قد غادر الكوخ في عصيان للأوامر التي اعتاد أن يتلقاها منها، خرجت تركض كالمجنونة بين التماثيل تنظر حولها عَلَّه يلهو بينها كما اعتاد لكن من دون فائدة، كادت تفقد عقلها؛ إذ إنها تعلم أنه لا خير سيلقاه لو غادر حدود التماثيل، فإن كانت التماثيل تخيف الناس والحيوانات في حدودها، فإن سكونها كتماثيل لا يخيف الأحياء خارج حدودها، وبينما هي في ذعرها تبحث بين التماثيل، سمعت صوته ينادي من جانب الكوخ.

- أمي...

فعادت مسرعة إلى الكوخ لتجده يبحث عنها ممسكًا في يده أرنبا بريا كبير الحجم، وقد أصابه بطعنة في ظهره.

- رأيت قوسك والسهام فعلمت أنك عدت من الصيد، اُنظري ماذا وجدت أنا أيضا، لقد نصبتُ له فخًّا بالحبال ووضعتُ فيه بعض الخضر فعلق فيه فطعنته بقوة.

اقتربت "غيم" منه ورفعت يدها ثم قامت بصفعه صفعة قوية على وجهه دون أن تعلّق على ما يراه هو عملا بطوليا، ثم دخلت الكوخ وأحضرت أداة للحفر وخرجت مرة أخرى:

- أَحضِر هذا الشيء واتبعني.

- حاضر أمي.

ثم أخذته إلى مكان بين التماثيل والتفتت إليه ومن ثم ألقت آلة الحفر أمامه على الأرض، وقالت:

- أريدك أن تبدأ بالحفر الآن.

- لكن لماذا؟

حينها مدت يدها إلى وجهه وصفعته صفعة أخرى:

- عندما أطلبك منك شيئا لا تناقشني فيه، اِبدأ بالحفر.

فحمل آلة الحفر، وبدأ العمل وهو يغالب الدموع في عينيه، وبركان الغضب في قلبه، واستمر في الحفر و"غيم" تنظر إليه وقلبها ينزف لأجله، وهو صغير بالنسبة إليها مكانه في القصر حوله الخدم والحاشية؛ حيث يتنافس عليه السادة ليدللوه، والعلماء ليدرّسوا له العلوم، والآن عليه أن يقوم بأعمال العبيد من أجل العيش...

***

٢٣-٩-٢٠١٨ / ١:٠٠ م

- كم كان ذلك قاسيا؟!

- ماذا تعنين؟

- أن تعاقبك غيم بدلا من مكافأتك على صيد الأرنب في ذلك اليوم.

- لقد فعلتِ الصوابَ، أدين لغيم بحياتي، لقد ضحّت بعمرها لأجل عهد قطعته لأحدهم رغم عدم معرفتها به حتى.

- أودين.

- ماذا، أكمل سرد قصتك.

- لماذا؟ ألم تكمليها في تلك الليلة؟

- بلى لكني أريد سماعها منك، كانت أمي تقول دائما: إن رواية القصة تختلف تماما عن خوض التجربة، فإن الراوي لا يشعر بالقصة كما يفعل من عاشها حقًا، إلا إذا كانت قصةً عنه.

- ...

- أخبرتك أريد أن أراك، فتحدث أرجوك.

- ما الذي يدفعني لفعل ذلك؟

- لا لشيء، ربما لأجل أن يمر الوقت لا أكثر.

- حسنا.

***

أذكر ذلك اليوم جيدا ظللتُ أحفر في الأرض إلى أن بلغ عمق ما حفرت طول جسدي، وكانت "غيم" تراقبني بمظهر جامد، لا يشوبه ضعف، لكنني كنت أرى خلالها، كنت أرى كم أنها تتمزق من الداخل حسرة على كلينا!! في الحقيقة كنت أرى ذلك في كل يوم.

- توقف، اُخرج الآن.

خرجت من الحفرة والطين يغطي جسدي، فصفعتني على وجهي عن دون دراية مني، وكنت قد اعتدت طريقتها في فعل ذلك، هي فقط تنهال عليَّ بالصفع كلما أرادت تعليمي عدم العودة إلى خطأٍ ما.

- اِسحب الأرنب وضعه في الحفرة وقم بدفنه فيها.

- ماذا؟!

عادت لتصفعني على وجهي بقوة مرة أخرى، فأخذت الأرنب وأنا أتحسر على كل ذلك المجهود والوقت الذي أفنيته لأجل الإمساك به، وقمت بوضعه في الحفرة، وبدأت بملئها بالتراب، لم أكن أخشى صفعات "غيم" لكني كنت أخشى كثيرا غضبها مني أو عليَّ، في ذلك اليوم كنت ألقي التراب على الأرنب وأنا أتضوّر جوعا؛ إذ كان قد مر أسبوعان على آخر صيد لنا، ولم تكن أعشاب الغابة وفاكهتها لتكون كافية لتزويدنا بالطاقة اللازمة، ورغم ذلك فعلتُ ما طلبته "غيم" ووضعت التراب على الأرنب، نظرتُ إلى يديَّ حينما انتهينا فإذا بهما تنزفان الدماء، ولم تكن لي قوة حتى بحمل المعول الذي استخدمته في الحفر، فأخذته "غيم" ومشت أمامي عائدة إلى الكوخ ولحقت

أنا بها أتبعها من الخلف.

عندما وصلنا الكوخ كنتُ مرهقًا تمامًا وبالكاد أستطيع الوقوف على قدمي، وكانت "غيم" تنظر إليَّ وتلاحظ ذلك.

- اِذهب إلى فراشك الآن لا أريد رؤيتك واقفا على قدميك.

فذهبت إلى النوم، وغرقت فيه من شدة التعب والإرهاق، ولكنها لم تغفُ؛ إذ بمجرد خلودي للنوم أخذت المعول وعادت إلى الحفرة، وظلت تحفر إلى أن أخرجت الأرنب من مرقده، وقامت بتنظيفه وطهوه، صحيح أني لم أتذوق طهي أحد آخر غيرها، لكني كنت لأراهن على كونها الطاهية الأكثر مهارة على هذه الأرض.

في فراشي وأنا في نومي شعرت بقطعة من القماش الدافئ تمسح على يدي، وعرفت أنها "غيم" تطيّب جراح يدي، اعتدت منها كلما تأذيت وجرحت نفسي أن تقوم بتسخين المياه، ومزجها ببعض الأعشاب الطبية التي لا تنفك تجمعها من الغابة لتضمّد جراحي فاطمأن قلبي، كنت مطمئنًا دائما برفقتها على كل حال. إن كون "غيم" في مكان قريب مني كان يبعث في قلبي الاطمئنان رغم وحشة عالمنا سويًا.

عندما استيقظت في ذلك اليوم، كانت كلتا يدي مغطاة بالقماش والأعشاب الطبية، ووجهي مبللا بالماء والأعشاب، وبجوار فراشي جمر مشتعل للتدفئة، وتفوح من الكوخ رائحة الطعام الطيبة.

- استيقظت أخيرًا، هيا تعال أعددت الطعام.

كنتُ جائعا جدًّا إلى حد أني نزلت عن الفراش وجلست بقربها بهدوء

لأتناول الطعام، ولأن كلتا يدي كانتا مصابتين كانت تطعمني هي بيدها. وأذكر جيدًا حينها طعم كبد ذاك الأرنب، وقد كان أول ما وضعته في فمي، كان لذيذًا جدًا إلى حد أني شعرت حينها أني أتناوله للمرة الأولى، لكن ربما كان ذلك من شدة جوعي، ثم بدأتْ تطعمني لحم الأرنب شيئا فشيئا حتى هنئت بالشبع، فقامت وغسلت فمي بالماء الفاتر.

– شكرا لقد كان لذيذًا جدًا.

– نعم، خرجت للصيد بعدما خلدت أنت للنوم، واصطدت هذا الأرنب وطهوته.

نظرت إليها بعين تستنكر قولها فقد كنت أعلم أنها تعلم أني أعلم أنها تكذب.

– ماذا؟!

– لماذا جعلتِني أدفنه إذًا؟ إذًا كنتِ ستطهينه على كل حال؟!

– اسمع، لولا سوء حالتنا لما أخرجت ذلك الشيء ولما طهوته.

– كان يكفي أن تؤنِّبيني بالحديث ولا تجعليني أتكبد كل ذلك العناء في الحفر.

– كان يجب أن تعاقَب؛ لأنك عصيت أوامري.

– أي أوامر؟ تعلمين أن أوامرك تلك لا يمكن أن أطيعها للأبد، هيا أنا لن أبقى أسير ذلك الكوخ لآخر عمري، أنت تظنين أنك تحمينا ممن هم خارج حدود هذه التماثيل، ولكن الحقيقة هي أنك تصنعين لنا سجنًا لا أكثر.

- أنت لا تعلم ما الذي ينتظرك خارج تلك التماثيل.

بدأتُ حينها بالصراخ:

- تبًّا لذلك الشيء كيف ما كان أو من كان، تعلمين أني لن أبقى هنا لآخر عمري، انُظري ماذا فعلتِ، أنت صممت هندسة تلك التماثيل لتمنع الرؤية خارج الكوخ، لا أحد يراه من الخارج ومَن في الداخل لا يرى خارجه، أمي اُنظري حولك، أنا أحتاج لتسلق أعلى شجرة بالقرب منا فقط لأرى خارج حدود تماثيلك المرعبة تلك.

- تماثيلي المرعبة تلك هي التي أبقتنا أحياء إلى هذه اللحظة.

- عن أي حياة تتحدثين؟ نحن نمارس الموت في كل يوم لا أكثر.

ثم قمت من أمامها واندفعت إلى خارج الكوخ، وجلست على تلك الصخرة القريبة منها، وكنت أتوقع أني سأسمع بكاءها كما اعتدت كلما تشاجرنا بشأن الخروج من الكوخ. لكن هذه المرة هي لم تفعل، فقط تبعتني ببطء، وقالت:

- أنت محق تماما يا عزيزي، ما رأيك أن نذهب إلى النهر؟

- الآن؟!

- نعم، أظن أن كلانا بحاجة إلى بعض الهواء النقي بعيدًا عن هذا الكوخ.

الخروج إلى النهر كان بمثابة الجائزة الأعظم لي على مدار ثماني سنوات مضت، كلما أرادت غيم أن تكافئني بشيء كانت تأخذني إلى النهر. لكن كان عليّ اتباع طقوس الأمان كما علمتني "غيم"، كنت أرتدي قماش الجوخ البني

يغطيني من رأسي حتى قدمي وكذلك تفعل هي، رغم ثقتي بأن أحدًا لن يرانا من الخارج، لكن غيم كانت ترفض أقل الفرص للخطأ.

ذهبنا إلى النهر، وصعدنا إلى حافة صخرة قريبة من النهر أسفل شجرة نخيل ضخمة اسمُها مديم أرغون، اعتدنا أن نجلس إليها كلما أتينا إلى هنا. وقد اعتادت غيم كلما خرجنا جلب قوسها وسهامها معها؛ تحسُّبا للخطر من أي نوع من بشر كان أو من حيوان.

كانت غيم كلما أتينا إلى تلك الشجرة حفرت عليها علامات الفصول التي تمر علينا منذ غادرنا المدينة، وكانت بالنسبة إليَّ تلك العلامات هي عمري الحقيقي؛ فقد غادرت المدينة وأنا ابن سبعة الأيام، فقامت تضيف للعلامات شهرًا آخر مَرّ علينا.

- فصل آخر، أتصدق ذلك؟

- ثماني سنوات.

- نعم أنت بارع بالحساب أودين.

- حسنا لقد أحسنتِ تعليمي أمي.

- نعم، إن مديم أرغون هي مدينة جميلة جدًا، ينبت في أرضها كل ما ألقي فيها من حبوب، وتزهر بكل ما عرفه الإنسان إلى الآن من زهور، أو على الأقل كل ما عرفته أنا.

- أهي حقا بهذا الجمال؟

- بلى وأجمل، في الماضي كانت الزهور من كل الألوان تزين حديقتي

وتعطيها رونقا وجمالا مختلفا، كنت أحب طيور الطاووس الأبيض كثيرًا، وأقتنيها، وأعتني بها بنفسي، كما كنت أعتني بالأزهار... لكن مديم أرغون لُعنت بمعبد جشع، استعبد أهلها وسلبهم أموالهم وأرواحهم.

لم أدرِ طوال حياتي بإله أعبده، وأقدم له القرابين، لكني كنت أعلم جيدًا أنه ما من إله يقود إلى رعيته الإثم والشرور، ولم أرَ في كهنة مديم أرغون سوى الشرور، تظهر في كل شيء منهم؛ بداية من الوشوم السوداء على وجوههم إلى كل ما تطاله أيديهم، لقد رأوا أنّ كل عِلم أو منطق يجادل أفكارهم هو كفر وسحر يُحرق صاحبه.

عندما عدت للقصر في ذلك اليوم فوجدت أن طيور الطاووس خاصتي قد قُتلت وجرت دماؤها على الأزهار المحطمة، حينها فقط عرفت إلى أي مدى هؤلاء قوم أصابهم العمى.

- هل قاموا بتحطيم حديقة منزلك؟

نظرتْ إليَّ في أسًى وتابعت:

- لقد حطموا كلَّ شيء قابلهم، واتّهموني بالسحر والشعوذة، وقتلوا خادمتي، وحطموا قصري، فقمت وحرقت كل شيء بيدي قبل أن أتمكن من الفرار منهم ليظنوا أني احترقت داخل القصر.

- ما كل هذه القسوة؟

- هذه لا شيء من القسوة الحقيقية لمديم أرغون، أريدك أن تقدر ما أنت قادم على محاربته حقّ قَدْره. لقد أحسنتُ حمايتك في الماضي، لكن لم أعد واثقة من أني سأحسن حمايتكَ في الأيام القادمة.

- ماذا تعنين؟

- أعني أنك محق ربما أحسنت تماثيلي القبيحة إبعاد العالم عنك، لكنها لن تحسن إبعادك أنت عن العالم.

- و لماذا تريدين إبعادي عن العالم؟

- لأنه ليس من مكان سيرحب بك، هم يحسبون أنك شيطان، الكل يخاف حتى النظر إليك، لا أدري إن كان لون عينيك هو نعمة أم لعنة، لكني أعلم أن جهل أولئك الناس في المدينة هو لعنة لك بما يكفي.

- ربما لعنتني الآلهة بلون عيني، لكنك تعلمين يا غيم أني لست شيطانًا... أنت علّمتِني العلوم كلها، أنت قُلْتِ إنه عليَّ البحث للمعرفة، أنت قلتِ إن العلوم قوة، فما للعلوم لا تُنقذني من العالم؟

- أودين، قبل ثماني سنوات من الآن كنتُ امرأة ذات شأن كبير، كان الرجال يتنافسون أيهم يظفر بقلبي، وكنت أنفر منهم جميعًا؛ لأني أردت أن يأتيني فارسي ليس بسيف وحصان، المهم أن يأتيني بعلم يجعلني أراه ملكا عليَّ. كنت السيدة التي يتهافت على مجالسها العلماء، كنتُ أظن أني أملك قوة بعلومي تفوق قوة أهل الجهل في المعابد، لكن الرياح أتت بما لم تشتهِ سفني؛ في ذلك اليوم الذي أتاني فيه حرس والدك ليخبروني بخبر مرض أمك، ذهبت إلى القصر في غير رغبة مني، فقد كنت رغم ثروتي وحسن سيرتي أكره قصور الولاة وأضيق بها ذرعًا، لكني ما كنت أتأخر عن مريض، عندما ذهبت لأمك كانت في فراشها تعاني ألما في المعدة، وقد عجز عن علاجها أطباء القصر وكهنة المعبد، ففحصتها وكنت أنت لكن بسبب الإعياء الشديد لم يتمكن أحد من معرفة ذلك، لم تكن تسعة شهور سهلة لا عليها ولا عليَّ.

لقد عانت الأمرَّيْن في حَملك إلى حد أنها بالكاد كانت تتحرك، وكان أبوك يكاد يلامس السماء فرحًا بولي عهده الأمير الصغير. حتى أتيت أنت في تلك الليلة؛ تقلبت الأجواء بشكل غريب وأرسلت السماء والرياح غضبها على المدينة، ربما لسوء فعلهم وليس أنت السبب، وهجمت الذئاب على أبيك أثناء رحلة صيد، وماتت أمك وهي تضعك، ثم كنت أنت توقعت أن عمك سيقتلك؛ خوفًا من الشؤم للوهلة الأولى، وأظن أن كذلك ظَنّ أبوك، لذلك أوصى آخرَ مَن رآه قبل موته بحمايتك، وكان ذلك أنا، ثم رأيت عينيك الجميلتين، فكانت الحرب بين العلم والخرافة، وانتصروا هم عليَّ؛ إذ لم أستطع بكل ما أوتيت من علم أن أفسّر سبب تغير لون عينيك، وكيف تولد بعينين مختلفتين في اللون، واستطاع "سيزوس" والكهنة إثبات أنك شيطان بالخرافة، وأني ساحرة سمّمت أمك لتلد شيطانًا، فكان ما كان وهربنا إلى ذلك الكوخ، كان عليّ تأمين طريقة لعيشنا، فاضطررت لاستخدام كل علمي بالفنون والهندسة، وعكفت على بناء تماثيل للشياطين مستغلة ما رسموه على جدران معابدهم في تصويرها على أن أستغل خرافتهم وجهلهم ضدهم، فكان ما كان.

صنعتُ التماثيل، واخترت أماكنها بدقة كي تصطف في صفوف دائرية تحجب الرؤية عن الداخل، فمن يقف خارجها لا يستطيع رؤية من في الداخل، أُقِرّ أنني صنعت سجنا لنا، لكن هذا السجن هو ما أبقانا أحياء لهذه اللحظة، هذا كل ما أفادني به العلم إلى الآن؛ ساعَدَني على الاختباء، لكنني أريدك أن تستخدمه في القضاء على الجهل، وتحرير رقاب الناس.

نكست رأسي إلى الأرض يائسًا وسألتها سؤالًا أثار جنونها:

- غيم، لماذا لم نغادر إلى مدينة أخرى؟

عندها ثار غضبها وعادت لتصفعني بشدة على وجهي...

- غير مسموح لك حتى أن تفكر في الأمر، لن أسمح لك أن تجعلني أفني عمري سُدًى.

تغير لون وجه "غيم" وأرادت أن تقطع كل سبيل للتفكير في الأمر في قلبي، فوقفت على قدميها وابتعدت عن المجلس، ثم استدارت لتنهي حديثها.

- إنْ كان هذا ما تفكر فيه، وإن كانت تلك رغبتك فلا تعد إلى المنزل، غادر الآن، إن لم تكن نِدًّا لما خلقت لأجله وإن لم تكن ندًا لاسترداد ما هو حق لك فارحل عن هنا لا أرغب فيك، الآن أتخلّى عن وعدي والآن أتركك.

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ٢:٠٠ م

- معها حق.

- نعم لقد كانت غيم دائما على حق.

- لا أنا أعني أنها محقة بشأن تمسكها بقضيتك، تَعرِف، على المرء دائما أن يتبنَّى قضيةً ما، هذا خير له من أن يموت على الحياد.

- نعم ربما.

***

ثم استدارت تهرول عائدة للكوخ، ومن شدة فزع "أودين" من حديثها

قام يهرول خلفها؛ خوفًا من فقدان كل من عرفه يومًا.

- انتظري أرجوك أمي، أعدك أني لن أفكر في الأمر حتى، أمي أرجوك.

لم تردّ على حديثه ولم تلتفت له حتى وصلت الكوخ، فدخلت وأبقته خارجًا يذرف الدمع بينما جلست هي إلى بعض صحفها، تحاول أن تُهدّئ من روعها فترضَى عنه.

- أمي أرجوك، اِصفحي عني، "غيم"، أنت كل من أعرفه لا تتركيني خلفك أرجوك.

كل تلك التوسلات كانت في الحقيقة تشعل غضبها أكثر وأكثر، هي لم تُرِدْه لينّ القلب يتوسل؛ أرادته قويا بما يكفي لينتقم. خرجت من الكوخ فِي نوبة من الغضب، ونظرت إليه فإذا به يجلس على ركبتيه منكّس الرأس يذرف الدمع:

- وماذا إذا لو لم تعرفني حتى؟ ماذا لو مت أنا اليوم هل ستموت من بعدي؟

- لا شمس ولا نهار لي من بعدك "غيم"، أنت أمي وكل عالمي.

حينها اقتربت منه وصفعته على وجهه بقوة، وجذبته إليها من ثوبه، وقالت:

- هذا ليس ما أفنيت عمري لأجله، هذا ليس ما زرعت فيك كل علومي لأحصده، أنت لا يمكنك أن تكون بهذا الضعف، أريدك قويًا لتعود لتلك المدينة لتنتقم لي ولعمك ولنفسك. أريدك أن تسترد ما هو ملك لك بالفطرة، أنت الأمير حاكم مديم أرغون والوريث الشرعي للعرش، أنت

لست الشيطان، هم الشياطين.

أريدك أن تنتقم لعلمي ومعرفتي، أريدك أن تقتل جهلهم فيهم، وتهدم ذلك المعبد الذي قَتَل عمّك، وجعلني رغم علومي ساحرة ومشعوذة، أريدك أن تنتقم لنفسك حينما ألقوك رضيعًا في عمر سبعة أيام في الغابة مغطّى بالدماء لتأكلك الذئاب، أريدك أن تنتقم لسجننا هنا وعزلتنا عن العالمين، أما إن كنت ستكون ضعيفا تكثر الدموع فارحل الآن، لا أريد حتى رؤيتك.

ثم قذفته من يدها بعيدا إلى الأرض وعادت إلى الكوخ، وتركته خلفها يتلقى درسا جديدًا عن الانتقام وسواد القلب، ربما كانت "غيم" صاحبة العلوم، لكنَّ كهنة المدينة لم ينتصروا عليها فقط بل قتلوا فيها روح علومها أيضا، فأضحت تحوّل بيدها أودين إلى شيطان حقيقي، من بعد دروس العلوم والحساب والهندسة والتدوين إلى دروس الرماية والمبارزة وحَمْل السيف والقتال بالرمح، إلى قص الأقاويل والأحاديث عن تاريخ المعبد وشيطنة كهنته، إلى الحديث عن أرامل وأيتام ضحاياه، إلى الحديث عن عرش أبيه وقيادة المدينة وإدارة المجلس والسياسة ودروس الصيد، كل هذا لطفل للتوّ بلغ الثامنة من عمره.

في أحد الأيام أثناء درس الصيد، بينما كان يترقب صيد غزال بري كما طلبت إليه "غيم"، ظهر ذئب ضخم من خلف الشجرة ففر الغزال، وارتعد قلب "أودين" إلا غيم التي كانت تقف وتراقب الأمر عن كثب، فنظر إليها "أودين" فألقت قوسها وسهامها على الأرض:

- الآن دورك لحماية نفسك.

زاد رعب قلبه، وعاود النظر للذئب الذي شعر بخوفه واندفع ناحيته

بقوة، بينما لم يطلق "أودين" السهم مباشرة مما دفع غيم للهبّ إلى قوسها من أمامها تلقمه بالسهم كي تحميه، لكنه سبقها بالإطلاق وأصاب سهمُه صدر الذئب بضربة مباشرة فأسقطه أرضا، ثم عاود النظر إلى "غيم" فإذا هي ممسكة بقوسها وسهمها وللتو تنفست الصعداء:

- لم أكن خائفا لكني أردت أن أعلمك أنك لم تكوني لتجعلي ذئبًا يقضم رقبتي.

- تبًّا لك، هيا لنتبع الغزال.

- ماذا؟! ألا يكفي صيد واحد لليوم.

- لا أريد لحم الذئاب النتن، خرجنا لصيد الغزال فهيا.

- لدينا ما يكفي من الطعام في الكوخ، لماذا الغزال الآن، قد يفسد لحمه إذا لم نتمكن من أكله كله.

- لا يهم، اِتبعني هيا.

ثم حملت نفسها للسير خلف الفريسة، وتبعها "أودين" وهو يتحدث:

- ألا يمكننا صنع فخ له لننهي الأمر سريعًا.

- إذا لم تتوقف عن الكلام بشأن صنع فخاخ لصيد الحيوانات سأصنع أنا برأسك فخًّا للذئاب.

- و لكن لماذا؟

التفتت إليه بغضب وقالت:

- لأنك أمير، والأمراء لا يَطعنون من الخلف، هل فهمت؟ إن سلالة دم

الملوك يقاتلون أعداءهم وجها لوجه، والآن اخرس واتبعني لتصطاد ذلك الشيء.

- حاضر، أمي.

ثم انطلقا في أثر الغزال البري ليحاول صيده، وجلس يتربص له إلى أن لاح الغزال في الأجواء مرة أخرى، فعاد يصوب سهمه إليه بدقه، ولاحظت غيم حركة بالقرب من قدمه، فنظرت فإذا بأفعى كوبرا تقترب منه بحذر فصوّبت نحوها بسهمها بهدوء كي لا تفقده تركيزه في صيد الغزال، وبمجرد أن أطلق "أودين" سهمه نحو الغزال أطلقت "غيم" سهمها على الأفعى قبل لحظات من هجومها عليه، فبدلًا من الاحتفال بصيده كاد يصعق من هول ما رأى:

- كان من الممكن أن تقتلني!!

- لم أكن لأدعها تفعل.

- لقد رأيتها وتركتها تقترب!!

- لقد كنت أسيطر على الوضع، لم أشأ أن تفقد تركيزك على صيد الغزال.

- ماذا لو لدغتني قبل أن أتمكن من اصطياده؟!

- لقد قلت إنني كنت أسيطر على الوضع، لم أكن لأسمح لمكروه أن يصيبك.. آه.

لم تكن أفعى الكوبرا تلك هي الوحيدة؛ حيث كانا يقفان، صرخت غيم بقوة ونظرت إلى قدمها فوجدت أن أفعى قد غرست أسنانها فيها،

وألقت سمها، وبسرعة لحقها " أودين " بسهم قتلها، وانكبّ على قدم غيم يعقدها ويمتص الدم منها على أمل ألا ينتشر السم في دمها، لكن غيم التي لم تحرك ساكنا كانت قد أدركت بما يكفي أنه قد حان الوقت الذي كانت تشعر في قلبها بقربه، قررت الاستسلام للأمر غير أن الفتى ظل يبكي بقوة. وعكف كالمجنون يتوسل البحث عن كل الأعشاب الطبية التي عرفها من غيم يجمعها من حولها ليضعها على الجرح، ولكن من دون فائدة، فحمل غيم وأسرع بها إلى الكوخ وحرارتها ترتفع شيئا فشيئا ولا يملك لها شيئا، يفعله سوى أنه هبّ إلى إناء الماء يشعل النار من تحته ويضع فيه الأعشاب عَلَّه يُشفي جرحها، ولكن من دون فائدة، كانت "غيم" تحتضر وما من سبيل أمامه لإنقاذها، يذهب عقلها ويجيء بعد انتشار آثار سم الأفعى في جسدها، فكلما أفاقت نادت "أودين":

- ليس الآن، ليس وأنت في الثامنة من عمرك.

- أمي، أرجوك لا ترحلي.

- أودين يا عزيزي، لقد كنت أنا كل مَن عرفته وكل من شعرت به يوما، كنت أمك ولم ألدك.

- أمي أرجوك.

- توقف عن البكاء، دعني أنظر لعينيك الجميلتين... آه إنهما أجمل ما رأيت يوما، لا تدع أحدًا يخبرك أنك ساحر يا عزيزي. أنت فتى رائع وقلبك مليء بالضوء، لا تطفئ ذلك الضوء في داخلك لتتبع درب التابعين، اُعثر على نفسك بين الجميع يا أودين.

- أرجوك توقفي عن الكلام.

- آه اللعنة، لَأَلَم الرأس هذا لا يسمح لي أن أمتع عينيّ برؤيتك بما يكفي..

ثم تعود إلى فقدانها للوعي، ويعود أودين إلى حيرته من داخل الكوخ وخارجه، ماذا يفعل؟ وأين يذهب؟ ومن يقصد؟ وإلى أيّ إله يتضرع؟!

لم يبدُ له شيء سوى أضواء مشاعل المدينة التي تلوح من أمامه، رغم تحذير "غيم" له بعدم الذهاب ولو بحياته اندفع أودين يركض بقدمين عاريتين وثياب مهلهلة - والأسوأ - بعينين مختلفتين في اللون إلى المدينة ليأتي بطبيب لأمه، كلما اقترب الطريق من المدينة كلما زاد ركضه وزاد تصبّب العرق من جبينه وارتفعت ضربات قلبه وصار كأنما يسمع صوت قلبه بأذنيه فيشعر به أكثر حتى من شعوره بقدمه العارية وهي تضرب في الأرض ركضا نحو المدينة.

كان الظلام قد غطّى الأرض؛ فإذا بحارس بوابة المدينة يفزع من أحدهم يقترب ركضًا من الغابة بشعر يغطي رأسه كأنه يهرب من شيء ما يطارده، عندما اقترب فإن أول ما لاحظه الحارس هو لون عينين مخيف يشبه لون تلك العيون المصوّرة للساحر على جدران المعابد؛ إذ كانوا قد بدؤوا بتصوير الوحوش على هيئة أودين فهلع منه الحارس وراح يركض أمامه، بينما هلع أودين إلى داخل السور ينادي في الناس.

- طبيب... طبيب، أرجوكم، أمي تحتضر، أيعلم أحدكم بالدواء؟

إن تلك اللحظات التي تفقد فيها عزيزًا قد تربى قلبك على اللجوء إليه، تشبه خروج الروح من بين أظافرك، وانسلالها من بين ضلوعك، يهلع قلبك

بشدة، وتصيبك نوبات من الجنون اللحظي، وكل شيء حينها مباح.

عزيزي الوقت، أرجوك توقف الآن، أرجوك ارحم كوني طفلا يفقد وطنه في آخر اللحظات...

- ليساعدني أحد أرجوكم.

كالمجنون يركض بين الناس، وينفرون منه في فزع وصراخ.

- أرجوكم لا تخافوا، ليساعدني أحد، أمي تحتضر، أرجوكم أمي كل ما أعرفه.

أتى كبير الحرس في جمع من جنوده:

- اُقتلوا هذا الشيطان.

عندما سمع "أودين" حديث كبير الحرس قفز إلى مشعل متقد على أحد الأسوار وحمله، وراح يركض داخل المدينة ليحتمي من الحراس، وتابع الركض لينجو بحياته، وينظر حوله عَلَّه يجد من يرأف بحاله ويهلع ليساعده، لكن الجميع كلما رأوا عينيه هلعوا هم منه وركضوا أمامه، وأثناء هروبه دخل ممر أحد المعابد وهو يركض لاحظ وجود الرسومات التي تشير إلى الحروب بين البشر والسحرة على جدران المعبد، واستوقفه رسمٌ ما، إلى حد أنه بقي أمامه لوهلة؛ كان صورة امرأة في رداء أسود تحمل رضيعًا ذا قرون وعينين مختلفتين في اللون، إحداهما زرقاء والأخرى باللون الأسود، وبجوارها صورة لساحر ذي قرون ضخمة وله نفس لون العينين، الآن فقط قدّر أودين حجم ما تحدثت به غيم على مدار سنوات حَقّ قَدْرِة.

و بينما هو في ذهوله فجعه جرح في ذراعه من سهم أطلقه عليه أحد

الحرس فعاد لرشده، وتابع الركض إلى أن تمكن من الخروج من المعبد إلى سور المدينة وَفَرّ من إحدى ثغراته بـأعجوبة وهو يحمل في يده مشعل الضوء يضيء له بالكاد تحت قدمه، عاد يركض إلى غيم، إلى كل ملاذه الذي يحتضر، يمر بين التماثيل بسرعة لا يشعر بقدمه تطأ على الأرض، إلى أن وصل الكوخ.

- أمي، اِنهضي سيقتلوننا.

- ...

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ٣:٠٠م

- "أودين"

- ماذا الآن؟

- أيهما أسوأ برأيك عالمي أم عالمك؟

- أعتقد نحن السيئون في كل زمان ومكان.

- لماذا أصبحنا بهذا السوء؟ لماذا نُباد بالجماعات؟ لِمَ نَقتل بعضنا البعض بهذا الشكل؟ ولماذا نفقد مَن نحب؟

- ماذا تعنين أصبحنا؟ هكذا قومنا منذ أن هبطنا لهذه الأرض، في عصري ومن قبله عرف الإنسان الحروب والإبادة، والخنادق، والحرق، والقتل الجماعي، ليس في عصرك وحده.

- متى ينتهي هذا كله يا صديقي؟

- لا أدري، لكن حتما الله يعرف.

- أتظنه يرحمنا يا "أودين"؟

- هو خلقنا، وعليم بصدورنا، عليم بمن تألموا ومن سبّبوا الألم، هو عليم ورحيم، وهذا شيء مطمئن نوع ما.

- كانت أمي تستيقظ في الثالثة فجرا تحدثه وتفضي بما في قلبها، وتقول: وربّ أطرق بابه في كل وقتي وحالي يأتيني، ألا آتيه في وقت يناديني صوت الحق له؟

- كانت أمك ترى بعيدًا بعيدًا عن هذا العالم.

- نعم لقد كانت تنظر دائما إلى ما بعد النهاية. أشتاق إليها.

- ستعتادين الأمر.

***

- أمي... "غيم"... أمي.

- ....

ما مِن رَدٍّ. تأخر الابن الثائر عن أمه التي لفظت آخر أنفاسها بدون ابنها وعالمها الوحيد. وإن الأسوأ من فجيعة الرحيل أن يداهمك العالم بسرعة تمنعك حتى من الحزن والحداد. كان على "أودين" أن يجد حلًّا لما صنعه في المدينة وبسرعة وإلا فإن التماثيل التي حمته وأمه لثماني سنوات مضت لم تكن لتحميه لـثماني دقائق أمام أهل المدينة.

قام بسرعة إلى الكوخ ينفض عنه العشب الجاف القابل للاشتعال بسهولة، وراح يضع خلف كل تمثال كومة من العشب الجاف. كان يصارع

الوقت ليتمكن من جمعه، ويصل كل كومة قش بالتي تليها في ظلام الليل بخيط من القماش المفعم بمادة قابلة للاشتعال.

في المدينة اجتمع القوم أمام قصر "سيزوس" يطالبونه بقتل الشيطان الذي هجم على المدينة للتو. الآن علم "سيوزس" أن الرضيع لم يمت في ذلك اليوم، فخرج في جمع من أهل المدينة على الخيول حاملين السيوف والرماح لمقاتلة الوحش ذي ثماني السنوات.

وكان حينها أودين قد انتهى لتوه من جمع القش خلف كل تمثال ليشعل في قلوبهم الخوف بجهلهم كما علّمته غيم، واستخدم إحدى حيله التي اعتاد أن يراقب بها اقتراب الحيوانات؛ فعلّق وعاءين معدنيين على غصن شجرة خارج حدود التماثيل ووصلهما بغصن من الأسفل حتى إذا ضربت الخيول الغصن اهتز الوعاءان، فيعلم متى يقتربون ويشعل الفتيل.

ثم حصّن حول الكوخ بحفر خندق دائري بسيط حوله، وملأه بماء من البئر القريب حتى يمنع النار من الاقتراب منه، ووقف خارج الخندق يراقب الوعاءين بصمت، ولكن أصوات الخيول والرجال من فوقها يهللون كانت أقوى من صوت الأوعية التي نصبها، وكان الرجال من فوق الأحصنة في حقيقة الأمر يطرقون على الأوعية والطبول اتّباعا لتعليمات الكهنة في طرد الشياطين، وبمجرد سماعه لأصوات طبولهم وأوعيتهم أشعل أودين النار في الكومة الأولى؛ فراحت تشعل ما بعدها وما بعدها في مظهر مفزع للقلوب؛ إذ بدا للواقفين خارج حدود التماثيل أن شيطانا ضخما اشتعل في الخلف فراح يشعل الآخرين، وخُيّل إليهم أن التماثيل تشتعل من ذات نفسها، وأن الكهنة صدقوا حينما قالوا: إن التماثيل ستستيقظ لو هجم أحد على الكوخ، فأشعل

بذلك الرعب في قلوبهم بجهلهم، وراحوا يتراجعون للخلف شيئا فشيئا إلى أن اشتعلت كل التماثيل، وأصبحوا لا يرون أمامهم سوى النيران، ففزعت الخيول وراحت تنفض الرجال من عليها، وفزعت الحيوانات فهبت الطيور تغادر أعشاشها في الليل فتتخبط بالأشجار وتسقط فوق رؤوسهم، وفزع "سيزوس" ورجاله من هول ما رأوه أمامهم، وانفضّوا من الغابة مهرولين نحو المدينة يغلقون أبوابها خوفا من غضب الساحر الذي ظنوا أنه أضاء ظلام الليل بالنيران.

وهبت الكهنة تتغنى بأناشيد معابدهم تناجي الآلهة علَّها تبعد عنهم غضب الشياطين، وظلوا يظنون أن التماثيل ستتحرك إليهم فتهدم الأسوار وتغزو مدينتهم طوال الليل، إلى حد أن "سيزوس" وكبار الكهنة هبوا يعدون أغراضهم استعدادًا للفرار في أي لحظة لو هاجمت الشياطين المدينة.

بينما كان "أودين" يناجي ما أصابه من هم وحزن وكيف له أن يكمل بعد موت "غيم" وتركها له، وكل تلك الحقائق التي تفتح واقعها أمام عينيه دفعة واحدة. جلس ينظر للنار وهي ترتفع وينتشر لهيبها، وينتظر أن تخمد نيران القش فيرى ما هو بفاعل.

كوّم جسده بجوار الكوخ؛ حيث يعلم أن في الداخل رقدت "غيم" في سلام لتتركه وهو ابن الثامنة في عراء تلك الغابة يرتجف جسده من البرد رغم اشتعال النيران من حوله، وكيف أن كل أهل القرية يكرهونه حد الموت، و"غيم" التي تركته ليحقق المعادلة الصعبة؛ وهي أن يعود للمدينة ملكًا، الآن عليه أن يحقق المعادلة المستحيلة هي أن ينجو بحياته...

***

٢٣- ٠٩- ٢٠١٨ / ٤:٠٠ م

- بلقيس... بلقيس.. أنت!!

- أمم.. ماذا!! نعم.

- أين ذهبتِ؟

- أنا هنا.

- اِبقَي هنا، إياك أن تتركي اللوح!

انتبهت إليه وكأني للتو أفقت من غفلتي بالكاد كان جسدي يتحمل التشبث باللوح وبرودة الماء، وكان أودين جالسًا أمامي يحاول إيقاظي من غفلتي، ولأول مرة منذ ظهوره أراه مهتما بحياتي بحق:

- أنت..

- لا تتركيه، أرجوك.

- أودين، أنت لا تريدني أن أترك اللوح.

- حسنا، لا أريدك أن ترحلي فقط، ربما لو رحلتِ الآن لن أجد من يسلي وقتي بحديثه لا أكثر.

- تبًّا لك!!

- عدتِ للسب، إذًا أنت بخير.

ثم عاد يستلقي على ظهره مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن، وسرعان ما تلاشى كل ذلك القلق في صوته.

- "أودين"، لماذا تُبدي اهتماما بغرقي من عدمه؟ إن الأمر في حقيقته لا يعنيك، كنت تريدني أن أغرق فورما ظهرت.

- و كنتِ تريني ساحرًا مسخًا في أول ما ظهرت.

- أنت أحمق ليس إلا..

- حسنا، يبدو هذا منصفا بما يكفي بالنسبة إليَّ، إن لقب أحمق أفضل بقليل من شيطان.

تبًّا له حقا!! كيف هو ليس مهتما ومهتما بكل شيء في الوقت ذاته؟!!

- "أودين".

- ماذا الآن؟

- أشعر بالبرد.

- أنا لست شيطانًا لا يمكنني نفث النار على الماء.

- أشعر بالملل.

- ماذا؟ هل أرقص لك؟

- "أودين".

نهض واعتدل في جلسته.

- تبًّا!! أنت تنادينني عشر مرات في الدقيقة الواحدة، ماذا الآن؟

- كيف شعرت عندما ماتت "غيم".

ساد الصمت... ثم أخذ نَفَسًا عميقا، وعاد يستلقي على ظهره مرة أخرى:

- حسنا، إن الأمر يشبه كأن تخسري كل ما عرفته في حياتك يوما دفعة واحدة، ورغما عنك لا يزال قلبك يعمل، وجسدك لا يفنى فقط مع الريح، وينتهي الأمر كله.

- أهذا ما أردته حينها، أردت أن يذهب جسدك مع الريح وينقضي كل شيء؟

- يومها تمنيت لو أني لم أولد حقا، تمنيت لو أني يوما لم أكن، لكن كل شيء حدث بعدها استحق عناء العيش.

- "أودين".

- تَبًّا! ألا يمكنك فقط أن تطرحي السؤال مباشرة؟!

- أحب أن أناديك لأتأكد فعلا أنك موجود حقا.. يا "أودين".

- توقفي عن هذا هيا.

- هل حقا أنك أحببت "ماكو"؟

- لا.

- أنت تكذب.

***

غفا من شدة التعب وأثر الجرح في ذراعه، غفا من شدة رغبته أن يغمض عينيه فلا يعود للحياة مرة أخرى، غفا ولم يخف أن تطغى نيران التماثيل على خندق الماء الصغير من حوله.

وأتى الصباح على عالمه وهو رماد من بعد لهيب، انطفأت النيران وخمدت

بعد أن أكلت معظم التماثيل، وأصبح الكوخ شبه عار أمام الغابة المهشمة، والأشجار صُلبت محروقة وقد ولت عنها أوراقها بعدما احترقت مع التماثيل، و"أودين" مُلقًى بجوار الكوخ على الأرض، و"غيم" طريحة الموت في داخله. ثم حدث ما لم يتمناه؛ وهو أن تنفتح عيناه فجأة فيدرك أنه لا يزال هنا، لا يزال يعاني كل ذلك الإدراك لما حوله، لا يزال يشعر. هرول إلى داخل الكوخ عَلَّ معجزة حدثت أعادت "غيم" للحياة، لكن كان كل شيء هادئًا في الداخل ساكنا.

- "غيم"... أمي.

تلك اللحظة التي تنادي فيها أحدًا تعلم أنه قَضَى ولن يرد تتجاوز فيها الأماني كلَّ حدود المنطق إلى حد أن العقل يسلم جدلًا بإمكانية تحقق أمنيته ولو بأمل أضعف من الثرى إلا أنه متمسك به.

لكن لا رد أتى، جلس صامتا أمام فراشها كأنه يتلو ترانيم الموت في نفسه، يناجي كل ذكرى عاشها معها، يناجي ثماني سنوات مضت لا يعرف غيرها، كانت وطنه وملجأه، واليوم أصبح غريبًا. لكنه تماسك، وجمع شتات نفسه بقوة، وقام يأتي بالماء من البئر، ويمشي في الغابة في غير خوف يجمع الأعشاب العطرة والطبية كما علّمته "غيم"، وعاد إلى إناء الماء الساخن وقام بوضعها فيه وأتى بقماشة نظيفة، وراح إلى "غيم " يغسل وجهها ويديها وقدميها بالماء الفاتر المعطر، ونزع عن قدميها ضمادات الأعشاب التي قد صنعها على أمل شفائها من السم، وهو في داخله يلعن عدم نفعها لحماية "غيم"، ثم قام إلى إحدى حِيَله؛ فصنع مزلاقًا من خشب الأشجار، وربطه بالحبال، ثم قام بوضع جسد "غيم" عليه، وضع رمحها بجانبه وقوسها، وسهامها بجانبه ثم

جرها بكتفه إلى حيث كانا يجلسان في وقت العلوم والحديث؛ إلى الشجرة التي كانت "غيم" تعرف الأيام بالعلامات عليها، إلى شجرة النخيل؛ مديم أرغون، وراح يحفر في الأرض قبرًا قويًا بما يكفي ليأوي جسد أمه ويحميها من الذئاب التي كانت ملأت المنطقة قدوما على رائحة جثث الحيوانات والطيور التي قضت بفعل الحريق الذي أشعله "أودين" في الليلة الماضية، وقد أحس بقدومهم، لكنه للمرة الأولى ليس خائفا من أي شيء...

عندما انتهى من صنع حفرة كبيرة جدًا في الأرض، نظر إلى يديه وقدميه فإذا بهما تأذٍّ كثير من أثر الحفر، لكن هذه المرة ليس من أحد ليطيّب آلامه، فقام إلى ثوبه ومزقه وربط يديه وقدميه وعاد للعمل إلى أن انتهى تماما من الحفر، ثم حانت أصعب اللحظات؛ فقام بجلب "غيم" إلى داخل القبر، ووضعها كأنه يضع طفلًا في فراشٍ هانئ لينام. كان يتمنى حقا لو أنه يرقد بجانبها، وينتهي كل شيء:

- ألا تأخذيني الآن معك يا أمي؟ لا أريد الخروج من هنا، لا أعلم ماذا ينتظرني في الخارج، ولست متأكدًا أني لو قضيت سيأتي أحدهم ويضعني بقربك، ربما يحرقونني وينثرون تراب جسدي، فلا أهنأ في موتي وأشتت في الأرض تذهب بي الريح وتجيء.

- ...

- أتمنى لو تردي عليّ، رغم أني أعلم ردك الآن، ربما صفعتني على وجهي بقوة وقلت: عليك الانتقام، لكنني أعدك أني سأسعى كل جهدي لتحصدي ما زرعتِ فيَّ؛ سأنتقم يا أمي.

نحن نحصد ما زَرعنا وما يُزرع فينا، وقد زرعت فيه "غيم" العلوم لينتقم

من جهل أهل المدينة، وزرعوا هم فيه كونه الشيطان، فإن أرادوا الشيطان فلهم ما طلبوا.

كل ذرة تراب يلقيها على "غيم" في قبرها كانت مصحوبة بدمعة مقتولة في قلبه. انتهى من دفن "غيم" للتوّ، وجلس يحرس جثمانها من هجمات الذئاب، ولم يكد يستريح حتى فوجئ باثنين من الذئاب يكشران عن أنيابهما استعدادًا للهجوم عليه في وقت كان "أودين" فيه أسوأ من الشيطان ذاته، كأنه أراد حقا أن تأتي الذئاب فيصبّ عليها كل تلك المشاعر الثائرة في قلبه، يصبّ غضبه عليها، إلى حد أنه فور ظهورهما أمامه قام فحمل رمحه في يده وراح يركض في اتجاههما، في الوقت الذي كانا فيه يتجهان نحوه بعنف وشراسة تحمل كلّ طبيعتهما الغريزية في الافتراس.

وكان هو في أوج غريزته الغاضبة بما يفوقهما، لا يرى أمامه سوى صورة الشيطان على جدران المعابد، فقذف رمحه عن مسافة فأصاب الأخير، ودخل في شجار جسدي مع القريب منهما فعندما رفع الذئب جسده عن الأرض ليهجم عليه، خفض "أودين " جسده من أسفله وهجم عليه في رقبته فخنقه بأسنانه من شدة الغيظ كما تقتل المفترسات فرائسها، وهو يقول في نفسه: تريدون الشيطان؟ ها هو.

ظل الذئب يصارع ويخدش جسد "أودين" بـ مخالبه لكنه كان في خدر الحزن إلى حد أن الذئب خدش كل جسده وأصابه إصابة بالغة ولم يشعر، فقط ظل يضغط على القصبة الهوائية لعنق الذئب حتى سكن تمامًا وشُلت كل حركته وقَضَى، وعندها نهض عنه "أودين" وكأنه للتو أفاق من نوبة صرع أصابته، وفمه مليء بدماء الذئب وشعره، لكنه كان مصابًا بنوبة من الصدمة

لكل ما يعيشه على مدار اليومين إلى حد أنه راح إلى الشجرة يلملم جسده وهو ينزف ويلف كلتا يديه حول قدمه من هول ما مر به.

كأنه يحتمي من كل شيء حولة تاركًا جثة الذئبين، ليكونا تحذيرًا لأي ذئب يقترب، وعاد من شدة التعب يغفو كأنما هو جثة ملقاة في العراء، عاد للسكون التام كأن طبيعته الجسدية تحنو عليه بجعله يفقد الوعي ليرتاح قليلا من كل ذلك الوعي الذي لا يستطيع تحمله.

***

٢٣-٩-٢٠١٨ / ٥:٠٠ م

- " أودين "

- ماذا؟

- لماذا لا يمكننا أن نتوقف عن التفكير حينما نرغب في ذلك، لماذا لا يمكن أن تصيبنا غيبوبةٌ ما لخمسة أيام مثلا ثم نعود للوعي مرة أخرى؟

- من أخبركِ أنكم لستم في غيبوبة مستمرة؟ ما أدراكِ أنكم قوم لستم في غفلتهم يعمهون؟

- أنت محق، اقترب حسابنا ونحن في غفلة معرضون.

- لماذا لم تفكري هكذا حينما حاولت الانتحار هذا الصباح؟

- أخبرتك لم أكن أحاول الانتحار، لقد غفوت وعندما أفقت كان القارب مشتعلًا ولم أدرِ إلى أين وصلت، مجرد غفوت، ولو لم أقفز في الماء في الوقت المناسب لانفجرَ القارب وأنا لا زلت على متنه، لقد نجوت بحياتي،

فكيف تقول إني حاولت الانتحار؟

– وماذا تسمين أخذ قارب لوجهةٍ غير معلومة لمجرد أنك رغبتِ في الابتعاد عن الواقع فجأة؟ ماذا تسمين كلٍ هذا الرفض لرحيل أمك؟

– هكذا أردت؛ أن أرفض كل شيء.

– لكن الحياة لا تقبل بإرادتنا أحيانًا، نحن لا يسعنا شيء سوء تقبل الأمور كما هي.

ثار غضبي عليه فرحت أصرخ فيه:

– هذا لا يعني أن حديثك سيؤثر فيّ شيئا، إنها حياتي أنا، ولا أسمح لأي تيار بأن يجرفها، أتفهم؟!

– أنا أتفهّم كل شيء، لكني لا أرى في استسلامك سوى شخص منهزم يسمح لأي تيار بأن يجرفه. أنت تعاندين فقط لا أكثر، ترفضين تقبل الحقائق لأجل الرفض، وليس لكي تغيري في ما حولك ساكنًا.

– تبًّا لك.

– نعم وعندما تتحتم المواجهة تقومين بتكسير الأشياء وإلقائها بعيدًا، أو البعد عن الجميع والعزلة، لا تواجهين العالم، أنت بارعة في الهرب لا أكثر.

سمعت حديثه وأصابني صمت كأن أحدهم واجهني بحقيقتي دفعة واحدة، وتذكرت قضية الفتى بابو. لقد كنت أعرف بطريقة ما أن أمي ستظهر من العدم لتحل المشكلة لذلك كنت مستسلمة تماما وكأني لا أرغب في التفكير. ربما سبب رفضي لحقيقة أني خسرت أمي هو خوفي من تلك

اللحظات التي سأنتظر فيها أن تُخرجني من مشكلة ما ولا تأتي، ربما هو خوف من الحياة من بعد حارستي.

- أتعلم، ربما أخطأتْ أمي في خوفها عليَّ، ربما أخطأت في مواجهة كل مشكلاتي نيابة عني. لقد كانت دائما تقول: أحببتكِ حتى إني أسميتك قبل أن أعرف مَن سيكون أبوك، وتمنيتك في كل لحظة، إلى حد أني تمنيت أباكِ فقط لأجلك.. كانت دائما تقول: إنها تملك البذور التي لطالما أرادتني لأكونَ أرضها الخصبة فتزرع فيّ كل شيء عرفته، لكنها بالغت في حبي وحمايتي، كيف لي أن أقبل فقط برحيلها الآن؟ هذا أمر صعب إن لم يكن مستحيلا يا صديقي.

- ها، جيد. الآن أصبحنا أصدقاء.

تبسمت بسخرية وقلت:

- نعم أظن ذلك.

***

بضع قطرات من السماء تسقط شيئا فشيئا، ثم سيول الأمطار التي هطلت فوق جسده الضعيف دفعة واحدة لتجعله يفيق فجأة من غفلة ليعود للوعي مرة أخرى منزوعًا من ثباته، ينظر حوله فإذا بكل شيء واقع وحقيقة، والكابوس لا ينتهي أبدًا. بجواره قبر "غيم" ومن أمامه جثتان لذئبين، أحدهما مفترَس من رقبته كأنما واجه حيوانًا ضاريًا، بينما جسد أودين كله مليء بالخدوش والجروح من أثر مخالب الذئب، ومن حوله ليس من مغيث أو معين.

قام إلى النهر في وسط المطر يغسل جسده وينظفه من الجروح، ثم عاد يجرّ جسده مرة أخرى إلى الشجرة، وعاد يُرابط قرب قبر غيم كأنه أصبح بيته الجديد، واستمر الأمر أيامًا وصلت إلى ما يقارب الشهر؛ ينام أسفل الشجرة فوق قبر غيم، ويقتات على الأعشاب ولحوم الحيوانات نيئةً كأنه يعاني صدمة بقائه حيًا.

في ذلك الوقت لم يفكر أحد من أهل المدينة من معاودة الاقتراب من الكوخ أو التماثيل إلى أن استعاد أودين شيئا من عقله بعد مرور شهر، وعاد يتذكر حديث غيم عن العودة للمدينة ومحاربة الجهل، فعاد إلى الكوخ مرة أخرى ليعيد إصلاحه، فعكف يجمع أوراق الأشجار والأغصان، ويكوّن أكوام الطين الذي خلّفه الحريق والمطر، ثم قام إلى التماثيل فأعاد إصلاحها لتعاود الوقوف في الغابة.

زاد عددَها وعدّل هندسة وضعها على الأرض، وغيّر في أحجامها فجعل الأقرب للكوخ منها أكبر في الحجم من التي تسبقها وتبعًا بتدرج في الحجم، فأصبح شكلها هرميًّا لكي تظهر عددها الحقيقي المخيف للواقف خارج حدودها. أخذ الأمر منه عدة شهور وهو لا يفعل أي شيء كل يوم سوى إعادة بناء حصنه؛ فيبني التماثيل ويحرق طينها حتى تجمد فلا يؤثر فيها المطر، وأعاد بناء الكوخ وترتيبه، وصَفّ كتبَ غيم.

كان في داخله قد عزم على الانتقام لكل شيء كأنه أراد أن يعطي أهلَ مديم أرغون الشيطان الذي طلبوه ليذيقهم مرارة الجهل الذي توهموه.

استل رمحه وسهامه، وقام إلى إناء حجري وضع فيه عدة آنية من النحاس لتسيح فيه، ومن ثم حفر شكل قناع في قاع حجر من الطين؛ قناع له قرون

تشبه تلك التي رآها مرسومة على جدار المعبد، وصبّ النحاس السائل فيه فأخرج قناعا شيطانيا قبيحا وقام بارتدائه على وجهه، ولف جسده بقماش وشاح أسود كبير يضعه على ظهره ويخفي وراءه قوسه وسهامه، و راح يخرج للغابة ويتجوّل فيها وهو على يقين أن أحدًا من أهل المدينة لن يجرؤ على الاقتراب حتى من مساحة الكوخ.

طوال فترة بقائه مع "غيم" لم يجرؤ على مغادرة الغابة، الآن وقد ماتت "غيم" أصبح في نفسه كالوحش الضاري الذي يتصرف وهو يدرك أنه ليس لديه من عزيز يخشى خسارته. يصطاد الحيوانات بهدف القتل فقط إلى حد أنه قتل عددا كبيرا جدًا من الذئاب؛ فراحت تولي عن الغابة وتهجرها إلى القرى والصحاري المحيطة، وكان يقتل حيوانات أهل المدينة عنوة، ويتسلل ليلا إليها فيدخل المعابد ويشعل فيها النيران ويغادر.

واستمر على حاله لسبع سنوات من بعد رحيل "غيم" إلى أن بلغ خمسة عشر عاما، لا يتحدث لأحد وليس هناك أحد ليتحدث إليه، لا شيء مقدس بالنسبة إليه سوى تلك الساعات التي يقضيها جالسًا قرب قبر غيم. لم تعد تأخذه رأفة بشيء أو أحد. لا يفكر في شيء سوى كيف يهدم المعبد فوق رأس سيزوس والكهنة.

إلى أن أتى ذلك اليوم الذي ظهرت فيه "ماكو"؛ كانت طفلة للتو بلغت السادسة من عمرها، تتجول في الغابة وحدها بكل سذاجة، كانت الفتاة تتسلل من الحراس وتهرب إلى الغابة لتجمع الزهور والتوت البري، وعلى غير العادة شهدها أودين تتجول في الغابة بمفردها. كان أمرها مريبا بالنسبة إليه؛ إذ كانت المرة الأولى التي يشهد فيها إنسانًا بهذا القرب في الغابة غير

غيم. فكر في قتلها للوهلة الأولى التي التقاها فيها لكن شيئا في نفسه جعله يعدل عن ذلك، اكتفى بمشاهدتها تلهو بين الأشجار غير عابئة بأي شيء كـأنها من أنحاء بعيدة لا علم لها بحقيقة الغابة وما فيها، لكن في نفسه كان يشعر بالجزع منها، ربما لِما تركه أهل المدينة لديه من انطباع عن البشر، فقرر تركها لسبيلها، ومضى في الغابة وهو موقن أنه لن يراها ثانية، لكن الصغيرة أعادت الكَرّة، مرة والثانية والثالثة فراح يراقبها من بعيد في ثوبها الأبيض البسيط وهو يستغرب كيف أنهم لا يلحظون فرار هذه الطفلة للغابة طوال الوقت من المدينة للغابة وهو محرم عليهم ذلك، ظن أنها ربما ابنة مزارع بسيط في المرة الأولى، لم يكن يهتم لأمرها، بل كان يبغض رؤيتها المستمرة، يبغضها في ظاهر مشاعره وفي الداخل يستأنس بها إلى حد أنه في إحدى المرات التي رآها فيها صوّب سهمه في اتجاهها، وظل يصوب نحوها بالسهم ليقتلها، ولكنها وفي آخر لحظة من قبل إطلاق السهم عليها استدارت إلى ناحيته فتمكن من رؤية وجهها البريء بوضوح. لم تكن تستحق الموت أبدا، وكأنها جعلت وترًا ما في قلبه يعود للعمل، وكأنها ألانت شيئا في شيطانيّته، فأخذ قوسه وسهمه وولَّى عنها.

رحل هذه المرة وتركها في أمان، ولكنها ظلت تعاود التسلل للغابة مرة تلو الأخرى كالشبح الصغير، إلى أن اعتاد أودين ذلك، ومن دون أن يدري كان في الحقيقة يترقبها. وكل مرة كان يراقبها عن كثب وهي لا تشعر بوجوده، كأن مراقبتها كانت نوع من التسلية بالنسبة إليه، فاعتاد تلك التسلية، وراح يترقب الأيام التي تفرّ فيها الفتاة إلى الغابة، وينتظرها في الأماكن التي تقصدها، ويتحرّى غيابها وقدومها، فقط ليراقبها من بعيد وهي تتجول بلا وجهة كالتائهة.

وفي أحد الأيام أتت ماكو إلى الغابة، ولكنه لم يكن هو الذي يراقبها هذه المرة؛ إذ كان هناك ذئب هو الآخر يترقب قدوم الفريسة المجنونة من المدينة. هذه المرة هو وصل قبل أودين، وبمجرد وصوله كان الذئب قد سبقه وهجم على الفتاة وأصابها إصابة بالغة في كتفها، ولكنها لم تكن تصرخ. بمجرد أن لاحظ ذلك من بعيد أطلق أودين سهمه بسرعة على الذئب فأصابه في عنقه وسقط بجوار الفتاة التي كان يبدو أنها تتألم، لكنها لا تصرخ، فبقي في مكانه غير متأكد أنه يرغب في الاقتراب حقًا منها، ومكث قليلًا يفكر: هل يظهر لها أولا؟ ولكن أخيرا هبط من على غصن الشجرة إلى الأرض إليها ففُجعت بمظهره المخيف من وراء قناعه الأسود ذي القرون، وردائه الأسود، ولكنها كانت تنزف بشدة، لكنها كانت صامتة ولم تطلب المساعدة، نظر إلى جرحها بخبرة طبيب تركته فيه "غيم" فعلم أنها قاضية لا محالة وأن جرحها بليغ وستنزف حتى الموت. لم يكن مستعدا لإنقاذ حياةٍ لا تعنيه، ولم يحرك ضعفُها في قلبه ساكنًا، ولم يكن ليعتني بحياتها على كل حال؛ فأدار ظهره لها ومضى في طريقه دون أن ينظر خلفه، ثم تذكر قولًا أخبرته إياه "غيم" وكأن صوتها عاد فجأة إلى أذنه: "ليس طبيبا من ترك مريضا دون أن يُفني كل جهده محاولًا إنقاذه".

فعاد ينظر إلى الطريق في الخلف، ورجع إليها وهي ملقاة بجوار الأشجار لا حول لها ولا قوة، وكانت قد نزفت الكثير من الدماء، فأخذ بقطعة من وشاحه ولفّه حول كتفها بإحكام ليمنع تدفق الدم، وحملها إلى الكوخ وهي فاقدة للوعي، ثم بدأ ينظف الجرح بالماء والأعشاب الطبية لتقاوم السم في عضة الذئب، ويوقف نزيف الدماء إلى أن توقف النزيف، وراح يشعل النيران ليدفئ الكوخ ويعدّ حساء لحم الأرانب ليسقيه لها، ويصب السوائل

في فمها فيساعدها على مقاومة ما نزفته من دماء.

استمر في فعل الأمر ذاته كل يوم إلى أن مضت أربعة أيام على ماكو وهي متغيبة عن المدينة في كوخ أودين، ثم أفاقت من غفلتها أخيرًا رغم ما بدا عليه من ضيق ذرعه بوجود رفيق في كوخه، إلا أنه كان يستمر في الجلوس ومراقبتها من بعيد. بقيت ليومين أو ثلاث أخرى؛ تذهب وتجيء بين وعيها وعدمه وهو قائم على علاجها، إلى أن استعادت شيئا من عافيتها، ولم تكد تفيق حتى ظهر لها من خلف قناعه المسخ ليطلب منها الرحيل.

- هيا عليكِ المغادرة الآن.

- ...

لم ترد عليه، ولم تفعل أي شيء سوى النظر إليه بريبة لكن من دون شيء من الخوف، على عكس ما ظن هو، فقد توقع أن يخيفها قناعه ذو القرون ولون عينيه المختلف ورداؤه الأسود إلا أنها كانت تنظر إليه بشيء من اللهفة كأنها كانت تبحث عن شيء ما للتو وجدته، اعتدلت واستجمعت كلَّ لها من قُوَى ومدت يدها إليه تحاول لمس قناعه ففزع منها وابتعد عنها بسرعة وفزع:

- توقفي الآن، هيا عليك النهوض، كُلي ذلك اللحم لتقوي على المغادرة وأسرعي لا أريد رؤيتك عندما أعود.

- ...

فلم تردّ مرة أخرى، فقط تنظر باستغراب ولهفة، فأعاد سؤاله بصوت خشن مخيف:

- هل فهمتِ؟!

- ...

فلم ترد مرة أخرى، وأشارت برأسها تومئ بالإيجاب؛ أي أنها فهمت، وقامت تحمل جسدها فتعثرت من شدة ضعفه ولم تستطع. قرّب الطعام من فراشها كي تأكل، لكنها لم تكن تتوقف عن التحديق به، ويأخذها الفضول بقوة لترى ما خلف قناعه، فعندما اقترب ليضع الطعام أمامها حاولت لمس قناعه مرة أخرى فضربها على يدها بعنف، وقال:

- لقد قلتُ كلي، لا أن تلمسي شيئا.

- ...

خفضت رأسها في أسف ولم ترد، فاستغرب طريقتها في التعبير، ثم فجأة ابتسمت وكشفت عن أحد ذراعيها وأشارت إلى اسمها المطبوع بالوشم على ذراعها، ثم أشارت إلى نفسها كأنها تعرّفه عليها، ثم أشارت إليه وصنعت بملامحها ويدها استفهامًا تسأله عن اسمه؛ ففهم أنها بكماء.

- أنت بكماء؟!

فأومأت برأسها مبتسمة بالإيجاب. ثم عادت تكرر نفس الخطوة السابقة لتعرفه باسمها وتسأله عن اسمه.

- لا يعنيني، هيا أنهي طعامك وارحلي من هنا.

نهرها وابتعد كأنه لا يرغب في شيء سوى أن تغادر مكانه، وتلك كانت رغبته الحقيقية لتبتعد فيعود ليشعر أنه بخير في وحدته التي أصبح يفضلها منذ حادث رحيل غيم، حتى إنه لم يُطق البقاء في الداخل وهي هناك، فبدأت تستسلم لغريزتها وتأكل الطعام لتسد جوعها، كانت تتناوله بشراهة كأنها

تأكل للمرة الأولى في حياتها من شدة جوعها، وعندما انتهت جلست قليلا تنظر حولها في داخل الكوخ فإذا بصحف موضوعة إلى موقد على طاولة صغيرة، وفراش مغطى بفرو الحيوانات الناعم وقوس وسهام وبعض الأوعية.

فقامت إلى الصحف فإذا بصاحبها يعرف القراءة والكتابة، وإلا ماذا تفعل هذه الصحف هنا؟ فاستغربت أنه لم يقرأ اسمها، فذهبت إليه بشغف تحمل الصحف في براءة واندفاع، عندما لاحظها تخرج من الكوخ مندفعة إليه لا تبالي بمظهره المخيف أو قناعه الشيطاني، وتقترب بدأ يتراجع هو للخلف كأنه خائف منها، كانت تبدو رقيقة وبريئة بدرجة جعلته يخاف حتى أن تقترب منه؛ إذ لم يعتد في حياته شيئا كهذا، وكأن المخيف بالنسبة إليه أصبح أن يلتقي بقلب رقيق فيصيب قلبَه باللين ويتخلّى عن قناعه المسخ.

لاحظتْ أنه ينفر منها كلما اقتربت ويتراجع في فزع، فوقفت في مكانها وانثنت على ركبتيها في هدوء كأنها تطمئنه إليها، وعادت تكشف عن اسمها الموشوم على ذراعها وتشير إلى الصحف فصرخ في وجهها:

- أعلم... "ماكو" هذا لا يعنيني.

تهلّل وجهها مباشرة وابتسمت ابتسامة قوية، وراحت تصفق على يديها في إشارة لها لمكافأته على قراءته اسمها وهو لا يزال في ذهوله يستغرب لماذا لا تخاف من شكله؟ وكيف تعبث بصحفه بكل بساطة هكذا ولا تخشاه؟ فانتزع من يدها الصحف:

- هاتي هذه، طفلة ساذجة، غادري الآن هيا.

وأشار بيده إلى خارج الكوخ فانتبهت لترى التماثيل الضخمة تقف كجدار المتاهة لا يشير إلى أي طريق خارج، فوقفت في ذهول وبدا عليها التيه من هول ما رأت فثار غضبه أكثر:

- تبًّا!! هيا سأخرجك من هنا، هيا الآن.

ثم أخذ بيدها يجرها خلفه ليخرجها دون شفقة أو رحمة بجسدها الضعيف من بين التماثيل يتمايل بينها ليقودها إلى الخارج علَّها تخاف وتنفر منه، ولكنها كانت مأخوذة بالصرح الذي تراه للمرة الأولى، وكان هو يقبض على يدها ليبعدها عن المكان الذي لا تُبدي أيّ خوف منه، واستمر سيرهما إلى أن وصلا خارج حدود التماثيل إلى الغابة فترك يدها:

- اِذهبي الآن، اِمضي من هنا.

فوقفت تنظر إليه وهو يعود للمضي بين التماثيل ولا تمضي بعيدا، فقط تنظر إليه باستغراب وشفقة، فالتفت قبل أن تحجب التماثيل الرؤية بينهما فوجدها لا تزال تقف وتنظر إليه.

- تبا.

فخرج غاضبًا يصرخ فيها:

- ماذا؟ ألا تسمعين أيضا؟ قلت ارحلي من هنا.

فنظرت إليه بسوء، ثم استدارت لتمضي في الغابة بمفردها وهو يراقبها ترحل، ثم أتى صوت نفسه: لماذا أنقذ حياتها في بادئ الأمر إذا كان الآن يتركها تمضي في الغابة بمفردها وهي في حالها الصحية السيئة تلك؟ فَلَعَنَ اللحظةَ التي تراجع فيها عن إطلاق السهم عليها للمرة الأولى ويريح رأسه

من حماقته.

راح يتبعها خلسة كي لا تشعر أنه يحرسها، كانت تمشي في غير خوف وفزع على الرغم مِمَّا رأته في الغابة من هجوم الذئب عليها، وأودين يتبعها في عجب لما تفعله؛ إذ كلما رأت باقة زهور وقفت إليها، وكلما صادفها أرنب صغير تبعته تركض، و"أودين" يكاد يستشيط غضبا منها ولا يستطيع حتى أن يصرخ أو يحملها ويلقي بها أمام أسوار المدينة وينتهي من أمرها. واستمر الأمر ساعات عدة؛ هي تتلكأ في الطريق وهو يراقب في غيظ إلى أن اقتربت من حدود الغابة قبل أن تخرج إلى الحقول التي تفصل بينها وبين أسوار المدينة فاستدارت ونظرت للخلف، وارتعد قلبه؛ فقد شعر أنها تراه، ولكن في الحقيقة هي كانت تنظر للغابة التي تشعر فيها بالحرية أكثر من المدينة.

ثم عادت تلتفت لطريقها واقتربت من السور إلى أن وقفت على بعد أمتار من البوابة، حينها التفتت خلفها مرة أخرى وكأنها تخبره أنها كانت تراه طوال الوقت، وظل يراقبها من خلف الأشجار وهي تنظر ناحيته وكأنها تراه بالفعل، ولا شيء سوى ملامحها الصامتة التي تسيطر على وجهها الصغير. وإذ هي على حالها قام قائد الحرس يهبّ من البوابة مسرعًا ناحيتها ويخضع أمامها على قدمه.

- أميرتي، "ماكو".

ارتعد قلبه بفزع ولم يدرك ما يحدث، لم يكن يدري أنه للتو أنقذ حياة ابنة الرجل الذي تسبّب في إلقائه رضيعًا في الغابة. عاد يستجمع قواه وزحف في الحقول إلى أن اقترب من السور ليسترق السمع فوجد الحراس يهللون:

- الآن سيرتاح سيدي سيزوس، حمت الآلهة ابنته، وأعادتها سليمة

للمدينة.

حينها أصبح يفيض بالغضب والغيظ، لا يصدق أنه أنقذ حياة ابنة عدوه، ويفتك به السخط كيف أنهم يحسبون أن الآلهة أنقذتها؟ الآن قد فتح الباب أمام أهل المدينة لكوخه، فإنها لو أرشدتهم إليه لقتلوه وحرقوا جسده، لكن صاحبة الحظ العاثر عادت إلى القصر لتواجه أباها في حالة من سكره، عندما رآها صبّ غضبه عليها، وانهال عليها بالضرب؛ عقابًا على اختفائها في الغابة.

كانت "ماكو" الابنة الكبرى والوحيدة لـ "سيزوس"، وإنها من إحدى جواريه، والأميرة صاحبة الوصاية على الحكم، وسبب خذلان كبير له؛ إذ وُلدت بكماء لا تتحدث، ولكنها تسمع وتتواصل عن طريق الكتابة فقط داخل القصر، ورغم قدرتها على الإشارة فإنه يعد أمرًا ممنوعا عليها للحفاظ على هيبتها كصاحبة وصاية على العرش. وعلى الرغم من كونها ابنته إلا أنه كان يكره عنادها وعصيانها للأوامر بشكل مستمر، ويكره تسللها للغابة بين الحين والآخر.

وبينما ينهال عليها بالضرب في حالة من السكر أتت الخادمات يسرعن ليخلصن الصامتة من يده، فأخذتها إحدى الخادمات وكانت تُدعَى "ليليان" بسرعة إلى غرفتها، وهبّت إليها أمها وكانت تُدعَى "جاميل":

- ماكو، هل أنت بخير يا بنتي؟

فهزت رأسها تجيبها نعم:

- أين كنتِ؟ ماذا حدث لك؟

بحثت حولها ولم تجد ما تكتب عليه فأمرت "جاميل" "ليليان " بإحضار القرطاس التي كانت تكتب فيه للتحدث، فأحضرته "ليليان" إليها بلهفة:

- الآن خذي عزيزتي، أخبريني أين كنتِ؟

فأخذت القرطاس من ليليان والقلم وراحت تكتب:

عزيزتي أمي:

لقد كنتُ في الغابة وضللت الطريق، ثم غفوت أسفل شجرة كبيرة ونسيت أنه عليَّ العودة إلى المنزل.

...

- ماكو، أنت تكذبين.

امتنعت عن الكتابة وعن النظر إليها أو الرد، واستسلمت أمها سريعا فهي تعلم أن ماكو لا تشارك شؤونها أحدًا من العالمين، وأنها لن تخبرها شيئا.

- عليك التوقف عن التسلل إلى الغابة، إنها مليئة بالشياطين، لقد أقمنا العزاء على موتك منذ اليوم الأول؛ إذ لم نصدق أنك ستعودين حية من هناك، لا أحد يعود من الغابة حيًّا إذا تاه فيها "ماكو".

ثم قامت أمها من أمامها لتتركها مع الخادمة "ليليان"، وإذا بصوت أبيها يرتفع من الخارج فيصدر صداه في كل أنحاء القصر.

- لِتَبْقَ في غرفتها، ولتمنعوها من الحراك أو الخروج لأي مكان، هل فهمتم؟

بالنسبة إلى "ماكو" كان هذا مجرد عقاب جديد بالحبس لا أكثر، حتمًا

سينتهي يومًا ما، فقامت إلى نافذة غرفتها، تنظر ناحية الطريق المؤدية إلى الغابة، وتنتظر بلهفة من الآن إلى أن يحين اليوم الذي تعود فيه لذلك الغريب. بينما "أودين" أعد العدة استعدادا لهجوم جديد، فقام يضع القش خلف التماثيل ويصلها بالفتيل وأعاد حفر الخندق، ولكن هذه المرة لم يكن يحاول حماية نفسه فقط، هذه المرة كان ينوي القتال، فبنى فِخاخًا كثيرة للخيول حول التماثيل من الخارج، واستعد بقوسه وسهامه وتربص لجيش "سيزوس" واقفا على أحد الأشجار العالية حول الكوخ يترقب قدومهم. واستمر انتظاره عدة أيام، لكنّ أحدًا لم يأت، مرت ثلاثة أيام ولم يأتِ أحد إلى الغابة فأمن مكرهم، وعرف أن الفتاة لم تَبُح بشيء.

***

٢٣-٩-٢٠١٨ / ٦:٠٠م

- أكنت حقا تنوي القتال في ذلك اليوم.

- آه، كنت أتمنى ذلك من كل قلبي، كنت متعطشا لدماء الجميع بلا استثناء لأي أحد، كنت أنوي قطع رؤوس الجميع ولا أبالي.

- من تظن نفسك؟! هؤلاء قوم محصّنون بجيش وأسلحة، وأنت مسخ بقوس وسهام.

- هؤلاء حمقى أمدوني بجيش أكثر فتكًا من كل عتادهم، لقد كان جيشي جهلهم والرعب في قلوبهم مما يصدقون.

سكتُّ قليلا وأنا أنظر إليه باستغراب، لم أكن أستطيع أن أصدق في داخلي أنه يملك الشر في قلبه فعلا.

- هل أنت شرير حقا يا أودين؟

- نعم... نعم أنا كذلك، هم أرادوا الشيطان وقد أعطيتهم ما طلبوا.

- هل تظن أن "ماكو" هي التي منعتك أم أنها كانت مجرد دمية في يدك.

- "ماكو"... لطالما تحدثت عن ذلك الضوء في داخلي، أردت أن أصدقها حقا، لكن لم يكن هناك مجال للتفكير في الأمر حتى، كنت أعلم أنه ليس هناك من خير فيَّ ولا في أهل مديم أرغون.

- ألم تحرك ذلك الضوء فيك؟

- ظلامي كان أقوى منها، ربما لم أكن يوما كما ظنت هي.

- وربما كانت محقة.

بدا مستاءً، وقال:

- هذا لا يشكل فارقًا الآن.

شعرت باستياء إذ كان على حق:

- نحن نتأخر كثيرًا يا صديقي، ويمل الآخرون من انتظارنا.

- نحن لا نتأخر أبدا بل إن كل شيء بقدر وموعد، نحن فقط نتعجل الأمور، هذا كل شيء، وإلا لماذا لم يَمَلّ منك قاسم ومريان إلى الآن؟

- قاسم... أتظنه يبحث عني الآن؟

- أتخالينه يهدأ قبل أن يعرف مكانك؟

- لا أدري، لطالما كان أخي قاسم الأقرب إليَّ، لكنني كنت قاسية جدا

معه كالآخرين.

– لذا أنت تظنين أن قضاء أمك في فراشها نهاية العالم؟

– إنه نهايتي عالمي، كما كان موت غيم نهاية عالمك.

– لا، هذا تقدير خاطئ للأمور، موت "غيم" كان نهايةً في حياتي وليس نهايتها، صدقيني الحياة ليست بتلك السهولة لتنتهي عندما نفقد أحدهم، إنها جولات، وفقدان الأعزاء مجرد جولة لا أكثر.

– "أودين".

– ماذا الآن؟

– أي منا يتألم أكثر؟

– لا أعرف، لكني أعرف أن الذين يستمرون بالصراخ يكون ألمهم أقل وطأة، لكن ذاك الصامت الذي قتل الحزن فيه حتى الرغبة في الصراخ هو يتألم بشدة.

– كلا جميعنا يتألم بالقدر ذاته، لكننا نتفاوت في التعبير والتنفيس عن غضبنا.

– نعم ربما جميعنا يتألم بالقدر ذاته، لكن ليس جميعنا يحسن التعامل مع ألمه.

***

مضى أكثر من شهر على حادثة الفتاة، ولم تعاود الذهاب للغابة ولم يأتِ أحد إلى كوخ أودين فعاد يهدّئ من روعه، ورجع إلى حياته الطبيعية؛ تدريب

على القتال، واستخدام السيف، وصيد عشوائي للحيوانات بلا هوادة. ولا ملاذ له غير شجرة "غيم" التي يعد عليها الأيام منذ يوم رحلت.

وفي عصر أحد الأيام كان في فراشه يستجدي النوم وهو يرتدي قناعه الذي كان كأنه قد التصق بوجهه من كثرة عدم إبعاده عنه، فشعر بيد أحدهم تمتد إلى وجهه وهو نائم ففزع وبسرعة مد يده إلى أسفل وسادته، فجلب خنجرًا وصوبه ناحية رقبتها وهي تنظر بفزع، وقلبه ينبض بسرعةٍ فاقت تلك التي كان ينبض بها عندما طارده أهل المدينة؛ غريبٌ من العدم في عرينه؟!!

- ماذا؟ كيف؟ أنت، ماذا؟!

رفعت يدها بسلّة صغيرة مليئة بالفاكهة وفيها قرطاس صغير، فهدأ وسحب خنجره عن رقبتها، وراح يهدئ من روعه رغم أنه لا يشعر بالاطمئنان لعودتها، وظن أنها متبوعة بالحرس، فكيف تصل ابنة الحاكم إلى كوخه بهذه السهولة؟ وكيف لم تخف من التماثيل التي أرعبت أهل المدينة كلهم منذ يوم بنتها "غيم"؟ وكيف مرت من كل الفخاخ المنصوبة في الخارج؟ وكيف هي أمامه الآن؟ كل تلك الأسئلة كانت تتخبط برأسه كالمجنون، بينما هي تجلس في صمت وتنظر إليه، فهبّ يتابع الدخول والخروج من الكوخ كالمجنون، وعندما انفضّ من فزعه وأيقن أنها الوحيدة، دخل للكوخ فوجدها تجلس وتنظر إليه، وعندما لاحظت أنه انتبه إليها ابتسمت وأعادت رفع السلة في وجهه:

- كيف دخلتِ إلى هنا؟

أشارت إلى الباب.

شاط غضبه وصرخ فيها بقوة:

- لا أعني كيف دخلتِ الكوخ، أعني كيف وصلتِ إلى هنا؟ كيف عبرتِ التماثيل؟

خفضت رأسها في فزعٍ وهي تخاف من صوته الذي بدا مرعبا، لكن "أودين" لم يكن حينها ضيفًا حسن الخلق فنزعها من يدها، وراح يجذبها إلى خارج الكوخ في غضب، وتابع جرها من يدها إلى خارج حدود التماثيل، واستمر في جذبها من يدها وهي تبكي في صمت إلى أن اقترب من حدود المدينة فطرحها أرضا، ونظر إليها وهي تبكي وغارقة في دموعها التي لم تحرك في قلبه ساكنًا:

- إذا عدتِ إلى هنا فإني سأحرقك حية، أتفهمين ذلك؟!

وتركها واندفع عائدا نحو الكوخ، وتركها خلفه تنزف الدموع في غير رحمة ولا شفقة منه، وإنما كل الرحمة في قلبه في تلك اللحظة هي أنه تركها لتعيش وهذا كل شيء.

وهي قامت وتسلّلت من البوابات في رداء الفلاحين البسيط، وعادت إلى القصر خفيةً دون أن يعلم أحد بخروجها أو دخولها، لكنها كانت محطمة الفؤاد ولا تنوي الرجوع إلى ذلك الكوخ مرة أخرى.

أما "أودين" فعاد إلى الكوخ وهو يلملم ما بقي من غضبه ويهدّئ روعه، فجلس على فراشه ونظر للأرض فإذا بسلة الفتاة المليئة بالتفاح والفاكهة ملقاة على الأرض، ومن بين الفاكهة كان القرطاس الذي كتبت فيه، فَمَدّ يده وفتحه وكان فيه:

...

"الرسالة الأولى":

عزيزي الساحر الطيب،

شكرا..

...

- ماذا؟ الساحر الطيب!! هل هذه الفتاة مجنونة أم أنها دمية يحاولون استدراجي بها؟!

لم يفهم " أودين " سبب نعت "ماكو" له بالساحر الطيب، لكنه كان على دراية بأنه ليس عليه أن يستسلم لسحر تلك الطفلة، لم يفهم حتى معنى أن تأتيه لتشكره على إنقاذ حياتها، فقد كان سيئ الخبرة بالتعامل مع الأشخاص الطيبين.

في القصر كانت "ماكو" قد عادت مسرعة قبل أن يأتي الصباح حاملاً موعد درس الفنون، وكان عليها بعد أن تنهي الدرس أن تستعد لطقوس المعبد التي تضطر لإجرائها كل أسبوع ليبعدوا عنها الأرواح الشريرة التي تمنعها من الكلام على حد اعتقادهم. كان ذلك هو اليوم الأسوأ من بين جميع أيام الأسبوع؛ إذ كان عليها أن تقف بلا حذاء في بهو المعبد حاملة جَرّة مليئة بقطع الذهب لما يقرب من ساعة تستمع فيها إلى ترهات الكهنة وهم يدعون التلاوة من أناشيد الآلهة، وبعد انتهائهم من الطقوس تقوم برفع السلة المليئة بالقطع النقدية الذهبية وتلقيها على رأسها، لتتناثر على الأرض حول جسدها فيتمكن الكهنة من جمعها بعد ذلك عندما نتصرف هي وأمها والخادمات.

مر بعد ذلك الوقت عدة شهور ولم تعد "ماكو" إلى الغابة منذ أن طردها "أودين" من كوخه، ثم أتى يوم كان "أودين" يصطاد في الغابة بمفرده وينتظر بسهمه متربصًا لغزالة تلهو في العشب بحذر شديد كأنه يحاول أن يتحرك على الريح فلا تشعر الغزالة بحركته وتفر هاربةً، وبينما يفعل ذلك إذا بالغزالة ترفع رأسها منتبهة لأحدهم قادمًا ويركض في اتجاهها بشدة فخافت وهربت مسرعًة.

غضب "أودين" ونظر ناحية الذي أخاف الغزالة؛ فإذا بالفتاة ذاتها تنظر ناحيته بغضب فأصابه الجمود؛ كيف أنها تعود كلما تخلّص منها؟ ثم أخرجت حقيبتها وألقتها على الأرض، وأخرجت قرطاسها وقلمها وكتبت:

عزيزي الساحر الطيب،

لا يمكنك اصطياد هذه الغزالة؛ لأن أطفالها لا يزالون صغارًا، للتوّ وضعتهم.

- أنتِ كيف عرفتِ ذلك؟

...

عزيزي الساحر الطيب،

لقد كنتُ أراقبها من قبلك، ورأيتها مع الصغار.

...

- تبًّا لك، هذا لا يعنيني، سأصطاد تلك الغزالة.

ثم حمل قوسه ورمحه وذهب في إثر الغزالة، فحملت حقيبتها وقرطاسها

وتوقفت أمامه لتوقف سيره، ثم عادت تجلس لتستند على ركبتيها وتعاود الكتابة.

...

عزيزي الساحر الطيب،

أرجوك أن تصطاد غزالة أخرى.

...

- اُغربي عن وجهي!!

رفض حديثها وراح يمشي باحثًا عن الغزالة وهي تمشي خلفه علَّها توقفه لو أراد قتلها، وهو لا يستطيع التخلص منها إلى أن اقترب السير ولمح الغزالة ترعَى من بعيد فالتفت إليها في غضب وقال مهددًا:

- لو أنك أخفتها هذه المرة سأقسمك إلى نصفين.

ثم عاد يركز على الأرض ويصوب بسهمه استعداد للإطلاق عليها وصوّب على الغزال لكن حدث ما لم يكن أبدًا في حسبانه؛ توقع أنها ولو بلغت قمة حماقتها فإنها ستحاول إخافة الغزالة مرة أخرى، لكن ما حدث أنها وقفت أمام سهمه تحمي الغزالة بجسدها.

كان ما فعلته صادما إلى حد أنه أجزم أنها مجنونة بحق، وكان مغريًا بما يكفي بالنسبة إليه لتحقيق انتقام لا بأس به من "سيزوس"، فوجّه سهمه نحوها ونسي أمر الغزالة، ونظر لعَينيها فرأى فيهما قوة أخافته، لم تكن ترتجف أو حتى تهتز، كانت ثابتة كأنها تملك قوة لم يدركها يومًا في حياته، كان كل ما

رآه في عينيها كثيرًا جدا بالنسبة لطفلة للتو تجاوزت السادسة.

أحاد السهم عنها، وأطلق ناحية شعرها المنسدل، فاخترق السهم شعرها بجوار أذنها إلى الأرض من بعد شعرها، ولكنها بقيت ثابتة لم تحرك ساكنا أو تهتز حتى، فقط تنظر لعينيه بثبات تام، لا حراك فيها سوى تلك الشعرات التي قُصفت بفعل مرور السهم خلالها وهي تنزل على كتفها ببطء.

ومن أمامها صاحبُ العزيمة الأضعف الذي ارتجف قلبه من شدة ثباتها، وأحس في تلك اللحظة أنه يواجه وللمرة الأولى من هو أقوى منه، مَن لا يخشاه رغم قناعه المخيف وردائه الأسود ولون عينيه المختلف.

ظل ثابتا في مكانه لا يحرك ساكنًا سوى النظر إليها في ذهول، ولكنها تحركت ناحيته كأنها تسمع نبض قلبه من بعيد، واقتربت أكثر فأكثر، وراحت تمد يدها للقناع في ثبات تام منه وهي تطمئنه بنظرتها البريئة، وتقترب بيدها من قناعه إلى أن لمسته، ولكن بمجرد شعوره بيدها تلمس قناعه، ضرب يدها بقوة ونزعها عنه، ثم قام من على ركبتيه حاملا قوسه وسهامه وغادر المكان مسرعا يقذف جسده بين الأشجار، تاركا إياها تنظر إليه وهو يبتعد بسرعة كأنه يحاول في الحقيقة الهرب منها إلى أن اختفى بين الأشجار، فعاودت النظر إلى الغزالة فإذا هي ترعى في هدوء دون خطر صياد قريب، فعادت تحمل حقيبتها وقرطاسها وتتسلل إلى الأسوار مرة أخرى لتعبر خلال ثغرة السور التي تعرفها.

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ٧:٠٠ م

- حل الظلام.

- كيف شعرت عندما اقتربت "ماكو" في يوم صيد الغزالة؟

- لم يكن المهم أنها حاولت الاقتراب. بالنسبة إلى كلانا كان متشابهًا كثيرًا، كانت يائسة ليس أكثر، ربما تمنّت لو أني أطلقت عليها السهم حقا.

- هل كنت لتطلق؟

- أخبرتك سابقًا لم أكن لأفوت فرصة لقتلها.

- لماذا إذًا عالجتها من عضة الذئب؟

- كان الصواب في ذلك الوقت لو أني أطلقت السهم عليها عندما رأيتها للمرة الأولى تجمع الزهور، لما تمكّنت من رؤيتها عدة مرات في الغابة... ربما اعتدت رؤيتها ترعى في الغابة، حتى عندما أطلقت السهم على الذئب الذي هاجمها كان ذلك فعلا تلقائيا دون تفكير، ولكن بالتفكير في الأمر فيما بعد ذلك فإن تركها لتكون فريسة له في ذلك اليوم كان الحل الأمثل.

- أنت مسخ قاسي القلب.

- و أنت تتجمدين الآن، ولا يبدو لكِ من خلاص سوى اعتقاد أحمق بأن أحدهم سيأتي لإنقاذك.

- هل كنت أحمق يوم ما؟ هل انتظرت فعلا أن يأتي أحد لنجدتك؟

- ....

- أودين!!

- ماذا؟

– أكره صمتك، رُدّ عليَّ، هل كنت تنتظر "ماكو"؟

– تبًّا! حتى لو كنت أفعل فأنا لم أُرِد طفلة صغيرة تلهو بقربي، لم تكن تملك لنجدتي شيئا.

– لكنها فعلت يا صديقي.

– لا أدري، لكن أظن أنني لم أكن أستحق أن تعيد هذه الفتاة الضوء إليَّ، كان كل شيء بخير من دونها.

– ربما لم يكن أي شيء على ما يرام، ربما لم يكن أي شيء بخير.

***

مرت الأيام والفصول بعضها يتلو الآخر، وصاحبة اللسان الصامت أصبحت دون الثانية عشرة، ولا تكف عن زيارتها المتخفية إلى الغابة إلى أن أتى اليوم الموعود؛ فبعد عودتها للقصر خفية في أحد الأيام اصطدمت بـليليان التي كانت تبحث عنها في الرواق:

– "ماكو"، ها أنت ذا، الحاكم يبحث عنك بنفسه في كل أرجاء القصر، لولا أنه اضطر للذهاب فجأة لعَقْد اجتماع مجلس الأمراء لكانت الأمور لتسوء أكثر.

أشارت "ماكو" بيدها لتسأل عن أمها فأجابتها "ليليان":

– السيدة "جاميل"، ليست هنا هي الأخرى، كان على الجميع الذهاب يبدو أن الأمور تسوء في العاصمة والمملكة على وشك الدخول في الحرب.

خفق قلب "ماكو" ودخلت غرفتها، فإنّ كل ما درسته عن الحروب

وعلّمها إياه معلموها ليس بعيدا أبدًا عن لون الدماء الذي تكرهه وبشدة، إضافة إلى ذلك كونها الفتاة الأضعف في دروس القتال، ولا تزال تعجز عن حمل السيف أو استخدام القوس، فقد كانت تجيد التلاعب بالألوان وأقمشة الرسم عوضًا عن ذلك، لكن في ذلك الوقت كان التلاعب بالألوان هو آخر ما تحتاجه المدينة.

في خضم ثورة من الفزع الممزوج بالغضب قامت إلى ما تراه نقطة ضعفها وملجأها، كانت ترى أنّ في سكب الألوان على الورق شيئا يريح في نفسها الكثير كأنها تتحرر من سجن الصمت إلى التعبير، فعكفت على ذلك، وبينما هي على حالها حاولت ليليان تحذيرها من غضب أبيها سيزوس.

- أميرتي، أتوقع عودة الحاكم "سيزوس" ليحدثك في أمر هام، ولا أظن أنه سيكون سعيدًا لو رأى أنك ترسمين الآن.

في بلاهة وغير تقدير لحديث "ليليان" استمرت "ماكو" بالرسم في هدوء وثبات، وقد حدث صدق حديث " ليليان"؛ اقتحم "سيزوس" غرفة ابنته بعنف، فقامت جاريتها ليليان تعتدل وتنحني أمامه.

- غادري الآن.

- أمرك سيدي.

ثم غادرت ليليان الغرفة وخرجت فقامت "ماكو" وانحنت أمام أبيها تحية كما تعلمت في آداب تحية الحاكم.

- الحرب على وشكها، والملكة تستدعي المقاتلين من كل المدن، وأنا سأضطر للرحيل على رأس حملتي للعاصمة، وأنت ماذا تفعلين؟! ترسمين؟!

ثم بغضب أخرج سيفه، ومزق لوحتها إلى قسمين، وقد شاهدته يفعل ذلك في هدوء وثبات منها وعدم تعليق على ما فعله.

- سأترك هذه المدينة بأسوارها في يدك، وأنت ترسمين. في خارج هذا القصر هناك الرعاع الذين يتوجب عليك كأميرة هذه المدينة أن تؤمني لهم الطعام والمأمن إلى حين عودتي مع الحملة. وأنت ماذا تفعلين؟! تستمرين في التسلل إلى غابة الشياطين... اليوم أغادر على رأس الحملة، وأترك الأمر كله في يدك، اُنظري إلى الآن وأنا أخبرك أنه من الممكن ألا أعود أبدًا، ومن الممكن أن تصبحي أنت حاكمة هذا الإقليم وتلك المدينة، ودعيني أخبرك أن الأمر يتطلب أكثر من حاكمة تتحدث عبر قراطيس وأقلام، وترسم وتتسلل خفية للغابة.

ثم نادى بغضب على الخادمة بصوت اهتزّ له القصر كله:

- ليليان.

دخلت ليليان مسرعة إلى الداخل وكأنها تتفادَى قطع رأسها:

- أمرك سيدي "سيزوس".

- الليلة سيقام حفل ترك الولاية في يد الأميرة "ماكو" قبل أن نبدأ السير مع الرجال إلى العاصمة... أعديها الآن.

ثم خرج من غرفتها مسرعًا تاركًا إياها مع الخادمة، فقامت "ليليان" تعيد الأشياء إلى أماكنها بعد الفوضى التي أحدثها "سيزوس" في الغرفة، وعندما وصلت إلى لوحة الرسم الممزقة أشارت إليها "ماكو" ومنعتها من حملها إلى مكان آخر، ثم أتت بقيثارة تعزف عليها، وجلست أمام اللوحة الممزقة

تعزف بهدوء وكأنها تنفض عن روحها كل الذي خلّفه أبوها قبل خروجه من غرفتها، وتركت "ليليان" تتابع عملها في هدوء.

إن معرفة "سيزوس" بابنته "ماكو" تجعله يعرف أنها ستكون ندًا للأمور إذا ما احتدم الوضع، كان يدرك أن لديها قوة تضاهي أقوى الرجال لو أنها احتاجت إليها، والآن يضع كل رهانه على قوتها تلك.

في الغابة كان مَن لا يحسب للعالم حدودًا سوى كوخه وشجرة مربيته والمدينة، يجلس بجوار كوخه يشوي أرنبا بريًا للعشاء، ويعيد استخدام الأشياء التي لا ينفك يجمعها من الغابة إلى أن فوجئ بشيء جديد وهي نبتة لها زهرة ذات لون أزرق برّاق تضيء في الظلام، فعكف يصنع الألوان منها، ويرسم الرسوم والمخططات على جدار كوخه من الداخل، فكلما أطفأ ناقوسه أضاء الكوخ من الداخل باللون الأزق البراق، فكانت كما اعتادت أن تخبره "غيم" أن العلوم هي أضواء في الظلام.

كتب كل العلوم التي عرفها من غيم بخطوط صغيرة على جدار الكوخ من الداخل وهو يجلس في الظلام، وكلما أضاف المزيد من الكتابات أضاء الكوخ باللون الأزرق البراق أكثر فأكثر، بينما كانت تلك صاحبة الشأن في القصر تستعد لتعتلي عرش الحاكم وتتولَّى رمحه إلى حين عودته.

في مراسم ضخمة أُعِدّ احتفالٌ بخروج الجيش للقتال، وتنصيب الأميرة ماكو على العرش إلى حين عودة الملك، التفّ الكهنة يغنون أناشيد الآلهة؛ علَّها تحرس المقاتلين وتزيدهم قوة، وتعطي الأميرة "ماكو" القوة لإدارة المدينة لحين عودة الحاكم سيزوس، فالتف أحد الكهنة يغني الأناشيد حولها ومن ثم يلقي الماء المقدس - من المعبد على حد اعتقادهم - حول الأميرة

الصغيرة ليُبعد عنها الأرواح الشريرة والسحرة، ويمدها بالقوة اللازمة للحكم، ومن ثم قام سيزوس بتسليمها رمح الحاكم، وتم إعلانها الأميرة الفعلية للمدينة لحين عودة الحاكم، وانتظر الجميع أن تنطق الأميرة شيئا محفزًا على ذلك لكنها لم تفعل. فقط رفعت الرمح في يدها في الهواء ففهم الحضور أنها تُحفّزهم وانطلقوا مهلّلين.

خرج "سيزوس" ووزراؤه على رأس الحملة متجهين للعاصمة، لكن كان من بين وزرائه من يعترض على ترك زمام الأمور في يد ابنته البكماء، واقترب أحد المعارضين بحصانه إلى حصان سيزوس أثناء السير:

– كيف تظن أنها ستواجه الناس في غيابك؟

– ستفعل.

– كيف؟! من خلال قلم وقرطاس؟ ستكون فريسة سهلة لأي متسلل إلى الحكم.

نظر سيزوس إلى الوزير بنظرة مفادها الشر وقال:

– لهذا أتيت بكم جميعًا على رأس الحملة أيها الحمقى، فإن كنتم جميعًا بين صفوف الجيش فمن في المدينة ينقلب عليَّ؟

ضحك الوزير ساخرًا من حديث سيزوس:

– آه، الكثير يا صديقي، ربما الشياطين يفعلون ويأخذون المدينة.

– عندها أعود بكم وأستخدمكم دروعَ حماية في مقدمة الجيش، وألقي رؤوسكم طعما للشياطين، وبينما ينهمكون بكم أقضي أنا عليهم من الخلف.

- أووه، أنت مخلص جدا لوزرائك يا صديقي "سيزوس".

عندها وجّه سيزوس نظره بحدة للوزير وقال:

- أخلِص للعرش الذي أجلسُ عليه فقط.

- ماذا لو انقلبتْ ابنتُك عليك وسلمت العرش لأحد الرعاع؟ إن الأميرة الصغيرة طيبة القلب جدًا، وربما تفضل سياسة تكون أقل دموية من سياسة أبيها، أو ربما يقتلها أحد بكل سهولة لعلم الناس بمدي ضعفها، ويستولي على العرش.

- عندها أعلق رأس كليهما على بوابات المدينة؛ ابنتي ومن يسرق عرشي، هل يبدو هذا واضحًا بما يكفي أيها الوزير "لاو"؟

نظر إليه وزيره بابتسامة تفتقر إلى السماحة وعاد إلى الخلف ينظم صفوف الجيش.

- هيا أيها الحمقى، لدينا حرب لنخوضها، لا تجعلوا خوفكم من غابة الشياطين يبطئ حركتكم... هيا!!

إن غابة لا تسير فيها الجيوش بالخيول تجعل صوت الخيول فيها واضحًا على بعد أميال من خلال فزع الحيوانات في الليل وركضها بعيدًا.

أحس "أودين " بحركة الفزع للحيوانات؛ فتوقف عن الكتابة، وخرج في قناعه وقوسه يتحسس الأجواء والمسير، ويتنقل بين الأشجار إلى أن بلغ قمة شجرة كبيرة، فإذا به يرى سيزوس يخترق الغابة بجيوشه متخذًا طريقًا بعيدًا عن كوخه.

كانت تلك لحظة الصراع في نفس أودين، فلا بد أنه يرى سيزوس الذي حفلت نغم بأقاويل الشر في حقه، إنه سيزوس الذي كان سببا مباشرا في ذلك الظلام في حياته. ظن أنه ربما يحاول الهجوم عليه وأن الفتاة ربما وشت به، لكنه عاد يفكر: لو أنها فعلت لَمِ يسلكون طريقًا بعيدًا عن التماثيل؟ فظل يتبعهم متنقلا عبر قمم الأشجارَ إلى أن اقتربوا من الجانب الآخر للغابة، فعرف أن كوخه ليس وجهتهم.

للحظة فكر في الاقتراب بما يكفي من حصان "سيزوس" وإطلاق السهم على رقبته، ولكن سرعان ما أدرك أنه لن يكون التصرف الأكثر حكمة وهو في هذا الجمع الضخم من جنوده فاكتفى بالمراقبة من مكانه على شجرة بعيدة، ولم يكن وحده يراقب، كانت الحاكمة الجديدة تراقب من نافذتها أيضًا جيش أبيها وهو يغادر المدينة ليترك على عاتقها تلك المسؤولية الكبيرة.

لكن من الظلام كان كبير الحرس في القصر وأمها "جاميل" يراقبان الوضع عن كثب أكثر مما تخيلت "ماكو"، وبينما هي واقفة في شرفتها أتت أمها لتبدأ نسج خيوط لعبتها الخاصة، فوضعت يدها على كتف ابنتها وراحت تستميلها بالحديث:

- عزيزتي "ماكو"، لقد رحل أبوك وهو يتوقع منك أن تُحكمي السيطرة على المدينة في هذا الوقت العصيب الذي تمر به البلاد.

استدارت لتنظر إلى أمها وهي تحدثها، لكنها لم تعرها أيَّ اهتمام، بل تحدثت بالإشارة إلى ليليان أن تحضر لها القرطاس والقلم، فجلبت ليليان القرطاس والقلم، وكتبت "ماكو":

عزيزتي ليليان،

أخبري أمي أني لن أخيّب ظن الحاكم بي، وأخرجي اللوحة الممزقة من الغرفة، وأحضري لي الرمح والقوس والسهام، وأخبري كبير الحرس أن يعد دروس القتال في اليوم التالي، وأطفئي الأضواء، من الجيد أن نخلد للنوم مبكرًا. شكرا عزيزتي ليليان.

ثم قدمت القرطاس إلى ليليان الذي قرأته على الملكة، وبدأت بتنفيذ الأوامر فيه بهدوء. فسمعت أمها الحديث لكنه لم يُثِر في نفسها سوى السخرية، ثم همّت مغادرة إلى غرفتها، بينما بدّلت "ماكو" ثيابها، وخلدت إلى النوم.

ذهب الجميع إلى مضاجعهم لـيناموا إلا "ماكو"؛ عِلْمها بأن كل مَن في المدينة يدركون مدى هشاشتها وضعفها سيجعلها عُرضة للشر في الأيام المقبلة. نام كل من في القصر إلا هي قامت تنظر عبر النافذة ناحية الغابة تفكر: هل تجد ملاذًا وسندًا من ساحر مسخ منبوذ من العالمين؟

قررت في تلك اللحظة أن تذهب للكاهن لتعلم من هو ساحر الغابة. قامت إلى شمعة بجوار فراشها وإلى قرطاسها وكتبت رسالتين: الأولى إلى "ليليان" وجاء فيها:

عزيزتي "ليليان"،

سنذهب إلى المعبد الآن، اذهبي وأيقظي كبير الكهنة "زاكوم" وأحضريه إليَّ على الفور.

والثانية جاء فيها:

عزيزي الكاهن الأعظم،

مَن هو ساحر الغابة؟ من فضلك قُصّ القصة كاملة عليَّ، وقم بتوضيح الرسوم عنه كاملة.

ثم حملت الشمعة والقرطاسين وذهبت إلى مضجع "ليليان"، ووقفت بجوارها في صمت وهي تحمل الشمعة دون أي حراك وهي تعلم أن "ليليان" ستعرف بوجودها، وصدق حدثها إذ فتحت "ليليان" عينيها فجأة لتجد أميرتها أمامها تحمل شمعة في وقت متأخر من الليل، ففزعت من فراشها على الفور، وقامت وهي ترتدي ثياب النوم لتخضع أمام "ماكو" التي مدت إليها القرطاس الخاص بها، فقرأته " ليليان " بعناية ثم قالت:

- أمرك سيدتي.

بدّلت ملابسها ثم خرجت "ليليان" لتأتي بكبير الكهنة من فورها، وعندما قصدت منزله استغرب الحرس قدومها في هذا الوقت من الليل:

- إن عليه القدوم إلى القصر فورًا؛ الأميرة تستدعيه.

دخل حارس الكاهن فأيقظه وأخبره بما يحدث، وبعد قليل خرج زاكوم غاضبًا من المعبد ليصبّ غضبه على الجميع:

- لقد رحل "سيزوس" وتركنا لتلهو بنا طفلة بكماء في منتصف الليل، لن يمرّ هذا على خير، على تلك الطفلة أن تعلم حدودها، كيف لها أن تجرؤ على إزعاج الكهنة في مثل هذا الوقت؟ إن هذا لعبث عظيم.

في بهو القصر كانت "ماكو" تنتظر مجيء "ليليان" هي والكاهن الأعظم للمعابد الذي وصل لتوه وكان يبدو غاضبا للغاية، دخل عليها وهي في كامل زيها الملكي وتمسك برمح الحاكم في يدها وتجلس على كرسي الحاكم.

- كونك الوصية على العرش لا يعطيك الحق لإزعاج كبير الكهنة في هذا الليـ....

قطع صوتَه نهوضُها عن الكرسي، ثم دقّت على الأرض دقة قوية بالرمح فدق صداها في القصر كله، وبثبات وهدوء قدمت القرطاس الخاص بـــــــ"زاكوم" لـــــــــ لليان فقرأته على الكاهن وهي تنظر إليها وتتلجلج في الحديث:

عزيزي الكاهن الأعظم،

من هو ساحر الغابة؟ من فضلك قص القصة كاملة عليَّ، وقم بتوضيح الرسوم.

بعد أن أنهت ليليان قراءة الأمر قامت ماكو لتذهب للمعبد حيث الرسوم، ثم سارت أمامه وتبعها هو و"ليليان" إلى أن وصلا المعبد، وراح "زاكوم" يوقظ الحراس ويضيء مشاعل المعبد في الليلة الأولى من حكم الأميرة "ماكو" وسط سخط وغضب من كل أهل المعبد.

وجاء في قصته الآتي:

قديما قبل أن نأتي لهذه المدينة كان يسكنها السحرة، وقاموا بأعمال شريرة من قتل ونهب، فقام أسلافنا بطردهم ونفيهم عن المدينة، لكن حدث أنه جاء عصر حاكم شجاع كانت له زوجة جميلة جدًا كانت تُدعَى "حور"، وكان في المدينة ساحرة متخفية تحت اسم طبيبة، كانت تعيش في قصر فارهٍ في مديم أرغون.

عندما حملت زوجة الحاكم في مولودها الأول تم استدعاء الطبيبة

الساحرة، وكانت تُدعَى "غيم" لترعاها أثناء فترة حملها، فظلت تقدم لها عقاقير السحر والشر، وتسببت في مرضها طوال فترة حملها، إلى أن لعنت الجنين وحوّلته إلى ساحر وهو في بطن أمه، وعندما حان موعد الوضع خرج الحاكم لصيد غزلان من أجل طقوس الاحتفال بالمولود الجديد، ولكن أثناء رحلة الصيد تلك هاجمته الذئاب وأصابته إصابة خطيرة في عنقه، وماتت الأم "حور" وهي تضع الساحر، وكانت الساحرة "غيم" نفسها هي التي كانت تساعدها في وضعها.

وبعد قليل من موت الملكة أتى الرجال بـالحاكم إلى القصر وهو مصاب بجرح شديد في العنق، فأتت الساحرة بحجة أنها تحاول إنقاذ حياته وأجهزت عليه، وأصاب المدينة حينها إعصار قوي وسيول من الأمطار تسبّبت في هلاك معظم الحصاد وتضررت الكثير من بيوت المدينة.

و بعد سبعة أيام من الولادة اكتشفنا الفاجعة؛ وكانت اللعنة الشيطانية الموجودة في القصر الملكي، كان الطفل بعينين مختلفتين في اللون، إحداهما زرقاء والأخرى سوداء.

تهلَّل حينها وجه "ماكو" التي لم ترَ في شيطانيتهم المزعومة سوى جمال فريد من نوعه. استغرب زاكوم رد فعلها وتوقف عن الحديث، لكنها أشارت إليه بيدها ليكمل حديثه:

- كان على القائد الحكيم عالية أن يتخذ قرار حاسماً بشأن المولود والساحرة؛ فأمر بحرق الساحرة، ولكنها انتحرت وقامت بحرق بيتها والموت فيه، ولم يبق سوى المولود الصغير، قرر الحاكم - لأنه وبسبب قلبه الطيب لم يستطع قتل مولود في المهد حتى لو كان ساحرًا - أن يقيم طقوس

طرد إلى الغابة فقط، وخرج إلى الغابة بشجاعة وقام باصطياد ذئب ضخم ليصب دمه على جسد المولود ويتركه في الغابة.

لكن وبعد مدة قصيرة التقطه السحرة وأقاموا كوخًا شريرًا في الغابة، وثبّتوا شياطين محجّرة لحراسة ذلك الكوخ؛ حيث يعيش ذلك الساحر، ولو اقترب أحد من تلك المنطقة فإن الشياطين تستيقظ وتقتله، ولكن قبل عدة أعوام من الآن حدث أمر خطير؛ وهو هجوم ذلك الولد على المدينة بعد أن اقتحم أسوارها.

جاء هذا الصغير وقد أصبح فتيًّا يركض وينشر الفزع في أرجاء المدينة فخرج الحاكم "سيزوس" بكل بسالة ليقتله، ولكن بمجرد الاقتراب من الكوخ استيقظت التماثيل وأشعلت كل شيء، أشعلت الغابة، وكان من الحكمة أن يعود القائد "سيزوس" وإلا لكان فقد كلّ جيشه سُدًى، فقوته لم تكن لتكفي لحمايته.

ثم عاد ينظر لماكو بسخط وسخرية وتابع:

- لذلك يُمنع الأطفال من الذهاب إلى الغابة يا أميرتي، ولا يخرج إليها سوى أقوى الرجال بغرض الصيد فقط، ويصطادون في مناطق بعيدة عن ذلك الكوخ، نحن نقلق ونصلي في المعبد من أجل الفلاحين الذين يعملون في الأراضي المحيطة بسور المدينة من الخارج، ونحصنهم بالماء المقدس جيدًا كي تحميهم الآلهة، ونقوم بالطقـ...

رفعت "ماكو" يدها لتقطع حديث الكاهن في غير اكتراث لحديثه عن اهتمامه بالرعية البسطاء، فقد كانت تعلم أن اهتمامه الحقيقي ينصبّ على ما يدفعونه في مقابل شعوذته، ثم نظرت إليه وهي تأذن له بالرحيل فلم يفهم،

فتقدمت "ليليان" إليه:

- سيدي الكاهن الأعظم، الأميرة تأذن لك بالرحيل سيدي.

فانفضّ عنها وتركها تمعن النظر فيما تراه من رسومات على جدار المعبد، تفكر في القصة كما صورها الكاهن، وتتساءل: كيف يكون الساحر طيبًا؟ وكيف ينقذ حياتها من الموت مرة؟ ويرفض قتلها مرة أخرى؟ وإن كان مكتوبًا على الجدران أنه لا يأكل ولا يشرب فكيف أعد لها الطعام؟ وما حاجته لصيد الغزلان والأرانب؟

ثم اقتربت من الجدار أكثر وأكثر؛ حيث كانت صورة لامرأة تضع طفلا مكتوب بجوارها اسم لا تستطيع رؤيته بوضوح، فأخذت المشعل من يد "ليليان" وقرّبته إلى الاسم ثم قرأت: "أودين".

شيء ما في نفسها كان دائما يخبرها أن ساحر مديم أرغون هو الخلاص من شرور كهنتها، فقد كانت ترى فيهم الشر وفي أعمالهم الشعوذة.

ذاك الذي كان يظن أن الحياة ستمضي وهو يتجبر ويعيث فيها فسادا هنا وهناك كان على وشك أن يصطدم بنيزك قادم إليه من حيث لم يحتسب.

عندما عادت "ماكو" و"ليليان" إلى القصر كان في استقبالها كل من فيه بما فيهم رئيس الحرس وأمها "جاميل".

- كيف تتجرئين على إيقاظ رئيس الكهنة في هذا الوقت من الليل؟

لم تردّ وتجاوزتها وتجاوزت رئيس الحرس وكل الحضور، ثم استدارت للجميع، ودقت بالرمح على الأرض، وأشارت إليهم ليعود الكل إلى مضجعه. ثم دخلت إلى غرفتها، وكتبت الرسالة الأولى لـصاحب القناع

الأسود.

عزيزي أودين،

مرحبا، كيف هي الأحوال عندك؟ يا صديقي، إن هذه الدنيا أقصر من هدرها في التفكير إن كنت شيطانا أم ملاكا، لا يعنيني في الحالتين. المهم أنك رغم سوئك أحسنت إليَّ، والأكثر أهمية هو أني لا أستطيع رؤية السوء فيك كما أراه في السيئين عادة حتى قبل أن يتحدثوا، اعتدت أن تحدثني قلوب الناس قبل ألسنتهم، وأشعر بهم بشدة كما لو أني أرى ملامحهم.

يا صديقي، إن كنت ساحرا سيئا، فدعني أخبرك أنك أقلهم سوءًا. لا أدري ما السبب، لكن بطريقة أو بأخرى أشعر أننا متصلان، لسببٍ ما أشعر أني أرى ما بداخلك وأنت ترى ما بداخلي.

وثمة سبب ما يجعلني أطلب منك - دون العالمين - أن تساعدني على تجاوز هذه الطريق، فإني أصبحت أرى فيك وطنا، شعرت فيه للمرة الأولى بأني عدت للمنزل، وولّت عني غربتي رغم سوء معاملتك، لكني هنا الآن أطلب منك العون؛ لأنك الوحيد القادر عليه.

ثم قامت بوضع إحدى شرائط شعرها باللون الوردي، ولفّت بها القرطاس كاللفافة استعدادا لتقديمها لـ " أودين" في أقرب فرصة تسمح بذلك.

نحن أحيانا نغامر بكل شيء ونتوقع أن الأمور ستسير على ما يرام، ثم يحدث ما لا نتوقعه وهو أن هول الأمور يحتاج إلى ترتيب مسبق.

في صباح اليوم التالي لمغادرة أبيها خرجت "ماكو" إلى الرعية الذين كانوا

يدركون أنهم على وشك مواجهة مجاعة في أوج الحرب مع انقطاع الإمدادات والتجارة بين المدن وبعضها البعض.

كانت تركب العربة وتسير بين الرعية، ولكن لم يكن أحد مهتمًّا في الحقيقة بمرورها، فالكل كان يوقن في داخله أنها مجرد طفلة صغيرة لن تحسن التصرف، وفوق كل هذا هي لا تنطق بكلمة واحدة، ولا أحد يتحدث لكنها تسمع أصوات الجميع في عيونهم، فعادت إلى القصر واستدعت قائد الحرس، "أكتيفوس"، وكتبت إليه قرطاسًا لتقرأه عليه "ليليان"، جاء فيه:

عزيزي السيد أكتيفوس،

لقد تفقدتُ أحوال الرعية اليوم، ولا يبدو أن أحدا مستبشر بوصايتي على العرش، فما رأيك أنت؟

قرأت "ليليان" الحديث على "أكتيفوس" فرد عليها:

- عذرا أميرتي، ربما كانت تقتضي حكمة القائد "سيزوس" أن يترك في وصاية العرش شخصًا... أعني شخصًا...

تلجلج في حديثه، فأشارت إليه برأسها لتأذن له بـأن يكمل ما بدأه.

- أنا أعني شخصًا أكثر دراية بأمور المدينة.

فأشارت حينها لـليليان لتعطيها القرطاس والقلم وعادت تكتب:

عزيزي القائد "أكتيفوس"،

تقول إن المدينة تحتاج إلى شخص أكثر دراية بأحوال الناس فيها، ما الذي يجعلك تصدق أنك أكثر دراية مني بهذا؟

قرأت "ليليان" على القائد:

- ما الذي تعنينه أميرتي؟

عزيزي القائد "أكتيفوس"،

حري بنا أن نعمل سويًا لنحافظ على هذه المدينة إلى حين عودة أبي من الحرب، وإن كنا سنفعل ذلك فلن أسمح لأحد بالتلاعب من خلفي، لا أريدك أن تظن يا قائد الحرس أني سأكون لقمة سائغة لأحد، ولا أريدك أن تظن أن تقربك لأمي سيمكنك من عرش أبي.

قرأت ليليان، فقال:

- لكن ما الذ...

أوقفته عن الحديث بإشارة يدها أولا، ثم أشارت له بالانصراف ثانيا.

كان قرب "ماكو" للناس أكثر مما ظنها عليه "أكتيفوس"؛ إذ لم يتخيل أنها كانت تتحسس الأسواق في لباس الفلاحين البسطاء، ولطالما سمعت حديث رجاله في الناس عن ضعف ولية العهد وعن أنها لا تصلح للحكم بعد أبيها. الآن وقد خرج "سيزوس" للحرب هي تعلم أن الفرصة هي الأكثر ملائمة لأمثال "أكتيفوس" لخيانة قائده.

على الرغم من كونها من أولئك الضائقين ذرعًا بحكم سيزوس الدموي إلا أنها لم تكن ترى أن حكم قائد حرسه سيكون أفضل حالا. وكانت الضربة الأولى لها هي إيقاظ قائد الحرس من غفلته ليعلم أنها ليست طفلة ساذجة، ورغم علمها أن هذا لم يكن كافيًا لإيقافه إلا أنه على أقل تقدير في عقلها سيعطل مسيرته قليلا، فقد ذهب إلى مَن ظن أنها ستسوق العرش إليه

لقمة سائغة:

– لقد قلتِ إنها مجرد طفلة، وأنك ستقنعينها أنَّ على عصر "سيزوس" أن ينتهي. لقد تجاوزتنا جميعًا، وفعلت ما لم يقدر "سيزوس" حتى على فعله، لقد أيقظتْ كبير الكهنة في منتصف الليل وجرّته إلى المعبد، والآن في اليوم الثاني لتوليها العرش تتحدث إليَّ كأنها تحركني بيدها، هي ليست مجرد طفلة. "جاميل"، لقد انتظرتُ هذه اللحظة منذ أن بدأت الملكة التلويح بخوض الحرب، الآن لن أسمح لطفلة بكماء بالوقوف في طريقي.

قامت صاحبة الوشاح الأسود في ثبات وغير مبالاة بحديثه:

– "أكتيفوس"، ألا تظن أنك تبالغ كثيرا بالحديث عن طفلة لم تتجاوز الخامسة عشرة.

– لكنهـ...

– "أكتيفوس"، "ماكو" ابنتي ولا تخال أنك ستعرفها أكثر مني.

ثم تابعت بتعجب:

– هيا يا رجل، أنت لا تفكر في السطو على عرش "سيزوس" في اليوم التالي لمغادرته بجيوشه، لم يكد يبلغ وجهته، ولا تظن أنك تتعامل مع شخص هاوٍ، إنه "سيزوس"، لا بد أنه ترك عيونًا له في القصر، وتلك العيون لو أحستْ بنيتك لبلّغته قبل أن تخطو أي خطوة تجاه حلمك، وحينها سيعود بجيوشه ويعلق رؤوسنا وأولنا ابنته على بوابات المدينة، إنه وحش دموي لا يُخلص سوى لكرسي عرشه على مديم أرغون.

– ماذا تعنين؟

- اِصبر يا عزيزي، كلنا يعرف أن البلاد كلها ستعاني من أيام ليست بيسيرة طوال فترة الحرب، وأولئك الرعاع في الخارج لن يحتملوا الجوع ولن يحتملوا أن يكون على عرشهم طفلة لا تحسن التدبير، وفوق كل هذا بعد عدة أشهر من الآن قد يقضي "سيزوس" حيث هو، وحتى لو لم يفعل حينها تكون بينه وبين عيونه مسافة السير أيامًا، وتكون أنت تحكمت في الأمور هنا، وسيطرت على المدينة، عندها سيكون "سيزوس" قد تأخر على إنقاذ الوضع بالنسبة إليه.

- هل تعنين أن ألتزم الصمت وأتحمّل المزيد من تصرفات ابنتك؟

- الهدوء، الهدوء والمراقبة هو كل ما يلزمنا الآن يا عزيزي، دع الأيام تأتي بهديتك الحتمية إليك، عليك الصبر إنه مجرد اليوم الثاني.

في ذلك الوقت كان من الحكمة أن يترقب الجميع، وليس "جاميل" و"أكتيفوس" فقط، بل "أودين" و"ماكو" والرعية والكهنة في المدينة.

اكتفت "ماكو" بحضور دروس القتال، والتنقل في الأسواق لمحاولة معاينة مخزون الحبوب للحد من المجاعة التي قد تضرب المدينة على إثر الحرب، وتتناقل أحاديث الحرب بين الرجال وبعض القوافل الباقية، والكل يراقب.

إلى أن تمكنت في أحد الأيام من العودة إلى الغابة في زي الفلاحين مرة أخرى. وحملت القرطاس الذي يحمل رسالة أودين وراحت تخترق الغابة مرة أخرى والتماثيل في غير خوف، عندما دخلت الكوخ كان فارغًا ليس فيه أحد، لا شيء سوى طاولة صغيرة موضوع عليها بعض المجسمات الخشبية المنحوتة للغزلان والأرانب البرية، وبعض القراطيس المدوّن فيها ألوان

العلوم المختلفة. وبينما هي على وضعها شعرت بسكين يمتد إلى عنقها من الخلف.

- لو أني أقتلك الآن لانتهينا من كل هذا العبث.

فالتفتت وابتسمت ثم رفعت يدها بالقرطاس، لم يكن أمامه سوى أن يخضع لإصرارها ولعدم قدرته على إنهاء حياتها أو التخلص من قدومها إلى بيته الذي أصبحت تأمنه بعد أن أدخلها بنفسه إليه. فمد يده وأخذ القرطاس، وتوقّع كالعادة أن يبدأ بجملتها "عزيزي الساحر الطيب "، إلا أن ما قرأه كان مفاجأة بالنسبة إليه للوهلة الأولى؛ إذ جاء فيه:

عزيزي أودين،

مرحبا، كيف هي الأحوال من عندك؟

يا صديقي، إن هذه الدنيا أقصر من أهدرها في التفكير إن كنت شيطانا أم ملاكًا، لا يعنيني في الحالتين.

المهم أنك رغم سوئك أحسنت إليَّ، والأكثر أهمية هو أني لا أستطيع رؤية السوء فيك كما أراه في السيئين عادة حتى قبل أن يتحدثوا، اعتدت أن تحدثني قلوب الناس قبل ألسنتهم، وأشعر بهم بشدة كما لو أني أرى ملامحهم.

يا صديقي، إن كنت شيطانًا سيئا فدعني أخبرك أنك أقلهم سوءًا. لا أدري ما السبب، لكن بطريقة أو بأخرى أشعر أني أرى ما بداخلك، أنت لست لطيفا بالمرة لكن شيئا ما في داخلي يدفعني للإيمان بك.

- وماذا بعد.

أشارت بكتفيها، إنها لا تعرف.

- لماذا أتيتِ إلى هنا الآن؟!

عادت تستدير إلى الطاولة لتجلب قلما وقرطاسا، لكنه خاف أنها قد تفعل شيئا آخر، فعاد يوجه سكينه إلى عنقها، فتحركت ببطء، إنها فقط تريد قلما وقرطاسا. وعادت تكتب:

عزيزي أودين:

لا أعرف سبب مجيئي إلى هنا، لكني أشعر هنا بأني في المنزل.

- هل أنت مجنونة؟ ألا تعرفين من أنا؟ كيف تعرفين اسمي وتعرفين أني ساحر ولا تخافين ذلك؟ ألا تخافين أن يستيقظ حراسي في الخارج فيقتلوكِ؟

عادت تكتب:

عزيزي أودين:

يمكنك القول: إني لست كأهل القرية، لقد درست العلوم المختلفة، ولا أدين بآلهتهم، ولا أؤمن بالسحرة، كما أنه ليس من ساحر من ينقذ أحدًا من الموت.

فقرأ وهو ينتفض من ثَباتها، وبين فزعه من أنها مكيدة من أهل المدينة ورغبته القاتلة في الوثوق بها، كان لا يستطيع أن يحكم السيطرة على عقله فيتخذ قرارًا يُريحه، فجاء رده بعد طول صمت:

- حسنا، أستطيع قتلك الآن وإنهاء الأمر.

عادت تكتب:

عزيزي أوديـ..

نزع القرطاس من يدها في غضب:

- توقفي عن هذا الآن، لست عزيزكِ، أفهمت؟ لست عزيزَ أحدٍ.

كلما رآها كلما اختنق قلبه بالضيق لعدم قدرته على إطلاق سهمه عليها، وإنهاء أمر هذه الطفلة المزعجة وحسب، خرج من الكوخ تاركًا إياها فيه، يفكر في حل لجعلها تتوقف عن التردد إلى مكانه، وإلا استباح أهل المدينة فعل ما تفعله هي وقُضي عليه.

بينما يفكر خرجت هي من الكوخ، وغادرت المكان في هدوء تام دون حتى أن تنظر إليه.

- أنت؟!

لم تلتفت حتى إليه، فقط رحلت في صمت، وراحت تجتاز التماثيل إلى أن اختفت عن أنظاره، فعاد للكوخ ليجدها قد تركت رسالة أخرى:

عزيزي أودين:

يتطلب الأمر أكثر من مجرد قناع نحاسي أسود وقرون، وأكثر من مجرد رداء أسود، أكثر من مجرد دم بارد لقتل الحيوانات، أكثر من مجرد أساطير تسلبك آدميتك وتنعتك بالساحر، لو أني لم أرَ في قلبك شيئا من النور لم آتِ إليك، ولو أنك لم ترغب في مجيئي لما تركتني حيةً إلى الآن، بالنسبة لمسخٍ ينبذه العالم، لن يظهر كل يوم صديق ليمد يده له، ويا صديقي بالنسبة إليَّ فإني لست أطمئن لأحد في كل يوم.

دعني أخبرك شيئا؛ لا أحد يهتم، لا أحد يهتم إن قتلت أولئك الذين ألقوك رضيعا في الغابة وطاردوك، لا أحد يهتم إن صببت غضبك على الحيوانات تقتلهم بلا هوادة، لا أحد يهتم إن عدت تجلس على عرش المدينة أم لا، قد تفعل كل هذا، ثم تجد نفسك تصرخ لتحتفل بالنصر بمفردك؛ لأنه لا أحد ينظر حتى إليك في خارج الدائرة التي تضع فيها نفسك، يعيش الناس في دوائرهم الخاصة؛ في همومهم ومشكلاتهم التي لا تجعلهم يرونك حتى.

أعلم كم كان سيئًا ما مررت به!! أعلم كم كان قاسيًا!! لكن صدقني، أنت لا تريد أن تُفني عمرك في كل هذا الغضب، صدق بأنك لا تؤذي أحدًا سوى نفسك. ربما تود لو أنك تسامح نفسك يا صديقي، ربما تود لو أنك تسامح عالمك، ليس لأجله وإنما لأجلك.

"ماكو".

كان حديثها بالنسبة إلى نفسه كباب نور يُفتح من بعد ظلام، باب لا يملك رفاهية إغلاقه، جلس أودين يفكر إن كان هو بهذا القدر من الحماقة حقًا ليدع الشخص الوحيد الذي يشاركه هذا الفضاء الشاسع في حياته يرحل بهذه السهولة، هل حقا قد تبتسم له الحياة بسبب طفلة صغيرة؟ هل حقا سيشعر بالرضا لو أنه هدم المعابد واستعاد عرش أبيه؟ والأهم هل هو مستعد للتخلي عن قناعه الشيطاني؟ وقبل كل هذا كان عليه اللحاق بالطفلة ليعيدها. الآن أصبح يعرف أن عليه أن يستمع أكثر لحديثها، الآن للتو يرى وطنًا آخر يُنهي غربته ولو كان طفلةً صغيرةً يأوي إليها.

الإنسان...

نحن نستمر في حمل حقائبنا والترحل من مكان لمكان، ومن حال لحال، نحن نقضي أكثر من منتصف عمرنا غرباء. لو أننا نجد وطنًا حينها نلقي بكل حقائبنا على أمل نفض الغربة عن عواتقنا... على أمل وطن.

خرج مسرعًا يبحث عن الطفلة كالمجنون لكنه كان قد استغرق الكثير من الوقت في تجاوز التماثيل التي شعر وهو يعبرها بأنها سجن يخنقه أكثر من أمان له، وأنها تبطئ حركته وتحول بينه وبين اللحاق بها. عندما وصل كانت قد اقتربت كثيرًا من أسوار المدينة عائدةً، وقبل أن تجتاز الحرس في زي الفلاحين استدارت مرة واحدة أخيرة تنظر للخلف، وعلم أنها رأته فلعن كل ذلك العجز عن اللحاق بها وإيقافها عن الرحيل لكن من دون فائدة تُرجَى، اجتازت ماكو السور واختفت عن ناظره، وظل على أمل أن يكون اتباعها في ذلك اليوم أمرًا كافيًا لتعود.

لكن مَرّ الوقت ولم تفعل، يقال: إن أملا كاذبا يصيب الإنسان بالموت أسرع من حقيقة صادمة. وكان انتظار عودة الفتاة في كل يوم للغابة بلا فائدة يقتل في أودين شيئا في كل لحظة. وللمرة الأولى في حياته ينام وهو يتمنى أن يشعر بتلك اليد الصغيرة تحاول نزع القناع عنه. لا يخال نفسه هذه المرة يرفضها بالضرب، ربما يفيق ليجد مَن يتحدث إليه.

وفي أحد الأيام وهو جالس داخل الكوخ ممسكًا بجذع شجرة يحاول نحت شيء منه، شعر بحركة خارج الكوخ فوضع السكين جانبًا، ومد يده إلى قوسه تحسبًا؛ فقد كان لا يعرف للأمان سبيلا. ثم دخلت عبر باب الكوخ صاحبة القدم الصغيرة تحمل حقيبة بها قراطيس وأقلام، وعلى وجهها ابتسامة عريضة كأن القدر يتلاعب بقلبه، ها هي الآن.

ذلك التهليل في قلبة كان جديدًا عليه فقام من مقامه مفزوعا وكأنه الآن يخشاها، بينما رفعت يدها لأعلى وأسفل كأنها تروض حيوانا بريًّا فتطمئنه إليها بابتسامة صغيرة، ثم جلست، وأخرجت قرطاسا، ومدته إليه، فأخذه منها عنوة وقرأ ما فيه:

عزيزي أودين،

مرحبا.

- فقط... هذا كل شيء، أنتِ لم تكتبي شيئا آخر؟

فأخرجت قرطاسا آخر.

عزيزي أودين، بما أنك لم تقتلني، دعني أعتذر عن عدم قدومي في الأيام السابقة، فليست كل الأمور بخير في المدينة.

- تبًّا! لماذا تظنين أني أهتم لقدومك أو لا؟

فأخرجت قرطاسا آخر:

عزيزي أودين، أعلم أنك قد لا تهتم لاعتذاري؛ لأنك قد لا تهتم لحضوري، فهل أرحل الآن؟ على أني لو رحلتُ ما عدتُ أبدا لأزعجك يا صديقي.

الآن أصبح حائرا كيف يخبرها أنه انتظر عودتها في الحقيقة:

- هل لديك المزيد من هذه الرسائل أم أنك اكتفيتِ؟

فأخرجت رسالة جديدة.

عزيزي أودين، شكرا؛ لأنك سمحت لي بالبقاء.

- أنت كيف تعرفين ما سأقوله قبل أن أقوله؟

فأشارت برفع كتفها مستنكرة أنها تفعل، الأمر فقط أنها توقعت الحوار.

- ومتى سمحت لكِ بالبقاء؟

فقامت على قدميها وهي تنظر بتأنيب له، وتشاور ناحية الباب، ففهم أنها تسأله هل ترحل؟

- لم أقل أنك سترحلين، ولكن هذا لا يعني أنك ستبقين أيضًا.

فنظرت إليه بعلامات الاستغراب على وجهها حتى شعر أنه مرتبك، وللحظة لا يعرف ما الذي يريده حقًا، فخرج من الكوخ وراح يلف حول نفسه ذهابًا وإيابًا كمن به جِنّة، بينما هي وقفت تنظر إليه لا تحوّل ناظرها عنه وهو يذهب ويجيء، ثم توقف فجأة فانتبهت في فزع.

- اِسمعي، لا يعنيني أبدا إن كنتِ لا تخافين أم لا، ولا يعنيني كل ذلك الحديث الفارغ الذي قُلْتِه في المرة السابقة، سنعقد اتفاقا الآن، إن كنتِ ترغبين في قضاء الوقت هنا، عليك أن تلتزمي بقواعدي، هل تفهمين؟

هزت رأسها إيجابًا، فراح يضرب الأرض بقدمه غضبًا، ويلوح للسماء:

- تَبًّا! أنت لا تتحدثين إطلاقًا، عظيم، لا يكفيني العيش هنا طيلة ثمانية عشر عامًا بمفردي ليأتيني العون على شكل طفلة بكماء؟

حينها نكست رأسها للأرض أسفًا، ودخلت إلى الكوخ، وحملت حقيبتها، واستعدت للرحيل بينما هو يراقب في صمت.

- ماذا؟ هذه هي الحقيقة.. أنت لا تظنين حقا أني سأعتذر.

عندها غضبت وعادت أدراجها وجلست على الأرض وأخرجت قرطاسها، وكتبت:

عزيزي أودين، رغم سخريتك لا تبدو كهؤلاء الذين نبذوني لِعِلّتي، لكن عليك الحديث بأدب.

- أنا لا أقصد السخرية منك.

فعادت تكتب:

عزيزي أودين، تبدو رغم كبرك كطفل تائه عن منزله، حتى حديثك غير مقنع، وقناعك مسخ، ورداؤك غير نظيف دائما.

- هل عليك أن تكتبي عزيزي أودين في كل مرة حتى لو كنتِ تنوين توبيخي؟!!

عزيزي أودين، وُلِدْت بكماء، ومنعت من استخدام الإشارة لأتحدث، أخبروني أن هذا لا يليق بالأمراء، كما أنه ليس هناك من يفهمني عندما أشير، علمني معلمي أن أبدأ كل كتاباتي بعزيزي، ثم أتوجه لمن أتحدث إليه، لا يعنيني إِن كنت ستفهم ذلك الأمر أم لا.

- هل هذا يعني أنك ستستمرين في كتابة الرسائل طوال الوقت؟!

فأشارت برأسها إيجابًا.

نظر إلى القرطاس، وشعر في نفسه بالضيق كأنه كان يتمنى أن يأتي أحد يستطيع التحدث معه، لكنه وعلى كل حال قد يقبل بما لديه الآن فهو كل ما لديه على الأقل، فجلس على الأرض أمامها مباشرة وبدأ يتحدث:

- حسنا، حدثيني أكثر عنك، من أنت؟ وكيف عرفتِ اسمي؟

استغربت للوهلة الأولى طريقة جلوسه؛ إذ ألقى بجسده كله؛ حيث تقف قدماه دون البحث عن مكان مناسب للجلوس وهو ما لم تعتد هي عليه كأميرة، لكنها تقبّلت الأمر وقالت: إنه لا بأس أن يَصدر هذا التصرف من شخص نشأ في الغابة لا يعرف الكثير عن عادات الناس. فاعتدلت في الجلوس وهدّأت من روعها، وبدأت تكتب من جديد:

عزيزي أودين، أُدْعَى ماكو، وأنا الأميرة الوصية على عرش مديم أرغون، ابنة الحاكم "سيزوس"، أبلغ من العمر اثني عشر عامًا الآن، وأنا الآن الحاكمة على العرش لحين عودة أبي والجيش من الحرب، وعرفت اسمك؛ لأنه مدون على جدران المعبد، وأعرف قصتك كاملة من كبير الكهنة.

كان يقرأ ما تكتبه، وبينما تفعل ثار شجنه عندما كتبت " أعرف قصتك كاملة من الكهنة":

- إنهم يكذبون.

فنظرت بعطف إليه؛ إذ بان في عينيه الحزن، وعادت تكتب:

عزيزي أودين، أعلم أن الكهنة يكذبون، ولو كنت أصدّق أنك ساحر لما أتيت إلى هنا حقا.

خفض رأسه في أسف على حاله، فوجدته قد عاد للسكون كأنه سارح في أمر ما، فثار في قلبها ذلك الفضول لرؤية وجهه مرة أخرى، فدفعها فضولها إلى الشجاعة مرة أخرى ومدت يدها إلى قناعه تحاول لمسه، فأمسك يدها وصرخ فيها:

- توقفي.

ثم قام من مقامه وهو ينتفض وتابع الحديث غاضبًا:

- القاعدة الأولى: أنا لا أنزع قناعي أبدًا، وأنت لن تَرَي وجهي أبدًا، هل فهمتِ؟

حينها نظرت إليه وكأنها ترى بعينيها كلَّ الألم الذي مر به، كل الألم الذي يدفع إنسانا للعيش خلف قناع، سواء إن كان قناعَ بسمةٍ أو قناع عبث وشجن، أو حتى قناعا نحاسيا مرعبا، فأشارت برأسها أنها فهمت مطلبه.

- حسنا، القاعدة الثانية: أكره الأطفال وبشدة، لو أنك يوم أزعجتني لشويت رأسك على النار وتناولته على العشاء.

فشخصت بناظرها اشمئزازا وهي تقول في نفسها: وهل عرفتَ يومًا أناسا لتقرر أنك تكره الأطفال أو لا؟ لكنه فهم من نظرتها أنها تستنكر قوله فراح يؤكد عليه:

- نعم، سأتناول رأسك على العشاء، جربي فقط أن تزعجيني وسترين.

فنظرت إليه بغضب، وأحالت ناظرها عنه.

- الآن علينا أن نجد طريقة تتحدثين بها غير القرطاس والقلم.

فسحبت قرطاسا جديدًا، وكتبت:

عزيزي أودين، لا أستطيع التحدث بغير القرطاس والقلم، وليس هذا ما أريد تعلمه.

- ماذا تريدين إذًا؟!

عزيزي أودين، كيف صمدت هنا في هذه الغابة بمفردك؟

حينها عاود الجلوس مرة أخرى بالطريقة نفسها؛ فقط ألقى بجسده كله؛ حيث موضع قدمه:

- لم أكن بمفردي، كنتُ بصحبةِ أمي "غيم" إلى أن بلغت ثماني سنوات، ثم لدغها ثعبان وماتت... لجأتُ لأَهل المدينة حينها، لكني عرفت يومها تقدير خوفهم مني بحق، فقررت أن أعطيهم ما أرادوا.

عادت ماكو تنظر إليه بأسف وكتبت:

عزيزي أودين، لماذا لا تعود إلى المدينة وحسب، وتصحح كل هذا الوضع؟

فغضب عندما قرأ حديثها، وقال:

- خمنتُ أنك طفلة حمقاء منذ رأيتك للمرة الأولى، إن عودتي للمدينة تعني هدم كل الأفكار التي تقوم عليها معابدهم، أنا الساحر الذي يَجمعون المال والطعام من الناس لحمايتهم منه، إن نفوذ المعبد في المدينة يفوق حتى نفوذ أبيك.

راحت تفكر في حديثه وفي الحقيقة المزعجة؛ وهي نفوذ كهنة المعبد الذي بلغ نصابه حتى فاق نفوذ أبيها، والأموال والأطعمة التي يجمعها الكهنة قرابينَ للآلهة، لكن حينها لمعت عيناها كأنها للتو تذكرت شيئا مهماًّ، فقامت تجمع أوراقها في الحقيبة متهللة الوجه، بينما هو يستغرب ما تفعله.

- ماذا أصابك؟ هل جننت الآن أم ماذا؟

فاقتربت منه فجأة وهو يحاول تفاديها ثم عانقته فتحجر مكانه؛ إذ لم يعتد يوما أن يقترب أحد منه بمثل هذا القدر قبل هذه الطفلة المجنونة. كأن سهما من السماء أصابه دون أن يعلم السبب.

قبل أن ترحل عادت تشير بيدها أنها ستعود للمدينة اليوم، وستعود إذا ما سمحت الفرصة، لكنها لم تكتب فلم يفهم، هو فقط استمر في النظر إليها وهي تخترق التماثيل وتختفي من أمامه دون أن يملك تفسيرًا لما في رأسها.

كان أودين في كل لحظة يعلم في داخله أنه في كل مرة تخترق فيها "ماكو" التماثيل هي في الحقيقة تهدم واحدا منها، وتهدم أسطورة الخوف منها، لكن ربما كان قد تعب من الركض، ربما كان قد أنهكه الاختباء، ربما أراد أحدهم ليدفعه إلى معركة بائسة تنتهي فيها حياته وهو يدافع عن قضيته، وينهي الأمر بشرف.

ربما كان هو في احتياج لـماكو كي تكشف أمره، وإن مات يكون قد ترك يقينا - ولو في قلب إنسان واحد - أنه ليس ساحرًا. لكن حقيقة ما جرى في عقل ماكو كان شيئا آخر تمامًا؛ فقد ذكّرها أودين بمخزون المعابد، وأنه يمكنها استخدامه لمواجهة المجاعة لو ضَرَبَتِ المدينة، لكنها كانت مندفعة بما يكفي لتفكر في الجزء الجيد وتنسى حديثه عن نفوذ الكهنة، فعادت إلى القصر، وأمرت بعقد اجتماع للحرس والكهنة، وكبار شيوخ المدينة في اليوم التالي، ثم قامت بكتابة خطاب الجلسة.

مَرّ اليوم وماكو لا تكاد تنتظر اليوم التالي لترى ما هم فاعلون في المجلس، وقبل أن تدخل قاعة الحكم كانت تنتظر الحاجب كي يعلن دخولها وهي تحمل الرمح بيد وتضع الأخرى على قلبها الذي يكاد ينتفض من الفزع.

ثم أعلن الحاجب دخولها، وحانت اللحظة فدخلت تخترق أنظار كل من في القاعة كأنها تمر عبر الجحيم، ثم جلست على العرش وأ شارت لـليليان بِبَدْءِ قراءة ما كتبته:

عزيزي كبير الكهنة زاكوم وأعزائي الحضور، لقد رأينا - نحن الأميرة "ماكو" - بصفتي الحاكمة لحين عودة الحاكم "سيزوس" أن نقوم باستغلال مخزون المعبد من المواد والأموال لتجاوز المرحلة الراهنة، وحماية الناس من المجاعات والفســ...

قطع صوت "ليليان" وهي تقرأ الخطاب في المجلس أصواتُ الحضور من صغار الكهنة مهللين بالرفض والتغني بأسماء الآلهة ليطلبوا السماح للطفلة الصغيرة الساذجة التي لا تقدّر قيمة ما تقوله، وعمّتِ الفوضى والهرج في القاعة، في تلك اللحظة كانت "ماكو" تسمع كلَّ الأصوات وهي الوحيدةُ التي لا تملك صوتًا لترفعه بينما سكت صوت قارئتها.

وفي الصفوف الأمامية كان يجلس "زاكوم" و"جاميل" و"أكتيفوس" يراقبون في صمت دون محاولة لتهدئة المتحدثين من حولهم، وتنظر إليهم "ماكو" في ثبات وكأنهم يخبرونها أن الصياد في هذه المرة لن يُتعب نفسه بمطاردة الفريسة، بل سيتركها تركض حتى تُنهك وتتعب فينقضّ عليها في ضعفها. فقامت من مقامها مرة واحدة، ورفعت رمحها ثم دقّت به على الأرض دقة واحدة؛ فصمت الجميع.

فأشارت إلى "ليليان" لتكمل القراءة، ففزعت لليان وعادت تكمل:

...

لتجنب المجاعات والفساد الذي لو ضرب هذه المدينة فإنه لن يَبقَى هناك من يتبرع للآلهة، وسيصبح المعبد قَفْرًا بدون العابدين. ولذلك فإنه لخيرٌ للجميع أن يتم التبرع بمخزون المعبد للرعية الذين تبرعوا به في بادئ الأمر، فماذا تظنون؟

عاد الحضور من الشيوخ وصغار الكهنة يهللون رافضين للفكرة مرة أخرى، ومرة أخرى فقدت السيطرة على القاعة، فنظرت "جاميل" إلى "أكتيفيوس":

- أرأيتَ عاقبة الصبر والانتظار؟

- نعم، لقد كنتِ محقة.

ثم تدخل "زاكوم" مشيرا إلى "أكتيفوس":

- أظن أن الوقت قد حان الآن... باركتك الآلهة.

فابتسم "أكتيفوس" وقام يُثبت أنه صاحب الكلمة المسيطرة في القاعة:

- اِهدؤوا جميعا الآن... جميعنا يعلم جيدًا أننا نفكر في ما يصلح لهذه المدينة، ونحن نعرف أيضا أن الأميرة الصغيرة ينقصها بعضُ الخبرة بعدُ. فهيا يا قوم، ألا تلتمسون عذرًا لصغر سنها وقلة علمها بالآلهة؟ الأميرة تظن أننا لو أخرجنا قرابين الآلهة من المعبد سيحمينا من الجوعِ، وهذا جيد تمامًا، إنها تفكر في صالحنا... لكنها تفكر بطريقة عاطفية قليلًا، فأنساها ذلكم أن غضب الآلهة كما شهدناه قبل ثمانية عشر عامًا من الآن، قبل أن تولد حتى أميرتنا الصغيرة، كان أقوى من الجوع والألم.

ثم التفت ينظر إلى "ماكو" ويوجه الحديث إليها:

– أميرتنا الجميلة الصغيرة، تَعرضين الأمر على المجلس للتشاور ولكن اعذرينا آنستي؛ فإن خبرتنا بأهل هذه المدينة وآلهتها تجعلنا نرى أن الأمر غير مناسب البتة، بل في الحقيقة على العكس تمامًا، نحن نرى أن يقدم القصر المزيد من العطايا إلى الآلهة علَّها تُبعد عنّا خطر المجاعة، وتنقذنا من الموت.

كانوا يرفضون المنطق اعتقادا بأن مأمنهم الوحيد من الهلاك هو قوة خارقة لا يقدر عليها سوى الآلهة. لكن لم يدرك "سيزوس" عندما وضع كل وزرائه على رأس جيشه أن الخطر الحقيقي سيكون طمعَ مَن هم في داخل القصر.

هلل الجميع في القاعة مصفقين ومهللين لتأييد رأى "أكتيفوس"، وقام زاكوم ليلقي الضربة القاضية:

– إن المعبد وكهنته يشعرون بالامتنان لحكمة القائد "أكتيفوس" علَّها تجعلنا نبحر بالسفينة آمنين يا أبنائي.

ثم غادر القاعة وتبعه باقي الكهنة وباقي الحضور و"جاميل" و"أكتيفوس". وبقيت الصامتة التي لم تقل شيئا في القاعة سوى إصدار صوت واحد بضرب الأرض برمحها، و بجوارها خادمتها التي اعتادت النطق عن طريق لسانها.

– سيدتي، هل لي بالحديث؟

نظرت إلى "ليليان" وأشارت لها بالإذن.

– إنهم أقوياء جدًا، ويَبدون كلهم كالوحوش التي تسنّ مخالبها استعدادًا للظفر بالحكم، إنهم أقوى منك أميرتي، والسيدة جاميل تؤيد أكتيفوس.

قامت حينها ماكو وغادرت المجلس على أنها آخر من غادر القاعة،

وعادت إلى غرفتها تفكر: هل تترك المدينة لسيزوس آخر أكثر لعنة من سابقه أم تترك المجاعات تفتك بمديم أرغون؟ لم تكن تعلم أنها والمدينة وقعا في فخ زاكوم. كان الجميع يظن أنه يتحكم بخيوط اللعبة، والحقيقة أن "زاكوم" وحده كان يتحكم في الجميع.

الآن بات واضحا للأميرة من هو الساحر الحقيقي، و لا يلوح أمامها خلاص سوى الساحر الطيب ليساعدها على حل الأزمة، إلى حد أنها لم تنم ليلها من شدة خوفها من القادم، ذلك الشعور المخيف في قلبها ما كان يسمح لعينيها بالنوم.

حل الصباح فقامت تنظر في المرآة إلى جسدها الصغير الهزيل ويديها الرقيقتين بما يكفي لمنعها من حمل السيف، فقد كانتا دائما تحملان إما القلم لتكتب أو الفرشاة لترسم، ولكنها قبضت عليهما بشدة؛ إذ كانت تدرك في داخلها أنه حان وقت القبض عليهما للقتال وأن دق طبول الحرب التي تعاديها لن تخمد نيرانها إلا بأيدٍ تستطيع حمل السيف. استدعت "ليليان" وأعدت لها خطاب أوامر.

عزيزتي ليليان، أثق بك تماما، وأنت تعلمين ذلك، أريدك أن تدوّني في صحيفة كل ما حدث في اجتماع الأمس ريثما أعود من درس القتال.

- بأمرك أميرتي.

استغربت ليليان والآخرون من شدة جلدها، فقد كان الجميع يتوقع أن تسلّم العرش مع بلوغ الأزمة كلقمة سائغة، لكن ها هي تصرّ على حضور دروس القتال التي كانت في الماضي؛ اللحظات الأكثر ألما وسوءًا بالنسبة إليها.

وكان كل من "جاميل" و"أكتيفوس" يراقبان الوضع عن كثب، حينما كان في الردهة يتحدث للحراس وجد ماكو تغادر القصر في عزم وجلد، وكأن شيئا بالأمس لم يكن، وصعدت إلى صهوة جوادها وفي يدها الرمح، فذهب إلى غرفة جاميل يحدثها بدم بارد:

- تصر على دروس القتال ولا تفوتها إذًا.. ماذا؟! هل تنوي ابنتك خوض حرب ما؟ من أين أتت بكل هذه القوة فجأة؟

ثم عبّر بغيظ:

- إنها لم تستسلم إلى الآن.

كانت تستند إلى أريكة مريحة في غرفتها والجواري من حولها يمشطن الشعر، ويعتنين بالأظافر، فاعتدلت وأشارت لجميعهن بالخروج من الغرفة، وراحت تجاري نبرة الغيظ في صوت أكتيفوس:

- حرب؟! وبأي جيش ستقاتل؟ ولو أنها تملك جيشًا كيف تأمرهم؟ أبالقرطاس والقلم تُقاد الجيوش؟!

- إنها تضطرنا إلى خيارات صعبة.

- ماذا تقصد؟

- لو أنها استمرت في عنادها ولم تسلمنا العرش سريعًا أخشى أنه سيكون علينا إبعادها بالقوة.

أمسكت حينها "جاميل" بخنجر من على طاولة في الغرفة التي كانت فيها هي و"أكتيفوس"، وراحت تتمايل حوله كساحرة إلى أن أرست الخنجر في

منتصف عنقه:

- "أكتيفوس" يا عزيزي، ستأخذون العرش ولكن ليس ابنتي، تذكر هذا حتى النهاية يا عزيزي، إني أساندكم، وهذا لا يعني أني سأسلمكم عنق الصغيرة .

ثم أعادت الخنجر إلى مكانه، وغادرت الغرفة تاركة "أكتيفوس" خلفها يفكر فيما قالته. كان على ما يبدو له أن الأم أصبحت مأخوذة بشيء من الإعجاب بشجاعة ابنتها المفرطة، لكنها كانت قد تورطت بما يكفي في خطط "زاكوم" بما يسلبها حقوقها كزوجة وأم.

بمراقبة الطفلة الصامتة وهي تسقط على الأرض مرارًا وتكرارًا في تدريب استخدام الرمح ثم تعاود النهوض مرة تلو أخرى كان الأمر مثيرًا بالنسبة إلى زاكوم، الذي كان يراقبها من نافذة صغيرة في المعبد تطل على تدريبات ولية العهد، ودخل عليه "أكتيفوس" ليشاركه المشهد.

- هل تظن أنها قد تصبح خطرًا بحال من الأحوال؟

- يا بني، الأحمق فقط هو من يغفل عن منافسه حتى لو كان مجرد طفلة.

- كما قلت؛ مجرد طفلة.

علق أكتيفوس ساخرا على حديث زاكوم، وابتعد عن النافذة:

- تعلم يا بني، تعلم أن الحرب أرض كل شيء فيها مباح، أنت لا تعلم من أي بقعة في أرض المعركة سينهض الوحش، لذلك يتوجب عليك أن

تحرك قطعك بحذر وحكمة، وأن تبقي عينيك مفتوحتين على أصدقائك قبل أعدائك.

ثم انفضّ "زاكوم" من أمام النافذة، وترك "أكتيفوس" ليعاود استكمال المشهد وهي تعاود السقوط من شدة هلاك جسدها الصغير في التدريبات، فعاد "أكتيفوس" يطمئن نفسه:

- مجرد طفلة.

ثم انصرف هو الآخر عن النافذة قبل أن يتمكن من رؤيتها وهي تعاود النهوض بسرعة وتغرس رمحها في دمية التدريب بقوة إلى أن انتهى التدريب، وعادت إلى القصر. عادت منهكة لتجد "ليليان" قد صدقت وعدها وكتبت كل ما حدث في القاعة بالتفصيل الدقيق، فكتبت ماكو:

عزيزتي ليليان، شكرًا، سيكون من المهم أن ندوّن مثل تلك الأحداث في هذه الأيام الصعبة.

ثم أذنت لها بالانصراف، وأشاحت بناظرها ناحية شرفة غرفتها، وراحت تنظر للشمس بلهفة، وتقول في نفسها: متى تغربين؟ وبمجرد أن حل الظلام وجدت طريقها إلى الغابة عبر ثغرات السور، تركض في الظلام متجهة إلى الكوخ بينما كان أودين يراقب عن كثب، فقد مكث متأخرًا في الغابة في تلك الليلة لصيد الذئاب، وشعر بحركتها تجتاز الغابة في فزع، فلم يعقب، ولم يخلف رحلته، فقط تركها إلى أن بدأت تجتاز التماثيل، بينما هو لم يكن ليفوت صيد الليلة من أجل الطفلة.

كان ينتظر ذئبًا ضخما، وكان حريصا على التخلص منه في تلك الليلة،

لكن أيضًا قلبه يأبى أن يفوت قليلا من الحديث مع الفتاة صاحبة الرسائل، فلم يعد يحتمل أن يخرج الذئب من وكره، فانفضّ عن التربص له وذهب هو إليه.

وجده يقتات على حيوان صغير، عندما أحس الذئب باقتحام أودين وكره هَمّ بالهجوم عليه، لكن أودين عاجله بطعنة رمح في صدره مباشرة فأنهى الأمر. كان من المفترض أن يبقى حتى ينتهي من فرائه الكثيف لكنه عاد ليلحق بضيفته. عندما وصل وجدها تكوّم جسدها في يأس ورعب خارج الكوخ في الظلام.

- هل تبدو الأميرات في عالمكم بهذا القدر من الفزع دائما؟

رأته وتمنت لو أنه كان هناك دائما فقامت بوجه مهلل تركض نحوه لتعانقه، لم تدرِ ماذا أصابه في المرة السابقة عندما عانقته، لذلك لم يكن يفضل أبدًا أن تكرر فَعلتها عندما اندفعت بجسدها نحوه، بَقِي ثابتا إلى أن اقتربت، ثم استدار عن طريقها فجأة لتصطدم هي بالأرض.

- القاعدة الثالثة: أموركم أنتم البشر هذه؛ كالعناق وما شابه، أنا لست معتادًا عليها، ولا أحب أن أعتاد عليها، فهمتِ؟ لا مزيد من هذه الأشياء السخيفة وإلا شويت رأسك وتناولته على العشاء.

راحت تلوح برأسها في يأس منه ومن حديثه، ثم قدّمت إليه صحيفة "ليليان"، فأشعل مواقد النيران حول الكوخ، وجلس يقرأ ما قدمته:

قامت الأميرة ماكو؛ أميرة القصر والقائمة على الحكم إلى حين عودة الحاكم "سيزوس"....

كان هذا كافيا ليوقف القراءة ويلقي الصحيفة على الأرض.

- لا يعنيني.

فعاودت ماكو التقاط الصحيفة، وقدمتها إليه مرة أخرى بلهفة، أشارت له تترجاه كي يكمل القراءة، فعاد بنفس بائسة يقرأ ما قدمته:

...بجمع القادة، وكبار الكهنة والشيوخ لمجلس هام حول توفير الغذاء لأهل مديم أرغون في تلك الأيام العصيبة، وطلبت إلى المعبد أن يقدم ما لديه من مخزون من الحبوب والغذاء لأهل المدينة لمواجهة المجاعات، ولكن الجميع بحضور كبير الكهنة وكبير الحرس والملكة الأم رفضوا ذلك، واستنكروا لطلب الأميرة التبرع بها لدى المعبد للمدينة، وطالبوا بتقديم المزيد من القرابين عوضًا عن ذلك؛ عَلّ الآلهة تحمينا من المجاعات.

عندما انتهى من القراءة نظر إليها ليستوضح ما حدث.

- لهذا ذهبتِ مسرعة في المرة السابقة؟

فأشارت برأسها نعم، فصفعها على وجهها بقوة قبل أن تشعر حتى أنه سيفعل.

***

٢٣- ٩- ٢٠١٨ / ٨:٠٠

- تبًّا! أنت مجنون.

- لقد كدتِ أن تغفي تمامًا، ربما مِتِّ.

- لماذا تهتم أيها المسخ؟

- أنا لا أهتم، أنت تفعلين.

***

الآن

أَحبَّك البعض مني

و قد ذهبتَ بكلي

يا كل كلي فكن لي، إن لم تكن لي فمَن لي؟

- لم أفهم لماذا جعلتْ أمي الصفع أمرًا مستمرًّا في حكايتك.

- و لا أنا صدقيني. لم أفهم الكثير من الأشياء. لم أفهم لِمَ جعلت حكايتي بائسة بهذا الشكل؟

- إنها الحياة يا صديقي، فلا بد من بعض البأس.

ضحك ساخرًا وغرب بناظره عني، وأشعر أني أتأمله بكل ذرة تعبر عن كيانه كأن الأمر كان يتجاوز حبي لأمي كأني وقعت في حب بطل من روايات أمي.

- لماذا لم أرك في ذلك اليوم إلا بالقناع المسخ السيئ، ولماذا تأتيني الآن هكذا؟ ألا يمكنك فقط أن تظهر بدون قناع؟

- لأنك عاجزة عن تخيلي بدون القناع.

ثم نظر إليَّ واقترب ناحيتي وتابع:

- لكِ عقلٌ محدود لم يَسْطِع أن يتجاوز أزمته فيراني بشكل أفضل..

ثم بدا عليه أنه يتباهى في الحديث وتابع:

- سيدتي وبكل أناقة، أنت أردت المسخ.

***

وعندما وجد أنها اندهشت من فعلته أوضح مبررًا:

- قاعدةٌ ما: يجب أن تفكري جيدًا قبل أن تتصرفي؛ لو أنك فكرتِ في حديثي قليلًا بعدُ لعرفتِ أن الكهنة لن يقدموا لكِ ما نهبوه في سنوات مضت بهذه السهولة.

فنظرت في أسف، ونكست رأسها، فعاد يلقي الصحائف على الأرض.

- حسنا، والآن ماذا؟ ماذا تريدين؟ لماذا أتيتِ؟

أخذت تسرع إلى قرطاسها وقلمها، وكتبت.

عزيزي أودين، عليك أن تساعدني.

- ماذا؟! هل جننتِ؟ أساعدك!! أتظنين أني قد أكون بهذه الدرجة من الحمق لأساعد ابنة الرجل الذي تسبّب في كل ألمي طيلة ثمانية عشر عامًا مضت، لتحافظ على ملك ليس ملكه، لتحافظ على ملك يعود لشخص آخر؟ أنت، هل تملكين عقلًا من الأساس؟

عادت تكتب:

عزيزي أودــ...

حينها سحب منها القرطاس بغضب قبل أن تتمكن من أن تكمل الكتابة، واتجه إليها بعينين ثابتتين.

– لستُ عزيزَكِ، هل فهمتِ؟ لا يعنيني إن كنت هكذا تعلمتِ التوجّه للجميع، لا يعنيني أمر المدينة، ولا أمر الحاكم، في الحقيقة أنا قد لا أفوّت فرصة لأشقّ عنقه، عليك أن تفيقي، لا أحد يرجو العون من ساحر يا فتاة.

عندها غضبت وثار غضبها، ونزعت القرطاس من يده وجلست على الأرض وبدأت تكتب رغما عنه:

عزيزي أودين، توقف عن الصراخ أيها الطفل الساذج الذي لا يتوقف عن التذمر، إنك الأحمق الوحيد هنا، لولا ذلك القناع البغيض على وجهك لصفعتك صفعة قوية على الوجه.

ثم ألقت القرطاس بيدها على قناعه في عنف، وقد بدا أنها استنفدت كلَّ ما لديها من صبر عليه، فعاد ليصمت وينظر إليها بغضب وكأنه للتوّ حصل على صفعة على وجهه كما كانت تفعل غيم، واختار بكامل إرادته أن يخمد غضبه وينصت إليها، فعادت تكتب:

عزيزي أودين، سيكون من المؤسف أن يصح عنك قول الخوف، الآن بنيت حصنك وتماثيل الشياطين، تظن أنك تحمي نفسك، وتعد متاريس الحرب، أنت تعد للانتقام في كل لحظة، وتظن أنك ستخرج في كامل قوتك ليخرّ أمامك الجميع آسفين ونادمين على فعلتهم بك، لكن الحقيقة أنه لا أحد سيكون هناك ليشعر بالأسف. لا أحد يهتم إن بنيت المتاريس أو القضبان، انظر حولك من مكانك هذا؛ لا يمكن لأحد أن يراك من خارج سياج التماثيل، هذا صحيح، لكنك أيضا لا يمكنك رؤية أحد من الداخل. وحاجز الخوف الذي بنيته هذا، صحيح أنه لا يمكن لأحد أن يدخل عبره من شدة الخوف، لكنك أيضا لا تستطيع الصمود خارجه من شدة الخوف.

أعلم أن ما حدث كان بمنتهى السوء. أعلم كم تألمت!! لكن أنت لا تريد أن يستمر هذا الألم إلى الأبد. أنت لا تريد أن ينفق جسدُك كما تنفق الحيوانات في مكانها دون أن يلاحظ أحد، ربما حيوان ضار يلتهم جثتك، أو ربما تَبقَى في كوخك إلى أن يولي اللحم والجلد عن عظامكً.

العرش والمدينة والسيطرة، ما رغبتك حتى فيها؟ إن لم تكن رغبتك الخير للناس فلا خير في خطوة ترجوها. إن كانت رغبتك فقط الانتقام، ماذا تكسب؟ لو أنك علقت رؤوس الجميع على الأبواب، ماذا تكسب سوى المزيد من تماثيل الشياطين، المزيد من الخوف، والمزيد من الظلام؟

ربما أنت في حاجة لأن تسامح الجميع، ربما أنت تحتاج لأن تسامح نفسك. ربما أنت تحتاج لأن تساعدني فتكتشف كمَّ الخير في قلبك، ربما أنت تحتاج لنزع ذلك القناع عن وجهك، ربما أنت تحتاج لأن أراك كما أنت حقًا.

ثم وضعت له القرطاس على الأرض وقامت مغادرة. عادت تجتاز الغابة في الظلام مرة أخرى، لكن هذه المرة دون خوف أو ارتعاد، إن الحزن واليأس يقتلان الخوف في القلب، وما إن يُقتل الخوف تموت معه الطمأنينة، وهذا ما كانت عليه "ماكو" بعد ما أصابها اليأس من مسخ الغابة الطيب، الآن كانت تمضي وهي تعرف أنه سيكون عليها أن تواجه هذا كله وحدها.

***

الآن

... بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا

و ما عدت شفتك... هلأ شفتك

كيفك أنت، من لا أنت.

- أرادت أمي أن تسامح العالم كله رغم قَدر ذلك القبح فيه.

عاد يجلس على الكرسي ولكنه ضاق ذرعا بساق الجوري إذ أصابت ذراعه شوكةٌ في إحدى زهراتها:

- تلك الزهرات جميلة جدا، لولا الشوك لما نجا نوعُها، كانت الحيوانات لتقضي عليها وتأكلها كالعشب الأخضر، لا بد من وجود الشوك لنتمكن من النجاة أحيانا. فلولا الشوك لما تعلمنا كيف نواجه المصاعب ولعصفت بنا نسائم الرياح، ولم يكن منا من يقف ندًّا للأعاصير، أظن أنها لم تخطئ ربما العالم رغم كل قسوته يساعدنا على النجاة بطريقة ما.

أجبتُ منادية إياه بتلقائية بحتة:

- أمي، أهذه أنت؟

فقد كان حديثه يشبه حديثها كثيرًا، ثم ضحكنا وعاد صوت الموسيقى:

يطلع ع بالي، أرجع أنا وإياك..

أنا وأنت... من لا أنت.

***

تركته يقرأ ما كتبته هذه المرة، ويفكر فيه ليرى كم كانت صادقة هذه المرة أيضًا في وصفها!! لكن كالعادة كلما استفاق وأراد قربها تكون هي قد ولت عنه. لكنها هذه المرة ولّت وتركته بقلبه الأحمق لا يفكر في شيء سوى الوصول إليها، فقرر أن يتبعها إلى المدينة، طوال الطريق كانت خطواته سريعة خاطفة،

لا يفكر في شيء سوى التسلل للمدينة، وفور ما اقترب من حقول الفلاحين القريبة من السور أوقفه الخوف، لا زال يخاف، ولا زال بخير.

مَشاهد تلك الليلة العاشرة التي قضاها في المدينة وهو يحاول استجداء النجدة لـغيم لا تنفك تلوح أمامه؛ فأفزعته وأعادت قدميه للوراء، ثم راح يلف بين الأشجار في قلق وفزع، لا يدري ماذا يفعل أو كيف يصل إلى الفتاة، إلى أن كاد الليل ينقضي وهو يذهب ويجيء بين الأشجار وقلبه يغص قلقًا وخوفًا، لا يدري ما السبب، لكنه أراد الحديث إليها بشدة رغم أنه لم يكن يعرف ماذا سيقول، فعاد يأوي إلى ملجئه الوحيد كلما احتمت الأمور، عاد يخترق الغابة عائدا إلى قبر "غيم" ليقضي الليلة بقربها، يبث إليها بالصمت خوفه من الفتاة التي انقذفت إلى طريقه من غير خير يرجي، سوى أنها تقلب حياته رأسًا على عقب، وتثير في نفسه الرعب، ويشاركها ليلا طويلا لا مفر من الفزع فيه، فراح يبكي فوق قبرها ويحدثها:

- أمي، أنا ضائق بالانتقام، إنه يستنزف روحي من الداخل، تلك التي انقذفت إليَّ من غير سابق إنذار، أنا لا أريد أن أخسر إنسانًا. هيا رُدي عليَّ، يقتلني الجنون، إن التفكير يأكل رأسي، أشعر به يلتهمه قطعة تلو الأخرى، كيف لكِ أن تتركيني هنا لأواجه كل هذا بمفردي؟

و يصمت وينظر للتراب وكأنها ستخرج منه:

- هيا الآن أفيقي، هيا اصفعيني على وجهي وأعيديني إلى رشدي.

لا زال لا جواب، ولا زال عقله يتفجر غضبا، فراح يصرخ بقوة:

- غيم، هيا الآن أخبريني، هيا، ماذا أفعل؟

ثم خار عزمه وانكبّ بجسده على كومة التراب فوق قبرها يحتضنها:

– أنا بائس يا أمي، أحتاج إليها، لا يمكنني أن أبقى بمفردي أكثر من هذا، كدت أنسى الكلام، هل يمكنك تخيل ذلك؟ أنا أنتظر عودتها فقط لأتحدث.

صَمَتَ وغفا في مكانه، وانقضت تلك الليلة، وبعدها أخرى وأخرى وأخرى، ولا يبدو لعودة الفتاة من أثر. كان عليه أن يجد طريقة ليأتي بها لكن ما كان بيده حيلة سوى الانتظار، ولكن ما عاد يطيقه، فكان عليه أن يجد وسيلة ليعيدها إلى الغابة، فأتته فكرة غريبة جدًا وهي أنه كان عليه أن يثير جلبة ما تجبرها على العودة للغابة إذا ما عرفت أنها من فعلته؛ فخرج في رحلة صيد للغزلان، واصطاد أربعًا شدادًا منها، ثم جرّها جميعا إلى القرب من إحدى بوابات المدينة، وانتظر حتى حلّ الظلام، وتسلل نحو القرب من السور وترك أربع الغزلان، وعاد لستر الأشجار بسرعة ليراقب نتيجة فعلته.

في صباح اليوم التالي وجد الحراس الغزلان الأربع، فحملوها واتجهوا إلى القصر ليطلعوا الأميرة على ما وجدوه أمام السور. دخلت ليليان تدق باب حاكمتها باكرًا فأفاقت ماكو.

– أميرتي، القائد أكتيفوس جاء لأمر هام.

فاستغربت؛ ما الذي قد يأتي بـأكتيفوس إليها؟ فقامت وارتدت زيها، وذهبت إلى قاعة الحكم، فإذا ببعض الحراس يتقدمهم أكتيفوس، وعندما رآها تقدم ببيانه:

– أميرتنا العزيزة، لقد حدث شيء غريب اليوم.

فنظرت إليه بجمود ليكمل الحديث بينما بقي هو صامتا معلنا عن عدم فهمه لها أمام الحراس؛ إذ لم تُشر إليه، ولأنها ممنوعة من الإشارة كسلوك ملكي، وكأنه يذكرها بمدى عجزها، فنظرت إلى خادمتها ففهمت ليليان.

– الأميرة ماكو تأذن لك بالاستفاضة والبيان سيدي أكتيفوس.

– آه نعم، عذرًا أميرتي، لقد وجد حراس المدينة اليوم أمرا غريبا وهو صيد وفير من الغزلان البرية؛ وجدوا أربع غزلان.

كان أكتيفوس يتحدث ويقفز إلى عقلها ذكر أودين في الوقت ذاته، فلم يكد يكمل حديثه إلا وتركته وخرجت لتتفقد الصيد بنفسها؛ فإذا بهم جميعًا تلقوا الضربة في أسفل العنق بطريقة منهجية ومحترفة، وليس من صائد محترف يستطيع فعل هذا في الغابة سوى شخص تعرفه، فتبسم ثغرها، وأشارت إلى ليليان لتأتي لها بالقلم والقرطاس، وكتبت بيانًا إلى أكتيفوس وليليان، جاء فيه أمر بلحم الصيد إلى سكان المدينة البسطاء.

فعلق أكتيفوس:

– لكن ألا يجب أن نعرف مَن قام بهذا الصيد الجيد أميرتنا أولًا؟

فنظرت إليه مبتسمة ثم غادرت دون أن تكتب ما يفوق الأمر بلحم الغزلان للبسطاء من الرعية.

انتشر خبرٌ بين الناس بأن الآلهة أرسلت هذه الغزلان الأربع للفقراء في المدينة لتحنو عليهم، فعادت إلى غرفتها وقد قبلت الدعوة في نفسها كأنها كانت تنتظرها. كادت "ماكو" أن تستعجل الليل في إسدال ستائره لتعاود الفرار عبر ثغرة السور إلى الغابة، وقد كان؛ حيث عاودت التسلل إلى الكوخ

فوجدت أودين يجلس إلى نار موقدة أمامه يقرأ في صحف "غيم" وتدويناتها للعلوم المختلفة، وإذا به يحس حركة أقدام بين التماثيل فمد يده يمسك رمحه، لكن قلبه تهلل عندما رأى صاحبة الأقدام الصغيرة تجتاز التماثيل، وتقترب لتجلس إلى النار وتنظر إليه بابتسامة كلها أمل.

- حسنا، أنت شجاعة حقا بالنسبة إلى طفلة صغيرة تجتاز الغابة في الليل.

فمدت يدها لتسلم عليه فضحك:

- ربما أعجبتني شجاعتك لكن ليس لهذا الحد.

فعادت تسحب يدها في غير مبالاة:

- إذًا أين صحفك؟ أراك بلا حقيبة قراطيس؟

فأشارت أنها لا تملك صحفًا:

- وكيف سأعرف ما ستقولينه؟

نظرت حولها كمن تبحث عن شيء ما، ثم التقطت عصا صغيرة وكتبت على الأرض.

- مرحبا.

شعر بالبلاهة في فعلها:

- تبًّا! عليك حقا أن تجدي طريقة تتحدثين بها.

ثم قام وجلب القراطيس والأقلام، وجلب معه قرطاس "ليليان" الذي قصّت فيه أخبار اجتماعها بالسادة في المدينة.

- حسنا، تريدين حماية المدينة وتظنين أني قد أساعد.

فأشارت برأسها نعم.

- إذًا سيكون عليك أن تفسري بعض الأمور؛ أولًا، أنت لم تكتبي هذه الرسالة؛ لأنها لا تبدأ بـعزيزي.

فأشارت برأسها: نعم.

- إذًا من فعل؟

فكتبت على الأرض: "ليليان" وصيفتي.

- هل خادمتك تعلم بشأني؟

فأشارت برأسها لا.

- حسنًا، مَن "أكتيفوس" هذا؟

فأخذت منه قرطاسا وكتبت: كبير الحرس في القصر الحاكم.

- ولماذا هو أفصح لسانًا منك؟

فكتبت هذه المرة في القرطاس.

عزيزي أودين، هو أفصح لسانًا مني؛ لأنه يملك لسانًا!!

- جيد، إذا علينا أن نعثر لكِ على لسان.

فنظرت إليه باستغراب.

- نعم، يجب أن تتحدثي كي يسمعك الناس، لا يمكنك أن تتحدثي عن طريق خطاباتك وحسب.

فكتبت:

عزيزي أودين، لكني ولدت بكماء، فكيف أتحدث؟!

- لن تفعلي، خادمتك ستفعل.

فأشارت إليه تستفهم.

- اسمعي، إنّ ما أَلقَى بي في هذه الغابة هو جهلُ أولئك الناس، ربما أنت محقة، لن ينفعني قطع رؤوسهم وتعليقها على أبواب المدينة، لكن سينفعني قتل جهلهم ويخرجني من قضبان هذه الغابة، ويعيد ما أستحقّه من ملك، وأصدق على صحة العلوم التي جمعتها "غيم" وكَذِب المعبد وادِّعائه.

فكتبتْ وهي لا يستميلها حديثُه:

عزيزي أودين، أتنوي استغلالي لتحقيق انتقامك بطريقة أخرى؟!

- حسنا، أنت تريدين أن يعود "سيزوس" ليجد عرشه كما تركه في وصايتك، وأنا أريد أن أنفضّ من الغابة وأعيش بين الناس، وأستردّ قيمة "غيم" وعرش أبي. سأعقد معكِ اتفاقا الآن؛ سأساعدك على الحفاظ على العرش، وحماية الناس، وفضح جهل الكهنة إلى حين عودة "سيزوس"، وخلال هذا الوقت سأحارب المعبد وأقضي على الخرافات من خلالك أنت، وحينها يفهم الناس أني لست ساحرا، ويكون لي الحق في العودة والمطالبة بالعرش من "سيزوس".

فبدت مذهولة من حديثه، فتابع ليوضح نفعها:

- أنتِ لا تهتمين سوى للرعية، ولا أظن أنهم سيكونون بأمان مع

سيزوس أكثر مني. بيننا اتفاق إذًا؟

سكتت قليلا، ثم أشارت برأسها:

لا.

و كتبت:

عزيزي أودين، قد أكونُ من أشدّ المعارضين لسياسة أبي، لكني لن أساعدك على هزيمته، إنه أبي رغم العالمين ورغم قسوة هذه الحياة.

– أنا أستردّ ما هو ملكي، وأعدك أن يكون ذلك بحرب نزيهة بيني وبين أبيك. علمتني غيم أني أمير، والأمراء يقاتلون بنبل، لكن عليَّ أولًا أن أمحو رسوم الشيطان عن جدران المعابد، على الناس أن يعرفوا مَن هم المشعوذون الحقيقيون، الآن نتفق؟

طال صمتُها هذه المرة وهي تحدق به، لا تعرف إن كان عليها أن تصدقه أم لا. هي لا تستطيع حتى رؤية عينيه بسبب القناع الذي يرتديه، لكنها خلصت إلى أنها بين حدين: المعبد وأودين، وعلى الأقل هي تعلم أن الأول يكذب فقررت أن تسلم جدلا بأن الآخر لا يفعل، فأشارت برأسها: نعم. بينما هو لم يشعر بالارتياح؛ فلم يكن متأكدًا حقا مما يريده، لكنه كان قد عقد العزم على مساعدتها:

– جيد، الآن إذًا الدرس الأول سيكون كيف تنطقين الكلام بشفتيك حتى يبدو للواقف أمامك أنك أنت تتحدثين. ثم ستكتبين خطاباتك بطريقة عادية جدًا، وتجعلين خادمتك تقرؤها في نفس وقت تمثيلك للنطق، ثم ستتدربان على هذا كثيرًا إلى أن تُتقنا الحديث وتمثيل النطق في الوقت ذاته، ثم

ستقولين: إن الآلهة ساعدتك كي تجدي صوتًا لك.

استهجنت أفكاره، وبدأت تنظر إليه باستغراب، ثم كتبت:

عزيزي أودين، كيف أخبرهم أن الآلهة ساعدتني على إيجاد صوت لي؟! سيساعد هذا الكهنة. ظننتك ستعلمني القتال وكيف أضرب بالرمح بكفاءة كما تفعل أنت، وكيف أستخدم القوس والسهام ببراعة.

قرأ ما كتبته، ثم صفعها على وجهها بقوة في بلاهة منه وعدم شعور بالذنب:

– عليكِ أن تتعلمي كيف تقاتلين بالعقل قبل أن تقاتلي بالسيف. انظري إلى حالك؛ طفلة صغيرة، هاتين اليدين الرقيقتين، وهذه القدم الصغيرة، هي لن تكون كافية لتعلّم القتال، كم عمرك الآن؟! للتوّ بلغتِ الثانية عشرة؟! أولئك الذين تتحدثين عن قتالهم قضوا ضعف عمرك في ميادين القتال، ليس لديك شيء سوى هذا العقل في رأسك، لذلك عليك أن تستخدميه.

ثم خطف العصاة التي كانت ترسم بها على الأرض من يدها، وراح يتابع الشرح على الأرض، فرسم نقطة صغيرة وحولها دائرة بحيث كانت النقطة في مركزها، ورسم عددًا من النقاط على إطار الدائرة وتابع كأسوأ معلم عرفته ماكو:

– هذه النقطة في المنتصف هي أنتِ، وهذه النقاط هنا هم أعداؤك، إنهم يحيطون بك بهذا الشكل، من كل الاتجاهات، والناس في المدينة يؤيدونهم أيضا، طالما هذه النقاط بعيدة عنك لا يمكنك السيطرة عليها. عليك أن تجعليهم في قبضتك، ثم تُجهزي عليهم بالتلاعب بهم، وتستخدمي سلاحهم

ضدهم.

بدت كأنها لا تفهم شيئا مما قاله، فلم تكن تلميذة جيدة هي الأخرى لكنها كانت على الأقل تحسن الاستماع:

– تبًّا! أنت حمقاء. دعك من هذا الرسم ودعيني أكمل حديثي، ستخبرين الناس أن الآلهة أعطتك صوتًا لتحكميهم، عندها سيظن الناس أنك مؤيدة من الآلهة، وسيكون على الكهنة أن يؤيدوا قولك حتى لو لم يكونوا مقتنعين به؛ لأن هذا سيجعل الناس يثقون أكثر بالآلهة، ويتقربون للكهنة، ومن ثم ستقولين أن الآلهة طلبت منك أن تجعلي الناس يتوقفون عن تقديم القرابين والعطايا، وأن عليهم أن يواجهوا خطر المجاعة من مخزون المعابد، عندها سيغضب الكهنة وينقلبون على بعضهم البعض وعليك، لكن لن يرى الناس حينها أنهم ينقلبون عليك أنت، بل سيرون أنهم ينقلبون على الآلهة التي تؤيدك.

الآن أصبحتْ تفهم بعض الشيء، فصفّقت بيدها تعبيرًا عن فهمها، وإعجابها بفكرته، لكنه لم يَرَ في قطعها لحديثه وتصفيقها المفاجئ إلا تصرفا طفوليا ساذجا؛ فاستاء من تصرفها الطفولي:

– ما هذا الذي تفعلينه؟!

فنظرتْ بتعجب وكأنها لا تفهم سبب استياء هذا العابث في الحقيقة الذي تابع الصراخ:

– تبًّا! أنت طفلة حمقاء. سيكون لدينا طريق طويل لنقطعه معك.

وحجب ناظره عنها في غضب، فعادت تكتب:

عزيزي أودين، أنا موافقة، لنبدأ الآن.

نظر إليها وقد كانت تشع حماسًا ينبض من داخلها، كانت تبدو كجرو صغير لا يكف عن الصراع مع الأحداث من حوله رغم صغر حجمه وعظم قدرها، إلا أنه يريد أن يقاوم. كان في نظرة عينيها استغاثة لتلك المقاومة، كمن أذاب لحم جسده الاستسلام، لكنه لم يكن يحسن الثناء:

- حسنًا، الدرس الأول: عليك أن تتعلمي كيف تتحدثين بشفتيك.

فأشارت إليه لتوقفه عن الحديث، وكتبت:

عزيزي أودين، ماذا عن باقي الخطة؟ ألن تخبرني بها؟

عادت لتبدو في نظرة طفلة ساذجة، تتعجل الأمور وقد كاد عقله أن ينفجر من ترنحها بين هذا وذاك، لكنه كان يعلم أنها ستكون قوية عندما تتطلب الأمور ذلك، فكان لا بد من صفعة على وجهها ليرضي شيئا من شعور المعلم الفاسد في داخله وتابع:

- القاعدة التي لا أذكر رقمها: لا تستعجلي الأمور، ستعرفين كل شيء في وقته، الآن سنبدأ التدريب.

سأبدأ بالتحدث بشفتيِّ من دون أن أُحدث صوتًا وستقومين بكتابة ما قُلْته، ثم تحاولين إعادة الكرّة بشفتيك أنت.

انقضى الليل وهما جالسان في الهواء الطلق خارج الكوخ، هو يتحدث بشفتيه وهي تخطئ تخمين ما يقوله، وهو يستمر بصبّ غضبه عليها كلما أخطأت، وهكذا، وهكذا دون كلل أو تعب.

الوقت برفقة الواحد من البعض يمر كأنه لا يمر، لا نشعر فيه بالزمان أو بالمكان، بقدر الشعور بشيء من الراحة كأن العالم كله جاء بين أيدينا، فقط برفقة هذا الواحد الفرد من بين الجميع.

استمر السمر والحديث إلى أن حلّ الصباح وكانت قد بدأت تنطق بعض الكلمات بشفتيها، فنظرت فإذا بالفجر بدأ يشق طريقه في السماء، أدركت أن عليها العودة للقصر قبل أن يكشف الضوء أمر تسللها إلى الغابة، فكان عليها أن تغادر مسرعة في كل مرة كسندريلا دون أن تستأذن الأمير، وكان لا ينفك يتبعها بتخفٍّ كي لا تلتقي بحيوان قاتل قبل وصولها لسور المدينة. وفي كل مرة كان ينظر لمديم أرغون كأنه المجهول المحبب إلى قلبه، المجهول الجميل الذي عليه انتزاعه بالقوة.

استمرت تقوم بالأمر ذاته لأسابيع؛ تذهب إلى أودين فيعلمها كيف تتحدث بشفتيها، وتراقب كل من يتحدث من قريب، ومن بعيد، وتحاول تقليد ما قاله بشفتيها، فتذهب إلى مطبخ القصر، وتراقب حديث العاملات، وتذهب إلى السوق تترقب أحاديث البائع والمشتري، وتقضي الوقت مع ليليان والخادمات تترقب أحاديثهن وحركة شفاهن من بعيد وتحاول أن تخمن ما موضوع الكلام، وتتدرب في غرفتها على تكرار الحركات بشفتيها ولسانها وفمها.

استمرت على الوضع ذاته لأسابيع وأسابيع، كلما تسنّى لها التسلل إلى الغابة ذهبت إلى أودين، تتبعه أينما ذهب كالقطة الملاصقة لصاحبها، لا تنفك تمشي خلفه وتذهب وتجيء حيثما يذهب ويجيء، ويحاول تشجيعها وعقابها بالصفع إذا ما أخفقت.

وكثيرًا ما يستمر سيرهم في الغابة لساعات، هو يمضي بجسده الصارخ المغطى بالقماش الأسود، ويتقدم وجهه قناعه المسخ وهي خلفه يتوارى كل جسدها البسيط في ظله. أحيانًا يذهبان إلى مكان للتحدث والتدريب، وأحيانا لصيد الأسماك أو الغزلان، وأحيانا إلى غير وجهة. استمرت على ذلك لأكثر من فصلين إلى أن أصبحت تجيد الحديث بشفتيها.

وفي أحد الأيام أخذها أودين بعيدًا عن الكوخ إلى القرب من جدول الماء الذي كانت تلقنه عنده "غيم" العلوم:

- الآن قولي أي شيء ترغبين في قوله لي بشفتيك، وأنا سأحاول تخمين ما تقولينه.

فبدأت تحرك شفتيها ولسانها وهي تود أن تقول: "عزيزي أودين"، فتبسمت نفسه من خلف قناعه، وقال:

- هذا أمر بديهي، كيف لا أميز بداية كل رسائلك، عليك أن تستخدمي كلمات جديدة كأي حديث عادي.

فصمتت تفكر قليلا ثم حركت شفتيها:

- لماذا لم تطلق السهم في ذلك اليوم عندما أردتَ صيد الغزالة وحُلتُ أنا بينكما؟

فصفعها بقوة، فثار غضبها، فقد كانت تتوقع أن يكافئها عِوضًا عن صفعها:

- حسنا لقد فهمتُ: "عزيزي أودين"، لماذا لم.. السهم.. صيد الغزالة"، هذا فقط ما فهمته، وهذا لا يكفي، اسمعي يا صغيرة، خطأ واحد، خطأ

واحد فقط سيكون كافيا لتعليق رأسك على بوابات المدينة، لذلك يجب أن تعلمي أنه ليس لديك فرصة للخطأ حقيقة، اتقفنا؟!

كان حزنها أنه لم يفهم سؤالها أكبر من قوة الصفعة وانتابها الغيظ:

- الآن اكتبي ما نطقتِ به، وحاولي نطقه بشفتيك مرة أخرى في نفس الوقت الذي أقوم أنا بقراءته فيه.

فكتبت:

عزيزي أودين، تبًّا لكَ!!

وبغيظ شديد مدت له القرطاس الذي لم يبدُ عليه الاندهاش عندما قرأ ما جاء فيه، ولم يعقّب على ما كتبته، فقط بدأ يقرأ وهي تحرك شفتيها في الوقت ذاته، فأحسنت ذلك:

- أحسنتِ، والآن جربي كتابة شيء آخر أطول من ذلك بقليل.

بدت مستغربة أنه لم يعاقبها، وكانت تقول في نفسها: إنه معلم مجنون، وقد كان يبدو كذلك بالفعل، لكن كان عليها أن تعرف رد السؤال فعادت تكتب:

عزيزي أودين، لماذا لم تطلق السهم في ذلك اليوم عندما أردتَ قتل الغزالة، وحلتُ أنا بينكما؟

ثم مدت له القرطاس مرة أخرى، وعاد يقرأ وهي تحرك شفتيها في الوقت ذاته، فأحسنت الأمر، لكنه لم يردّ على سؤالها:

- الآن أنت مستعدة، طالما أحسنت تمثيل النطق في نفس وقت النطق

الحقيقي بإمكاننا أن نبدأ بالخطة.

كانت تنظر إليه وهي عابئة بسؤالها أكثر من حديثه، وكان يرى ذلك في عينها لكنه لم يوقفه:

- ستذهبين إلى خادمتك، وتطلبين منها أن تقرأ ما تكتبينه وهي مختبئة في مكان قريب منك حتى لا يشعر أحد ببعد مصدر الصوت عنك، ولفعل ذلك ستعودين إلى المدينة وتأمرين بصنع منصة تتحدثين من عليها للناس، وتصنعين فيها مكانًا مخصصًا للاختباء؛ حيث ستقف الخادمة، شرط أن تكون خلفك مباشرة، وتقومين بحفظ ما تكتبينه جيدًا كي لا تسبقك بالحديث، ثم تخرجين إلى الناس لتعلني أن الآلهة منحتك صوتًا تواجهينهم به، هذا سيمنحك ثقة الناس التي ستمكنك من هدم قوة المعابد ويستقر الحكم لكِ.

بدت صامتة كأن لم تفقه شيئا، فحدّ إليها نظره، فأشارت برأسها أنها قد فهمت:

- حسنا إذًا الآن نعود إلى الكوخ لتكتبي ذلك الخطاب، أريني كيف سيكون؟

فأمسكت يده رافضة النهوض، وأعادت السؤال بشفتيها:

- لماذا لم تطلق السهم في ذلك اليوم عندما أردتَ قتل الغزالة، وحلتُ أنا بينكما؟

رأى حينها في عينيها ثبات يخبره أن الآن عليه أن يجيب، ولا يتهرب من سؤالها، فراح ينظر ناحية النهر محاولًا أن يجد ردًّا يجيبها به أيَّ ردّ حتى لو كان مجرد كلام مثير لغضبها، لكنّ شيئا في داخله ما كان يريد المراوغة، فقط يريد

أن يفضي بما في قلبه:

- لا أعرف... أنا حتى لا أعرف ما سبب وجودي هنا الآن، ولماذا أساعدك؟! هذا لا يبدو منطقيا بالنسبة إليَّ... لكني لا أحاول العثور على إجابات في الحقيقة، أنا فقط أشعر أني لا أريد أن أفكر، أريد أن يستمر الأمر وحسب، أعني أن تستمري في القدوم إلى هنا، أن أتابع السير وتلحقيني إلى كل مكان، أن يستمر هذا السير إلى الأبد بلا توقف أو تفسير، أنت وأحاديثك وكتاباتك كلُّ من أعرفه بعد غيم.

أحيانا أفكر في أمركِ فأرى فيك مجرد طفلة ساذجة، وأحيانا أرى أنك كل ما لديَّ في هذا العالم، أحيانًا أتخيل أنك مصدر إزعاج كبير وأَرَق، وأحيانًا أرى فيكِ سببًا للتمسك بالمزيد من هذه الحياة حتى لو كانت بائسة.

ثم عاد ينظر إليها وتابع ولكن هذه المرة بدا مهتما بالإجابة:

- لطالما سألت نفسي ذلك السؤال: لماذا لم أقتلك حينما سنحت لي الفرصة لذلك؟ حتى إني ما زلت أسأله: لماذا لا أقتلك الآن وأستولي على عرش مديم أرغون؟ لكن الحقيقة هي أني وفي المرة الأولى التي رأيتك فيها أردت الاحتفاظ بكِ. اعتدتُ التمتع بالنظر إليكِ، ربما كصديق غريب يلهو في الأرجاء، لكن بعد ذلك أظن أنني أصبحت أَنتظر عودتك إلى الغابة.

ظلتْ تنظر إليه إلى أن أنهى حديثه، ومن ثم عاودت النظر ناحية النهر. قد كانت هي الأخرى تعلم في نفسها أنها في الحقيقة تشعر بالأمر ذاته، هي أيضا لا تعرف لماذا تثق به، ولماذا هو من بين العالمين تطلب العون منه، لكنها لم تكن تريد أن تفكر كثيرًا هي الأخرى، كانت تتمنى لو أنَّ لسانها ينطق، فتقول: إنها تشعر أنها في الوطن بقربه فقط.

أحيانا نوقف عجلة الحياة لنفكر قليلًا في الطريق، لكن هذا لا يمنع استمرارها.

عادا سويًا إلى الكوخ بعد أن طلب منها أن تطلعه على الخطاب الذي سوف توجهه للكهنة، وبدأت تكتب.

عزيزي الكاهن،

- توقفي الآن، إنه شيء جديد أن تمنحك الآلهة صوتًا، وقد اعتاد كل من حولك قراءة رسائلك التي تبدأ بـ "عزيزي"، لو أنك فعلتِ الأمر ذاته لما أحسوا باختلاف حقيقي، عليهم أن يشعروا أن هذا شيء مختلفَ عمّا اعتادوا سماعه، بالإضافة إلى أنها ليست رسالة، إنه كلام منطوق هذه المرة، لا يبدأ بعزيزي.

فأشارت برأسها أنها فهمت، وعادت تكتب في قرطاس آخر:

أيها الكهنة، أيها الناس....

وعندما انتهت من كتابة الخطاب ووافق عليه "أودين" عادت إلى القصر، واستعدت "ليليان"، وأطلعتها على ما تنوي فعله في خطاب التماس لها، جاء فيه:

عزيزتي "ليليان"، أنت أكثر الخادمات إخلاصًا لي، والأكثر ثقة بين كل سكان هذا القصر، لطالما اعتدت أن أتحدث عبر صوتك للجميع، ولكني الآن أرغب أن تمنحيني صوتك دون أن يعلم أحد أنك المتحدثة، سآمر بصنع منصة كبيرة في وسط المدينة، وأصنع عليها ستارا أسود كبيرا تختبئين أنت خلفه كي لا يلاحظ أحد وجودك، ثم تبدئين بقراءة ما أكتبه بصوت

مرتفع وعال ومختلف قليلًا عن صوتك العادي كي لا يتعرف أحد عليه. ستقرئين أنت من القرطاس وأنا سأحفظ ما كتبتُ وأحرك شفتيَّ من أمامك فيظن الناس أني أنا المتحدثة.

قرأت ليليان خطاب ماكو وانتابها الفزع مما هو أمامها.

- لكن أميرتي، ماذا لو اكتشف أحدهم الأمر، ستعرضين كلينا للموت سيجز الكهنة أعناقنا بلا رحمة.

فعادت تكتب لها:

عزيزتي ليليان، أنا أميرة هذه البلاد، وأستطيع حمايتك، ولا أريدك أن تقلقي؛ سأصمم لكِ مخبأ كصندوق خشبي خلف الستار، فحتى لو فتح أحد الستار فإنه لن يكتشف أمرك.

فخفضت "ليليان" رأسها وقلبها ينتفض من الفزع، ولكنها عادت لتقول في طاعة:

- أمرك أميرتي.

عندها ابتسمت ماكو، ومدت يدها إلى رأس ليليان فرفعتها، وتهللت عيناها بالشكر لها على طاعتها. في اليوم التالي بدأت التدريب برفقة ليليان على إعداد الخطابات والنطق بها، واستمر الأمر لعدة أيام كانتا خلالها تغلقان باب غرفة ماكو جيدًا، وتجلسان أمام بعضهما البعض، فتتدرب ماكو على تحريك شفتيها في نفس وقت نطق ليليان، وتتدرب ليليان على إصدار الصوت بطبقات مختلفة عن تلك الخاصة بحديثها.

وعكفتا على التدريب إلى أن أتقن كلاهما الأمر، ومن ثم اتفقتا على أن

إشارة بدء الحديث هي أن تسمع ليليان صوت ضرب الرمح في الأرض. فكلما ضربت ماكو الرمح بدأ الحديث وكلما ضربت انتهى، وإذا تعرضتا لحوار مخالف لما هو مكتوب تقوم ماكو بضرب الرمح مرتين وتنصرف دون حديث، وتصمت ليليان إلى أن تسمح لها الفرصة بالانصراف.

ثم أعدت مرسومًا إلى كبير المهندسين في القصر وأمرت فيه باستدعائه ليقوم ببناء صرح ضخم في وسط المدينة كي تتحدث منه إلى الناس. وانتشر الخبر كالنار في الهشيم في كل أرجاء القصر، وعندما وصل مسامعَ من في القصر أن الأميرة ماكو ستتحدث إلى الناس عبر صرح ضخم في وسط المدينة هَبّ الجميع يسخرون منها؛ الناس والكهنة والحرس. لكن عندما سمعت جاميل بالأمر اقتحمت مجلس العرش وهي تجتاز الحراس في غضب:

- أي صرح تريدين بناءه؟ وبأي صوت ستتحدثين إلى الناس؟ هل ستبنين صرحًا لتخبري الناس أنك لا يمكنك الحديث وأنك تتحدثين عبر خادمة؟

و لحق بها "أكتيفوس" ليحاول إدراك الأمر، فسمع حديث "جاميل" وقرر التدخل ليظهر أنه الفرد المسيطر:

- سيدتي جاميل، أنت ترهقين نفسك بالغضب، في الأساس لا يمكن لخزينة القصر أن تموّل هذا المشروع، لا تقلقي، لن نسمح للأميرة ببناء صرح تخرج فيه إلى الناس للتحدث عبر خادمة فتعرّض القصر الحاكم للحرج.

كانت تنظر لكليهما بعين صامتة وقلب يتفجر من الشوق للمفاجأة التي توقعتها وأعدت لها، فجاءت الفاجعة لـ "جاميل" و"أكتيفوس"؛ إذ قامت ماكو من مقامها بعدما سمعت حديثهما في غير تعقيب أو حتى إظهار

للغضب في ملامح وجهها، وضربت الأرض برمحها بقوة، لكي تعطي الإشارة لـ "ليليان" التي كانت تختبئ خلف كرسي الحاكم في ناقوس خشبي صغير، لتقرأ ما كتبته "ماكو" تحسبا لمثل هذا الموقف:

- أنا الأميرة "ماكو" الوصية على العرش لحين عودة الحاكم "سيزوس" من أرض المعركة.

وضربت الأرض برمحها مرة أخرى.

كنيزك هبط من السماء فجأة على رأس كلِّ مَن في القاعة، كبير المهندسين والخدم وجاميل وأكتيفوس الذين بدا عليهم الصدمة والفزع، وعاد الصوت يستمر في وسط استنكارهم لكل ما يجري كأنهم لا يريدون إدراك الواقع.

انتهت فترة الصمت فقامت ماكو بضرب الأرض بالرمح لكي تشير إلى ليليان ببدء الحديث وعاد الصوت:

- قد أمرتُ ببناء صرح في وسط المدينة أتحدث من خلاله إلى الناس، وأنتظر تنفيذ أوامري بدون اعتراض من أحد، أيها الحراس، إذا لم يبدأ مهندسو القصر بالبناء من الغد، فهذا أمر مني بتعليق رؤوسهم جميعًا على بوابات مديم أرغون بتهمة العصيان.

ثم عادت تضرب الأرض برمحها مرة أخرى وهي تنظر في ثبات إلى عين جاميل التي خرّت ساقطة على ركبتيها أمام ابنتها من هول ما سمعته لتوها:

- ابنتي!!

بعد أن أحسنت "ماكو" استغلال لغة شفتيها في نفس وقت نطق "ليليان"، صعق "أكتيفوس" هو الآخر لما سمعه حتى كاد يلحق بـ "جاميل" في السقوط

واهتزت قدماه.

فعادت ماكو تدق الأرض برمحها لتكمل ليليان القراءة:

- الآن وقد ألقيت أوامري، فبحلول صباح اليوم الذي يلي يومنا هذا بيومين، سأتحدث إلى الناس عبر منصتي، فأتمنى أن تكون جاهزة لذلك، كي لا أضطر لاستخدام سلطتي في عقاب من يقفون ضد أوامر عرش مديم أرغون، والآن آذنُ لكم بمغادرة القاعة جميعًا.

ثم ضربت الأرض بالرمح وعادت تجلس في سكون وهدوء ونظرات ثابته إلى وجوه مَن أمامها؛ انتقاما لكل ذلك الوقت الذي لم تستطع فيه الصُّراخ في وجوه الجميع.

أقبلت وصيفات "جاميل" يساعدنها على الوقوف من مقامها تلملم جسدها المنتفض، لتغادر القاعة في فزع، ولحق بها أكتيفوس، وما إن غادرا القاعة وأوصلتها الوصيفات إلى غرفتها حتى بدأ رأسها هي وأكتيفوس بالتخبط. جلس أكتيفوس على الأريكة كأنما يُلقي جسده المثقل بالفزع بجوار جاميل.

- ابنتك!! لقد تحدثت!! كيف؟ كيف حدث هذا؟ ومتى؟

- لا أعرف.. أنا لا أستطيع فهم أي شيء.

تحدث أكتيفوس كالمثقل رأسه بالخمر:

- إنها لا تتمتم، إنها تتحدث، تتحدث وكأنما لم تكن يوما بكماء.

- أنا لا أفهم شيئا، أنا لا أفهم أي شيء، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها

صوتها، أهكذا هو؟

وجد أكتيفوس جاميل قد أخذت بحديث ابنتها وأراد أن يوقظها على حقيقة أنها متورطة في خيانة سيزوس:

- أفيقي، أتدرين الآن حجم المخاطر التي سنقع فيها لو عاد "سيزوس" لعرش مديم أرغون، سيعلق رؤوس الجميع على بوابات المدينة، سأذهب إلى "زاكوم" لأخبره بما حدث.

- كلا، عليك أن تبقى لتعلن بدء أعمال البناء، نحن لا نريد أن نثير غضبها الآن، وإلا زَجّت بنا جميعًا في السجن، اِذهب أنت للمهندسين فاؤمرهم ببدء البناء، وسأذهب أنا لأخبر "زاكوم" بما حدث.

كانت "ماكو" تعلم أنها حرّكت الحجر الأول في لعبة الشطرنج، والآن عليها أن تنتظر رد الخصوم. وبينما ذهبت "جاميل" إلى "زاكوم" لتطلعه على ما حدث عادت "ماكو" وليليان إلى الغرفة ليتدربا على الحديث القادم؛ استعدادًا للحركة التالية.

في ذلك الوقت وصلت "جاميل إلى "زاكوم" الذي كان في المعبد يمارس الصلوات أمام صغار الكهنة، وما إن ظهرت "جاميل" بثوبها الملكي وتأكدت أنه رآها حتى سبقته إلى غرفته في المعبد، فعرف أن الخطب عاجل، فسلم أمر الصلوات إلى أحد الكهنة، وقام يلحق بها.

- هل جاءت سيدة القصر لتقدم العطايا للآلهة.

استدارت إليه بعين ثابتة، وقالت:

- لقد نطقت...



فنظر إليها كأنما يستبين ما هو مستحيل حدوثه، فتابعت:

- "ماكو" تنطق وببراعة كأنها لم تكن يومًا بكماء!!

- ماذا تقولين؟ هل فقدتِ عقلك؟!

- لو أنك كنت في حضرتها قبل قليل في القصر وسمعتها تنطق بثقة وبراعة لفقدت عقلك أيضًا. ليس هذا وحسب، إنها تريد بناء صرح في وسط المدينة لتحدث الناس من خلاله.

وقف "زاكوم" قليلا يفكر فيما قالته "جاميل" دون أن يصدقه:

- تقولين إنها تحدثت؟ وأنها سوف تبني صرحا تتحدث من خلاله إلى الناس؟

- نعم.

- متى؟

- بعد يومين من الآن.

- حسنًا، بعد يومين نلتقي في وسط المدينة، اُعذريني سيدتي، عليَّ متابعة الصلوات حفظتك الآلهة.

كان آخر ما قاله "زاكوم" إشارة واضحة لأنه لم يقدر ما قالته "جاميل" حق قدره، وتركها وهو يملك حق اليقين أنها تهذي.

لكن قد صدقت ماكو؛ إذ قامت بالإشراف على أعمال بناء الصرح بنفسها، وكانت تجوب وسط المدينة على صهوة جوادها كأنما تتوعد الجميع، وعندما تعود للقصر كانت تتعمد البعد عن مصادفات الحديث، فقد كانت

تسرع لغرفتها دون أن تسمح لأحد بالوقوف أمامها مِن الحرس أو الخدم، فقط عندما أرادت شيئا كان تكتبه لليليان وترسلها بدلًا عنها بحجة ممارسة الصلوات سرًا في غرفتها شكرا للآلهة على ما فعلته لها. وكان ممنوعًا لأي أحد دخول الغرفة غير الخادمة ليليان كي لا يقطع صلاتها، والحقيقة أنهما كانا يتدربان أكثر على الخطاب الجديد.

وكانت دائمة النظرمن شرفة غرفتها، هل يأتي غريبُ الغابةِ ليساندها في اليوم الكبير؟ وطلبت أن يأتوا إليها بالرسوم المخصصة للبناء، واطَّلعت عليها وأمرت بتعديلٍ فيها يسمح بوجود صندوق خشبي كبير خلف الستار، لكي تقف فيه "ليليانً، موضحة أن الصندوق سيستخدمه الراقصات ومقدمو السهرات بعد ذلك في حفظ أغراضهم أثناء العروض التي سيقدمونها لأهل المدينة.

تم الأمر في وقت قياسي بسبب إصرارها على ذلك من خلال الأوامر التي كانت ترسلها عبر ليليان، واستغرق البناء العديد من العاملين الأمر الذي جعله حديث المدينة كلها، وبعد يومين نادَى مُنادٍ في الناس ليجمعهم أمام صرح الأميرة "ماكو"، واجتمع الكهنة على رأسهم زاكوم والسيدة "جاميل" ورئيس الحرس "أكتيفوس" يجلسون على مدرجات قريبة من مسرح الأميرة، والكل يترقب أن يرى ويسمع الأميرة وهي تتحدث، وقد كان زاكوم إلى تلك اللحظة لا يصدق أنها ستفعل، كان يخيل إليه أنها ستقف صامتة أمام الجميع وتكون مَدْعاة للسخرية.

أتت أميرة القصر في ثوبها الأبيض الذي يزين جسدها بزينة الملكات، والمرصع بالذهب من على كتفها، وتاجها المزين بلؤلؤ البحر من فوق جدائل

شعرها السوداء اللامعة كالفضاء، وصعدت على صرحها بقوة وهي تحمل رمحها، بينما يترقب الجميع في ذهول من جمالها وثقتها في نفسها، وقد كانت وقتها ابنة الربيع الثاني عشر التي تخطّت كلَّ حدود فكرهم عن كونها مجرد طفلة دفعة واحدة.

صعدت إلى المنصة وراحت تنظر إلى الصمت في عيون الجميع، وهم ينظرون إليها كأنما ينتظرون خطبا جللا، فوقفت تنظر للجميع في صمتهم لبرهة من الوقت كأنها ترتوي من حيرتهم وضعفهم، ثم ضربت الأرض برمحها وبدأ الحديث بالخطاب الذي أعدته هي و"أودين" وتدربت عليه كثيرًا هي و"ليليان":

- أيها الكهنة، أيها الناس،

قام الجميع يثرثر لا أحد يصدق ما يحدث، وصعق زاكوم في مقامه كأن معبده سقط فوق رأسه للتو دفعة واحدة، فعادت ماكو تستعيد الهدوء، وتعطي الإشارة لليليان بالمتابعة، فضربت الأرض برمحها بقوة وعادت للحديث:

... لقد منحتني الآلهة صوتًا لأتحدث به إليكم، لقد عكفت أشكو لها ما أصابني من لعنةٍ بعدم النطق، وعن عدم قدرتي على إدارة المدينة بدون لسان ينطق فمنحوني صوتًا لكي أتحدث به إليكم.

سمعت صوتًا في أذني يخبرني أنه ليس عليَّ أن أتنازل عن الحكم؛ لأني أصلح الأمراء بعرش هذه المدينة إلى حين عودة الحاكم "سيزوس"، لذلك منحتني صوتًا وقوة لنتجاوز هذه الأيام الصعبة سويًا.

وتابعت وسط ذهول الجميع وصمتهم:

وبهذه المناسبة أتقدم بالشكر للكاهن الأعظم "زاكوم" لأجل الطقوس التي كان يُشرف عليها لتعيد الآلهة الصوت إليَّ، واحتفالاً بهذا العطاء الآن سينطلق أقوى فرسان القصر بقيادة القائد "أكتيفوس" في رحلة صيد للغزلان البرية، هذا بالإضافة إلى الأضاحي من البقر والأغنام لتقام الولائم لمدة يومين في القصر الحاكم ومعابد المدينة احتفالاً بعطاء الآلهة إلينا.

قام جميع الحضور مهللين، ولا يزال زاكوم مأخوذًا بسكرته لا يجرؤ على النطق كأنما عُقد لسانه كأنما أصابه الخرسُ، لا يستطيع استيعاب شيء مما يحدث ولا يستطيع تكذيبه.

و عادت تدق الأرض برمحها إشارة لانتهاء الحديث، ثم انصرفت من على المسرح وهي تلوّح بيدها لجموع المهللين من الناس، وحتى الكهنة الذين كانوا يعارضونها في السابق الآن يهللون لها بعدما شكرت لهم عودة صوتها إليها، وإلى المعبد.

وبدأت العيون تنظر إلى بعضها بتخبط، الآن يفكر "أكتيفوس" أن زاكوم خانهم ويرغب بالاستيلاء على العرش بمفرده من خلال الأميرة بعدما أعاد لها صوتها. ولكن الكاذب هو الأكثر علما بالحقيقة، ويعرف زاكوم جيدًا أنه مستحيل أن تنطق الفتاة، فلا يعرف لماذا أرجعت إليه "ماكو" عودة صوتها على الرغم من يقينه أن هذا لا يمكن أن يحدث ولا يمكن أن يحدث أيضا أن يعود لها صوتها!!! ولا يقدر أن يرجع إلى كهنته المهللين بنصره فيخبرهم أنه ما من نصر، ولا يقدر على إخراج المعبد من القصة بعدما أشركته "ماكو" بشكل رئيس عندما أعادت الفضل في عودة صوتها إلى الكهنة و"زاكوم".

بينما الكل متخبط في مكانه لا يدري ماذا يفعل، بدأ الكهنة يلتفّون حول "زاكوم" مهللين بالنصر، عائدين به إلى المعبد قبل أن يتمكن من الحديث إلى "أكتيفوس" الذي كانت عيناه تفيضان بالغيظ، وانصرف خلف السيدة "جاميل" عائدَيْن إلى القصر يلملمان جسديهما كمن به كارثة.

عندما وصلا إلى القصر رافق أكتيفوس جاميل إلى غرفتها، وبمجرد انصراف الحرس سحب خنجره وثبّته على رقبتها:

- اتفقت أنت وزاكوم عليَّ إذًا!! ترسلوني في رحلة صيد إلى الغابة لأموت بسهم غادر ويتسنى لكما الحكم والعرش تحت وطأة تلك الشيطانة الصغيرة.

تفاجأت جاميل برد فعله المتهور، وبدأت بدفعه بعيدًا عنها:

- إليك عني أيها الأخرق! أنا الآن معك في نفس القارب، هل تراها شكرت إليَّ أنا عودة صوتها أم إلى زاكوم؟!

هَدَأ روعه، وأدرك أنها معه في نفس القارب الخاسر.

- ماذا الآن؟

- عليك بـ "زاكوم"، عندما ذهبت أخبره أن الفتاة نطقت لم يبدُ مهتمًّا حتى لم يصعق مثلنا كأنه كان يعرف كل شيء، والآن اتضحت الأمور، لقد أقرت أنه ساعدها لتجد صوتًا لها، بما أنه هو من ساعدها لتستعيد صوتها، وتشجع الناس، ربما يطيح بكلينا ويحكم هو من خلالها.

أدرك الاثنان أنهما وقعا في فخ زاكوم، والحقيقة هي أنهم جميعا وقعوا في فخ ماكو، وبعدما تخبط الجميع الآن تبدلت الأدوار، وأصبحت ماكو هي التي تراقب الأوضاع بفضل خطة أودين، تنظر من شرفتها، وتتخيل أنه

قريب في الأرجاء يرى ويسمع.

وفي تلك الليلة قبل أن يحل الصباح ويضطر "أكتيفوس" أن يخرج للغابة في رحلة صيد كان " زاكوم" يجلس في غرفة في المعبد إلى شعلة صغيرة ورأسه لا يأتي بشيء من النتيجة تفسيرًا لما حدث، ثم شعر برأس رمح يثبت على ظهره مقابلا لمنتصف صدره فعرف أنه "أكتيفوس"، فصمت قليلا في استياء ينظر إلى كل زوايا الغرفة من أمامه ويفكر في ذلك الشَّرَك الذي سقط فيه من فعلة طفلة صغيرة، ثم بدأ يحدثه:

- إنك ابنٌ عجولٌ لا يتعلم أبدًا يا "أكتيفوس"! أتظن أنني قد أعتمد في الحكم على فتاة لم تتجاوز عقود الحكمة وأتخلَّى عن رجل حرب مثلك؟ إن داعي سلامٍ مثلي بحاجة لرجل قتال ليس لفتاة تلهو في الأرجاء.

- إن لم تكن لتفعل لماذا أعدت لها صوتها؟

- إن آلهتنا تقدر على كل شيء، لكنها لا تحيي ميتًا ولا تُنطق الأبكم، ولا تُبصر الأعمى يا بني.

- لا بد أنك استخدمت شيئا من السحر إذًا.

- كلُّ كتب السحر التي خلّفها مَن سكنوا هذه المدينة قبلنا قمت أنا بيدي بحرقها، فكيف أستخدم السحر لشفائها؟!!

ثار أكتيفوس وسحب رمحه وصاح غاضبا:

- إذًا ماذا حدث؟ كيف نطقت بين ليلة وضحاها؟

اعتدل زاكوم بعد أن اطمأنَّ أنه في مأمن وتابع:

– ليس هذا هو السؤال المهم، إنما لماذا أرجعت الفضل في ذلك للمعبد؟

عاد أكتيفوس يوجه الرمح إلى موضعه ويستنكر حديث زاكوم:

– أحقًّا تطرح هذا السؤال؟

– "أكتيفوس"، إليك بالرمح عن ظهري، وتأدب وإلا لعنتك الآلهة يا ولدي.

بدا على أكتيفوس الغضب الميؤوس منه، وسحب رمحه عن "زاكوم"، وهَمّ بالانصراف، لكنه فتح الباب ليجد "جاميل" تقف عليه كأنها تنتظر أن يفتح الباب، فدخلت ومنعته من الرحيل:

– ما قاله الكاهن الأعظم يستحق التفكير، لماذا نسبت "ماكو" الفضل في عودة صوتها إلى المعبد على الرغم من أنها كانت أكثر شخص يضيق ذرعا بطقوس الشفاء التي كانت تعد لأجلها في المعبد؟!

ثم جلست إلى جوار "زاكوم" على الأرض بينما ظل "أكتيفوس" واقفًا على قدميه.

– يا " زاكوم " الحكيم، أخبرني، كيف نطقت ابنتي؟ وكيف تبدل حالها بين ليلة وضحاها؟

أجابها زاكوم وهو ينظر للشعلة البسيطة أمامه:

– لقد قلتُ سابقًا: إن الحرب أرضٌ مُباح فيها الممنوع، ولا أحد يعلم من أي بقعة سينهض الوحش، جميعنا الآن مرهون بما في رأس ابنتك، ولا يسعنا سوى الانتظار حتى يحين دور الخطوة التالية، كل ما نفكر فيه الآن هو مجرد

تكهنات، لا نعلم صحتها من عدم صحتها.

عاد "أكتيفوس" يكرر السؤال ذاته بغضب:

- ما الذي يدفعها لتنسب الفضل إلى المعبد وإليك؟!

ردت جاميل برويَّة:

- ربما أرادت أن تستميل المعبد ليساعدها على مواجهة الجوع والفقر في الأيام المقبلة، فلما رأت رفض الكاهن الأعظم في الاجتماع السابق أرادت جذبه إليها باللين، لكن كيف تنطق من بعد صمت؟

- نحن لا نعلم كيف نطقت من بعد صمت، ولا يمكننا أن نجزم أنها تريد استمالة المعبد، وأيضا لا يمكننا أن نخرج للناس ونقول: إنها تكذب. الآن هذه الفتاة تمسكنا جميعًا بسلاسل من نار لا ترى كأنها خيوط من حرير، ولا يسعنا سوى أن نُبقي أعيننا عليها وننتظر.

وانفض حينها اجتماع الثلاثة دون الوصول إلى خلاص.

كانت ماكو تعلم حق العلم أن كل خطوة تخطوها من تلك اللحظة ستكون مراقَبة وبشدة، لذلك كان عليها أن تقلل من تسللها إلى الغابة إلى حين تهدأ الأمور وتنتهي ولائم الاحتفال.

في اليوم التالي جاء "أكتيفوس" في جمع من حرسه يطلبون مباركة الأميرة قبل الذهاب إلى الصيد، فاستعدت هي وليليان لقول جملة واحدة بعد مقدمتهم الشرفية؛ حيث كانت "ليليان" تختبئ خلف كرسي الحاكم وتجلس "ماكو" عليه، فقال "أكتيفوس":

- أميرتي، أتينا أنا وفرقة الحرس نطلب مباركتك قبل الرحيل للصيد.

- اِذهبوا رافقتكم مباركة الأميرة والقصر الحاكم.

بعدما انصرف "أكتيفوس" من القاعة دخلت السيدة "جاميل" خلفه فخفق قلب "ماكو"؛ إذ لم تُعدّ شيئا لقوله لها.

- ابنتي الغالية، كيف يبعدك القصر عني فلا أستطيع أن آتي إليك وأهنئك بتلك الهبة؟

ارتبكت ليليان ونظرت ماكو بعين حائرة، ماذا الآن؟!

كان على "ماكو" أن تجد حلًّا للمشكلة على الفور؛ فقامت من مقامها، وابتسمت وأدت تحية الشكر الخاصة بالأميرات؛ وهي أنها نزلت بركبتيها قليلًا، وأمالت رأسها في ابتسام رقيق، ثم أسرعت بالانصراف من القاعة دون أن تقول شيئا لـ "جاميل" التي ظلت تراقبها وهي تنصرف من أمامها، ظنا منها أنها لا تريد الحديث إليها؛ لأنها ساندت "أكتيفوس" ضدها.

وخفق قلب "ليليان" بشدة من أن تكتشف السيدة "جاميل" مكانها خلف كرسي الحكم، لكن حالفها هي و"ماكو" الحظ؛ إذ غادرت "جاميل" دون أن تلحظ اختباء "ليليان" التي سارعت باللحاق بأميرتها إلى غرفتها:

- أميرتي، لقد انشقَّ قلبي عندما دخلت السيدة "جاميل"، لم أكن لأعلم ماذا سأفعل؟!

أمسكت ماكو بساعد ليليان لتهدّئ من روعها وهي تتنفس الصعداء. كانت "ماكو" قد فكّرت في حلٍّ سلفا لمثل هذه المشكلة، فكتبت لـ "ليليان":

عزيزتي ليليان، لا بأس، لقد نجونا هذه المرة، لكني فكرت في حل لهذه المشكلة، ستذهبين الآن إلى حاجب البهو وتخبرينه أنه ممنوع عليه إدخال أي أحد إلى بهو الحكم قبل أن يطلب إذن الأميرة "ماكو" في الدخول، ستأخذين معك قرطاسًا وقلماً لأكتب لكِ فيه إذا ما تعثرت الأمور، وسأحاول أن أكتب كلمات تجعلنا نتحكم في طبيعة الحوار وقلته كي لا تنكشف الأمور، وسأقلل من إذن الدخول إلى البهو، وسأقلل من جلوسي فيه كي لا نضطر للحديث طوال الوقت، وكلما سألك أحد عني قولي: إني في غرفتي أصلي للآلهة.

فقرأت "يليان" ثم عادت تسأل:

- و ماذا عن درس القتال أميرتي؟ ماذا ستفعلين لو أن أحدهم تحدث إليك؟ وهل يمكننا القول للأبد أنك تصلين للآلهة؟

فكتبت:

عزيزتي ليليان، سأمتنع عن الانضمام لدرس القتال، لا تقلقي سأدبر أمري في هذا.

ثم عادت تكتب:

الآن اُخرجي إلى الخادم على باب غرفتي، وأخبريه أني سأنام طوال النهار، وأني أمنعه من دخول أي أحد الغرفة أثناء نومي، حتى أمي السيدة "جاميل"، ومن ثم تعالي اُدخلي الغرفة مرة أخرى.

عندما عادت ليليان طلبت "ماكو" منها أن يبدلا الملابس فتغادر هي في ثياب الخادمات بينما تبقى "ليليان" في غرفتها إلى حين عودتها من الغابة. وقد فعلت وغطت وجهها ثم غادرت الغرفة، وظن الحارس أن ليليان هي التي

غادرت وليس ماكو.

عادت ماكو تتسلل في ثياب ليليان إلى الغابة، ثم أسرعت لتخبر "أودين" كيف جرت الأمور. عندما وصلت كان ينتظرها خارج الكوخ، وكأنه على علم بقدومها، جلست أمامه تنظر إليه بشغف كبير، وتتحدث بلغة شفتيها وعيناها تفيضان بالفرحة، لكنه ما كان منتبهًا حتى إلى حديثها، ولا يقرأ شفتيها، ولا يدري حتى ما تقوله، قد كان يفكر فقط في حماسها وعينيها المشعتين، وكيف أنها أصبحت فجأة ليست مجرد طفلة.

- توقفي، هيا، هل علمتُك الحديث بشفتيك لتثرثري؟ أكرة الثرثرة.

فتوقفت عن الحديث وتابع هو:

- هل دائما ترتدي الأميرات ثيابًا بهذا القدر من الجمال في مدينتكم؟

أراد أن يخبرها أنه ما من حاجة لترهق نفسها بالحديث، فهو يعلم ما حدث؛ إذ تسلل إلى لمدينة في زي الفلاحين منكسًا رأسه كي لا يعرفه الحراس، وبقي فيها إلى أن كان بين الحضور يوم الخطاب وهي صعقت من هول ما تسمع إلى حد أنها اكتفت بالصمت والنظر إليه، فتابع:

- أنا لستُ جبانًا، لكن ربما أحتاج القليل من شجاعتي مع بعض الذكاء، هذا كل ما في الأمر... بإمكاني تجاوز هذه التماثيل إذا أردتُ، أنا لا أخشى الوقوف خارجها، ولا أخشى حتى تجاوز أسوار المدينة، ولا يهمني إن عُلقت رؤوس الجميع على الأبواب، ربما أنا أسعى ليفهم الجميع خطأهم، هذا كل شيء، لكن لا يمنعني شيء من الحضور إلى مديم أرغون، أنا لست شيطانًا.

نظرت إليه بأسف، وكل ما جال في خاطرها ولم تستطع النطق به:

– بل إنك تخشى يا صديقي، ويصيبك الارتجاف، بل إنك تربيت في الخوف، وكل لحظة تريد الانتقام منه.

قام إلى الكوخ وجلب رمحين، وألقى لها واحدًا على الأرض فنظرت إليه باستغراب:

– ماذا؟! إِن كنتِ ستَحْكُمين عليك أن تجيدي القتال.

تحدثت بشفتيها:

– هي ليست حربًا.

– من يمكنه أن يجزم؟!

ثم رفع رمحه استعدادًا لقتالها، وقبل أن يبدأ التدريب عادت تسأله بشفتيها:

– كيف دخلتَ المدينة؟

فضرب قدميها بمؤخرة الرمح فسقطت على الأرض:

– الدرس الأول في القتال: لا يجب أن تفكري في أي شيء سوى حماية نفسك أولًا، ثم توجيه الضربة عندما تسمح الفرصة.

فضربت هي الأرض بيدها، ثم عادت تلتقط الرمح، وبدأ التدريب، لم يكن معلمًا سهلًا، قد كان لا يرحم ضعف جسدها. كانت تستمر التدريبات بقسوة، وتستمر في التسلل إلى الغابة لتكمل التدريبات على استخدام الرمح والقوس والسهام.

وفي المدينة أقيمت الاحتفالات بالآلهة التي تغيبت عنها حتى لا تضطر للحديث إلى أحد، وقد استمرت في التردد على المعبد لتُرِي الناسَ أنها الآن أقرب للآلهة، وأنها تتواصل معهم فتقضي الصلوات في صمت وتعود للقصر. وفي أحد الأيام بينما كانت تجلس في بهو القصر دخل الحاجب ليخبرها أن الكاهن الأعظم "زاكوم" يرغب برؤيتها، فارتجف قلب "ليليان"، وتأخرت في قول الجملة التي اتفقا عليها في مثل هذا الموقف، فأمسكت ماكو رمحها، وضربت به الأرض مرتين، لتنبه ليليان أن عليها بدء الكلام، وقد كان؛ فبمجرد انطلاق الصوت حرّكت ماكو شفتيها:

- حسنًا أخبره أن الأميرة ستسمح بدخوله للقاعة بعد قليل.

إذ كانت قد أعدت هذه الجملة لتمنح نفسها بعض الوقت لإعداد خطاب للوافدين إليها، ثم قامتا إلى غرفة مجاورة لقاعة الحكم هي وليليان، وأتت بالقرطاس وكتبت حوارا محسوبا تكون بدايته هي الناطقة فيه وباقيه كلامًا عامًا محسوبا لأي قول يقوله؛ إذ أرادت أن تدير الحوار هي، وربطت على قلب ليليان كي لا تفزع، وتفسد الأمر برمته.

ثم دخلت القاعة مرة أخرى بعد أن جعلت ليليان تطلب من إحدى الخادمات أن تأذن بدخول الكاهن، وبمجرد أن أدارت الخادمة ظهرها، اختبأت "ليليان" خلف الكرسي، وجلست "ماكو" عليه، وبمجرد رؤية الكاهن يدخل القاعة ضربت ماكو الأرض برمحها برفق لكي تبدأ ليليان الحديث:

- أيها الكاهن الأعظم، نتوقع أنك أتيتنا زائرًا، لتشكرنا على الولائم التي أعدت للرعية.

ارتبك "زاكوم" إذ كان يتوقع أن يكون حوارًا عدوانيًا، ولكنه لم يكن يملك شيئا سوى مجاراتها في الحديث:

- نعم بالتأكيد أيتها الأميرة ماكو، لكـ..

فعادت تحرك الرمح:

- نعم، ونتوقع أيضًا أنك أتيت تشكرنا على إظهار الحقيقة للجميع، وأنك أديت الصلوات بشكل جيد لكي تستجيب الآلهة.

- نعم، لكنـ....

فعادت تحرك الرمح.

- نحن نفعل كل هذا لكي نحافظ على المدينة لحين عودة الحاكم "سيزوس"، لقد تجاوزنا الشهور الماضية معًا، وسنتجاوز القادم أيضًا، أطلب إليك أيها الكاهن "زاكوم" أن تستمر في صلواتك لأجل المقاتلين في أرض المعركة كي تحفظهم الآلهة.

- نعم طبعًا.

فعادت تحرك الرمح.

- والآن اُعذرني؛ فعليَّ الذهاب؛ لأنه قد حان وقت جولتي في السوق لتفقد أحوال الرعية.

ثم نزلت من على الكرسي مغادرةً القاعة دون النظر إلى "زاكوم" الذي كان مندهشًا لما حدث، إلى حد أنه لم يعلق وهي تعلم أنه أعطته ما تريد هي أن تعطيه وهو المزيد من صوتها والمزيد من صمته.

بقي زاكوم مندهشًا مما حدث قليلًا لكن كان عليه الانصراف خلفها ليحفظ ماء وجهه أمام رجاله، وبمجرد أن خرج زاكوم خرجت "ليليان" من خلف الكرسي، ليهدأ قلبها من تمثيلية أخرى قامت بها، ثم لحقت بـ "ماكو" التي كانت تنتظرها في غرفتها، وعندما رأتها أمامها تنفست الصعداء.

عندما دخلت كانت "ماكو" قد أعدت للخطوة التالية، وكتبت في قرطاس لـــــــــــ"ليليان":

عزيزتي ليليان، سيكون عليك أن تستعدي؛ لأني سأعد خطابًا جديدًا نلقيه على الناس بعد يومين من الآن، ولكن حاليًا اطلبي من قائد الحرس أن يعد الموكب؛ لأني سأذهب إلى المعبد.

كان على ماكو أن تظهر للناس اهتمامها بالمعبد والآلهة؛ ليصدقوا أنها تنطق عنهم فيفعلوا كل ما تطلبه، حتى إن جولة سريعة في المعبد دون الاضطرار للحديث مع أحد، فقط يكفي أن تلوح للناس من عربتها ذهابًا وإيابًا، فيعرفون أنها كانت في المعبد..

ولكن كانت البلاد على وشك مواجهة مجاعات وأزمات في وضع الحرب، لم تعد القوافل تمرّ بالمدينة، وكان الفقر قد بدأ ينشر أجنحته على الجميع. كانت "ماكو" تدرك أنه ليس لديها المزيد من الوقت لتخرج ثروات الكهنة فتسد بها جوع الرعية قبل أن تخسر المدينة.

فعادت تتسلل إلى الغابة؛ حيث أودين لتعد الخطاب الجديد، وتستمر تدريبات القتال رغم أنها بالكاد كانت قد تجاوزت الثانية عشرة إلا أن تدريبات معلمها أتت بفائدة قوية، لكن في ذلك اليوم لم يكن "أودين" ليكتفي بكفاءتها في القتال، بينما يتدربان على القتال بالرمح خدعته بحركتين؛

غرست رأس الرمح في الأرض وأركزت كافة جسدها عليه لتضربه بقدمها، لكنه تفادها وقد كان هذا ما توقعته، فنزعت الرمح من الأرض بينما تعيد الوقوف وضربت قدم "أودين" بنهاية الرمح فسقط على ظهره، حينها أدهشه ذكاؤها:

- تفوقتِ عليَّ إذًا.

فنظرت بحماس المنتصر:

- آه لا بأس، تأخذين بالثأر إذًا.

أشارت برفع كتفيها، إنها حتى لا تهتم.

- حسنا، أعتقد أنك مستعدة الآن لدرس جديد، هيا سنتجاوز التماثيل إلى الغابة، نحن بحاجة لصيد العشاء على كل حال، أحضري رمحك.

فهمت من حديثه أنها ستقوم بالصيد، فتأخرت ورفضت؛ هي لم تظن يومًا أنها ستقوم بالصيد، ولم تأتها الفرصة لتعبّر عن كرهها لقتل الحيوانات. لكن من نظرها للأرض وشرودها عرف أودين ما في نفسها دون حاجتها إلى الحديث بشفتيها، فرفع رأس رمحه إلى منتصف رقبتها، فصُدمت من فعلته وتجمدت في مكانها، ولكن ما فعله فاق كل توقعاتها؛ إذ تابع هو الضغط برأس الرمح على رقبتها إلى أن سال دمٌ من رأس الرمح:

- هذه ليست مزحة، لا يمكنكِ الآن التمتع برفاهية عدم التفكير في القتل دفاعًا عن نفسك، هذا يحدث... يحدث أن يأتي أحدهم ويشق صدرك برمحه، أو يقطع رقبتك بسيفه، وليس لديك الآن رفاهية أن تتوقعي أن هذا من الخيال. تأكلين اللحوم، كيف تظنين أنها تأتي إلى مائدتك الفاخرة إذًا؟

تلك المضغة الرقيقة في قلبك لم يعد هناك رفاهية امتلاكها الآن، إن المخاطرة بامتلاك رفاهية عدم القتل تعني تعريض حياتك للانتهاء في أي لحظة، وأنا لم أخطط أن أفشل بهذه السرعة.

ثم قام بسحب الرمح عن رقبتها، وليس فقط الدم هو ما يسيل منها بل دمع فَرّ من عين واحدة اختلط بتلك الدماء، لكنه لم يكن ليكترث.

- الآن كفي دموعك السخيفة تلك، سأتناول اليوم لحم الغزال على العشاء لكن ليس من صيدي.

ثم بدأ يجتاز التماثيل وهو متأكد أنها ستجلب الرمح وتتبعه، وقد صدق حدثه فقد كان. كفكفت دموعها، وأتت من على الأرض بقطعة طين فوضعتها على جرح رقبتها وحملت الرمح وتبعته، فقد كانت تعلم أنه ما من سبيل للتراجع الآن. وبدآ يتجاوزان الأشجار في الغابة، يتقدمها وهي تتبعه في صمت إلى أن صادفهما في السير أرنب بري، فأصابه أودين بسهم سريع دون حتى اتخاذ وضع للسكون، وتوقعت "ماكو" أن يكتفي بهذا الصيد، إلا أنه حتى لم يكترث له ولم يحضره، ثم نظر إليها وقال:

- تعلمين، أشتهي لحم الغزال.

وتابعا السير إلى أن وصلا إلى مبتغاهما؛ مجموعة من الغزلان ترعَى في سلام، فتوقف السير ونظر أودين إلى ماكو:

- الآن أريدكِ أن تصيبيه إصابة واحدة قاتلة، تعلمين أي تلك الغزلان أقصد، بالطبع ذاكَ أكبر الذكور، ذو البنيان الكثيف.

فنظرت إليه بتحدٍّ وتقدمت وهي تحمل رمحها، ولم يكن أودين ليتصور

حتى إنها قد تفلح بغرس رمح في غزال. توقع أنَّ كل ما ستفعله هو تفرقة مجموعة الغزلان ليعاودوا البحث عن قطيع آخر، لكن قد فاق ما فعلته "ماكو" حينها كلَّ توقعاته؛ فقد وقفت في مكانها وثبتت بالقرب من الغزال، وأطلقت الرمح دفعة واحدة ليصيب صدر الغزال الذي أشار إليه أودين، ويسقط على الأرض بأثر رمحها في منتصف صدره، وأودين يراقب في صمت كمن نزلت به صاعقة، وأصبح الصمت يخيم على المكان كله؛ صمت النظرات وحتى صمت القلوب. لا شيء سوى صوت الغزلان وهي تضرب بأقدامها الأرض وهي تفر بعيدًا، وصوت جسد الغزال وهو يرتطم بالأرض.

ثم استدارت ماكو لتغادر المكان دون أي تعقيب ولو حتى بنظرة إليه، ودون أن يوقفها أودين أو حتى يعرف وجهتها، لكنه حينها عرف أنها وُلدت لتكون مقاتلة. الآن قد لا يشعر بالكثير من الأسف حيال ما جعلها عليه، فقد كان كل شيء يشير إلى أنه ما من سبيل للتراجع.

عندما عاد أودين إلى الكوخ حاملًا الغزال كانت "ماكو" تجلس أمامه إلى موقد حجري صغير فلم يحدثها، فقط نفض الغزال عن جسده وبدأ بإعداده للعشاء؛ فنزع أحشاءه وجلده وعلّقه على سيخ حديدي من فوق فحم مشتعل، ثم انضم إلى "ماكو" التي كانت تجلس في صمت ترسم الأشكال على الأرض بعصا صغيرة:

- حسنا.. لقد كان ذلك جيدا..

فنظرت إليه ولم تعقب:

- أعني ما حدث في صيد الغزال، لم أتوقع حقيقة أنك قد تفلحين في ذلك.

- ...

لم تعقب "ماكو" على حديثه، بقيت صامتة ليس أكثر، فصمت أودين أيضًا وراح ينظر للسماء وهي في مقتبل أن تتزين بالنجوم، يفكر في كل تلك الأيام التي مضت وهو يراقبها بمفرده لا يسمع صوتًا، ولا يرافقه أحد، ولا شيء يدخل قلبه سوى كره تلك العزلة التي أراد الانتقام من كل من فرضوها عليه. ثم عاد ينظر إلى "ماكو" ويتأمل كيف أنها رغم صمتها ملأت حياته بالحديث، ورغم ضعفها علمته كيف يكون قويًا بقلبه، ومن خوفها علمته أن يطمئن.

- لقد رأيتكِ في المرة الأولى، عندما أتيت إلى هذه الغابة، أردت قتلك.. لكني ربما رغبتَ أكثر أن أرى شيئا يمشي على قدمين فقط في الغابة أكثر من قتلك حينها. ثم اعتدتُ على مراقبتك من بعيد مرة تلو الأخرى، وفي ذلك اليوم الذي هاجمك فيه الذئب وصلتُ في اللحظة الأخيرة قبل أن يقطم رقبتك، ونظرت إلى جرحك في ذلك اليوم.

كنتِ صامتة، لا تقولين شيئا، وقد استغربت ذلك كثيرًا، أنت حتى لم تئنّي من الألم، فكرت في أنه ما من داع لإسعافك، فقد كنتِ ميتة بالنسبة إليَّ، كان جرحك خطيرًا، لكنك كنتِ قَوية وتجاوزتِهِ.. لم أكن أدري حينها إن كنت أنقذ حياتك أم أني أحاولُ العثور إلى سبيل ينقذني من الوحدة والظلام هنا.. لقد خاطرت بكل شيء بإحضارك إلى هذا الكوخ وعلاجك، لكني كنت مستسلمًا من شدة اليأس، كنت لا أرغب في شيء، كانت نفسي قد ضاقت بهذا الكوخ إلى حد أني جازفت بكل شيء وأحضرتك، رغم علمي أنه كان من الممكن أن تخبري قومك أنه ما من خطر عليهم لو تجاوزوا

التماثيل، لكني لم أكترث، لو كانت "غيم" هنا ورأتني أفعل ذلك لربما أحرقت صدري بالحديد الملتهب؛ جزاء لفعلتي.

نظرت إليه باستنكار فعاد يؤكد حديثه:

– نعم كنا نخاف كثيرًا، والخوف أبقانا أحياء لفترة لا بأس بها، لكن الجهل قَتَل "غيم"، قتل أمي، قتل الأم الوحيدة التي عرفتها يومًا.. الآن اُنظري، لقد أتيتِ أنت بصمتك لتملئي أركان هذا المكان حديثًا!!

كانت "ماكو" خير من تسمع وأسوأ من يجيد الحديث، وكان صمتها جميلا إلى حد أنها لو كانت تنطق بلسانها لتمنى المرء الخرس ليسمع صوتَ صمتها، فقد كانت بنظرتها تحكي بصدق الكثيرَ والكثير.

اكتفت بالنظر إليه، ثم رفعت رأسها تنظر للسماء وهي تضيء بالنجوم التي تخترق سوادها. حينها تذكر أودين أمر الألوان المضيئة في الظلام التي دوَّن بها العلوم على جدار الكوخ:

– اِنهضي، سأريكِ شيئًا ممتعًا.

ثم سبقها إلى داخل الكوخ، وعندما دخلا أطفأ كل المشاعل دفعة واحدة بسرعة، ففزعت "ماكو" مما ترى؛ إذ كانت الجدران تضيء في الظلام شيئا فشيئا، وكلما زاد الظلام زادت شدة إضاءة الكتابات على الجدار كأن الأمر يبدو كالسحر بالنسبة إليها إلى حد أنها راحت تبتعد عن الجدران في فزع، ولاحظ أودين انتفاض كل جسدها وارتعادها، فأمسك يديها. وبمجرد أن فعل أكبّت جسدها كله إلى ذراعيه لتحتمي به، كان شعورًا غريبًا يختبره للمرة الأولى؛ إن أحدَهم لا يخاف منه، بل يطمئن به، أحدهم لا يزدريه بل يرى أنه

بخير بقربه، أحدهم لا يفزع من قناعه ولون عينيه، بل يرى أنه مطمئن معه، لقد كان يجرب شعور الاطمئنان إلى أحدهم للمرة الأولى.

لم تَدْرِ "ماكو" أنها باحتمائها به قدمت إليه الفرصة الأولى ليحتمي بأحد، ويأمن من بعد فزع، كشريد أخيرًا وصل للوطن إلى حد أنه احتاج ليتمالك نفسه قبل النطق:

- اِهدئي لا تفزعي، إنها ألوانٌ صنعتُها من زهرةٍ كانت أوراقها تضيء في الظلام، زهرة زرقاء تنبت في أقصى الغابة لا يُرى ضوؤها الخافت إلا في ظلام الليل، وكلما اشتد الظلام زاد ضوؤها الأزرق.

بدأت "ماكو" تطمئن شيئا فشيئا وتترك ذراعيه، لتنظر في عجاب إلى الكتابات المضيئة على الحائط. وبينما تفعل وفي غير انتباه منها له كان عقله مشغولًا بشيء آخر، كيف تمكنت بخوفها من قلبه إلى هذه الدرجة؟ فتنفس الصعداء وبدأ يشرح لها ما هو مكتوب على الجدران:

- كانت "غيم" تقول دائما: إن المعرفة والعلوم مصابيح مضيئة في الظلام.. عندما رأيت تلك الزهرة قررت أن أصنع منها الألوان لأمحو ظلام هذا الكوخ في الليل، دون أن أضطر لأبقي النيران مشتعلة طوال الليل. ودوّنت كل العلوم التي جمعتُها بتلك الألوان على الحائط.

مدت يدها ناحية الجدران وراحت تتحسس الحروف المضيئة، كان الأمر أشبه بأنها أمسكت نجوم السماء، كانت فرحتها بتلك الألوان المضيئة عارمة، إلى حد أنها ربما تكون قد نسيت ما حدث في صيد اليوم، كانت كل ملامح وجهها توحي بالطفولية التي شاهدها عليها "أودين" بوضوح، فهدأت نفسه قليلا بعد أن عرف أنها أمنت من فزعها.

ثم نظرت إليه "ماكو" وهو ينظر من خلف قناعه في الضوء الأزرق الخافت الذي يجعلها بالكاد تراه، ثم تذكرت أنها خالفت إحدى قواعده بعناقها له قبل قليل، ربما مخالفة تلك القاعدة دون تعقيب منه قد يشجعها على كسر قاعدة أخرى وهي لمس قناعه، عادت تمد يدها إلى قناعه من بعيد بحذر رغم علمها بكرهه للأمر، لكن الحقيقة هو أنه كان يخشى أن تراه فتفزع من لون عينيه المختلف على وجه بشري، ربما يليقان فقط بقناع شيطان؛ إذ قبل أن تقترب من لمس القناع حتى أعرب عن رفضه:

- يكفي كسر قاعدة واحدة لهذا اليوم، أنتِ لا تريدين أن أتناول رأسك على العشاء بدلًا من الغزال.

فعادت تعدل عن فكرتها؛ احترامًا لرغبته، وعزَّت نفسها في ذلك بأنه ربما لم يكن مستعدًا بعد، وخرج أودين ليجلب شعلة فيعيد إشعال مواقد النيران في الكوخ ليضيء من الداخل، وقبل أن يفعل لفت انتباه "ماكو" إناء به سائل أزرق مضيء وخمّنت أنه الألوان التي صنعها أودين من الزهور المضيئة، وكلما أضاء "أودين" موقدًا كان ضوء الإناء يخفت شيئا فشيئا، إلى أن اختفى الضوء في الإناء وعلى الجدران بعد أن أعاد أودين إشعال كل مواقد النيران.

ثم جلب قرطاسًا وورقة لـماكو كي يُعدّا صياغة الخطاب الجديد الذي ستلقيه أمام العامة في المدينة.

- الآن هيا علينا أن نرتب الخطاب القادم.

فهمَّت بالجلوس إلى الطاولة التي في الكوخ وأعاد إشعال المواقد في الكوخ كي تحصل على رؤيه أفضل وجلس بجانبها، وبدأت تكتب ما ستمليه على الناس في الخطاب وهو يراقب دون كلمة منه، فقط ينظر إليها وهي تخط

كلماتِ حريته من ذلك الظلام. لكنها فجأة توقفت عن الكتابة وراحت تنظر إليه فانتبه لها، كانت تتمنى أن تنطق فتخبره بالكثير، لكن عينيها كانتا تفعلان دون الحاجة للحديث. كانت تخبره أنها لا تدري إن كانت محاولتها هذه كافية لإنقاذ المدينة من الهلاك المحقق وكافية لإنقاذه هو من ذلك الظلام.

فقطع الصمت ليطمئنها:

- لا بأس، أحيانا المحاولة فقط تكون كافية، لنتمسك بالكثير من هذه الحياة.

ثم قام من على الطاولة بجوارها ووقف وهي لا تبعد ناظرها عنه. وظل ينظر ناحيتها بثبات، ومد يده إلى قناعه وكأنه في هذه اللحظة أرادها أن تراه حقيقة، وكانت تنظر وتكاد اللهفة تنطق في عينيها، فرفع عن وجهه المتلألئ قناع المسخ في ذهول منها من روعة خلقه واختلافه ثم وضع القناع بجوار القرطاس والقلم على الطاولة وهي لا تحيل ناظرها عنه، وظل واقفاً. ثم أحال بجسده عنها وولى إلى ركن على الأرض مغطى بفرو الذئاب، وجلس عليه وهي تراقبه فعاد ينظر إليها كنجمة من السماء سقطت في كوخه البائس. إلى أن انضمت إليه وجلست بجواره ووضعت رأسها على صدره بهدوء تام، وكأن كليهما يمحو عن الآخر أعباء الشجن، إلى أن غطَّا في نوم عميق.

ربما للمرة الأولى يكون كل شيء على ما يرام، لكن يا ليت الأمان يدوم للأبد!! جاء عصفور الفجر بصوته العذب لينبهها إلى مجيء الصباح، استيقظت وهو لم يفعل، ولم تشأ أن توقظه من غفلته، فقط لملمت رأسها عن كتفه برفق، ونظرت إليه وهو يغفو كالطفل الذي افتقد النوم لفترات طويلة. لكن كان عليها الانصراف؛ لأن الواقع ما كان ليسمح لها بالتيه أكثر

في ملامحه البريئة التي لُعنت بادّعاء السحر.

التقطت القرطاس الذي جاء فيه خطابها للناس من على الطاولة وعادت إلى المدينة متسلسلة في ثياب خادمتها، عندما وصلت غرفتها كانت ليليان تكاد تنفجر من القلق، وعند رؤيتها فزعت:

– أميرتي، قضيت الليل كله وأنا في فزع؛ ظننت أنه حدث شيء وأنك لن تعودي.

كانت ليليان غاضبة وخائفة:

– ماذا لو لم تعودي؟ ماذا لو تأخرتِ؟ ماذا لو تجاهل أحدهم أوامرك وفتح باب الغرفة ليجدني أنا هنا في ثيابك؟ يا ويلي!! حينها سيعلقون رأسي على باب المدينة.

كانت ليليان تهذي كمن به جِنّة من شدة فزعها، فأمسكت ماكو بذراعيها ونظرت إليها في ثبات لتهدّئ روعها، لكن على الرغم من فزعها، فإنه لم يكن بأمر عسير على ليليان أن تقرأ الحيرة في عين أميرتها، فشعرت بالأسى على كليهما، وقالت:

– لماذا، لماذا يا سيدتي بدأنا هذا الأمر؟ كلانا يشعر بالفزع، وكلانا في خطر محدق.

صمتت ماكو وراحت تشيح بناظرها تجاه الغابة، لقد كان الوقت قد مر على التفكير في مثل السؤال الذي عرضته ليليان كثيرًا. إذ كانت تجاريه بشدة أمرت بجمع الناس إلى الصرح في وسط المدينة لتتحدث فيهم كما فعلت في السابقة، واستعدت هي وليليان للخطاب.

وفي اليوم التالي خرجت على الناس في فستان أنيق وهي تحمل رمحها. لكن الفارق الوحيد هذه المرة هي أنها كانت تعرف أن "أودين" متنكر في زي فلاحٍ ما، أو عجوز ما بين الحاضرين.

عندما اعتلت المنصة بدا كأنها تبحث عنه بين الناس، لم تكن عينها ثابتة كما كانت في المرة السابقة، وقد لاحظ "أكتيفوس" أنها تبحث عن شخص محدد بين الحضور، ثم ضربت الأرض برمحها كي تعطي الإشارة لـليليان فتبدأ الحديث، وبدأت هي تمثيل النطق به:

أيها الشعب الكريم، أيها الناس، لقد بعثتْ بي الآلهةُ اليوم لأزف لكم خبرًا سعيدًا؛ إن الآلهة تعلم ما نمرّ به من أوقات عصيبة ونقص في المواد، لذلك هي تريدكم أن تتوقفوا عن تقديم العطايا والقرابين، وهي أيضا ستتكفل بحمايتكم، ليس هذا وحسب، بل إن الآلهة أيضًا ترى أن كل شيء سيسري على ما يرام، وأن الأوقات العصيبة القادمة سوف نتمكن من تجاوزها معا، لذلك هي تمنحكم كل ما تملك المعابد من مواد وأموال لنواجه المرحلة القادمة سويًا.

كان حديثا قليلا ربما هذه المرة لكنه أشعل نيرانًا لا تنطفئ، قام "زاكوم" مغادرا الجمع في غضب، وصار الناس يهللون للأميرة ويؤيدون قرارها، ولم تكن الخيارات كثيرة أمام كبير الكهنة، وانقضى الجمع ونزلت عن منصتها دون أن تلمح مرادها.

اجتمع "زاكوم" و"أكتيفوس" و"جاميل" لمناقشة ما فعلته "ماكو"، فثار أكتيفوس غضبا:

- كفى لعبًا.. تلك الطفلة البلهاء!! لقد تمادت كثيرًا.

ردت جاميل بغضب:

- "أكتيفوس"، تمالك أعصابك، ابنتي ليست بلهاء.

- حسنا.. حسنا، الآن أنت تميلين إلى الجانب الآمن برفقة ابنتك.

حينها تدخل العجوز ليفض نزاعهما:

- توقفا عن الشجار كالأطفال، "جاميل" محقة، هذه الفتاة ليست بلهاء على الإطلاق؛ إنها تعلم ما تفعله، وتفعله بشكل جيد، وتفكر فيه كثيرًا.

- الخطأُ كله خطؤك، كان علينا التخلص منها منذ أن غادر "سيزوس"، الآن هي تحشد الناس لصالحها.

- أتريد قتل ابنتي "أكتيفوس"؟!

- ماذا؟ الآن أصبحت تعني لكِ الكثير؟!

غضب "زاكوم" وضاق ذرعا بـ "أكتيفوس" و"جاميل" اللذين كانا لا يُحسنان ضبط أعصابهما بعد ما فعلته "ماكو".

- إن لم تتوقفا الآن عن هذا النزاع، فسيكون عليكما المغادرة، أنتما تزعجانني فقط، حتى إني لا أتمكن من التفكير.

نظر أكتيفوس إلى زاكوم بغضب، وراح يرد عليه ليبين أنه لا يأمن غدره:

- لحظةً، نحن لم نفكر من أين أتت "ماكو" بكل تلك القوة، ربما من المعبد الذي أصبحت تتردد عليه، ربما من المعبد الذي تنصره في كل مرة!!

- هل أنت أحمق؟! لقد قلتُ لك سابقًا: هذه الفتاة تتلاعب بنا جميعًا، وأي نصرة للمعبد تلك؟ إنها تريد المعبد أن يقدم ثرواته للرعاع، فكيف

تكون تنصره إذًا؟! عليّ أن أفعل شيئًا حيال هذا الأمر، عليَّ أن أمنعها. الآن ستذهبان إلى القصر، وتأمران تلك الفتاة بالتراجع وحالًا عن هذا القرار، وأنا سأطلب إليها الأمر ذاته، عليها أن تعلم أن المعبد لن يقبل بهذه المهزلة.

كانت جاميل صامتة تفكر في حديث أكتيفوس وسؤاله: من أين أتت ماكو بكل تلك القوة؟ فقالت:

– هذا ليس صحيحًا، علينا أن نفكر برويّة، من أين أتت ماكو بكل تلك القوة؟! لا يمكن أن تكون بمفردها.

رد أكتيفوس باندفاع:

– هذا صحيح، لذلك أعتقد أن السيد زاكوم لديه الكثير ليفسره لنا.

– لا يا أكتيفوس، إن ماكو تُرجع الفضل للمعبد وتنصره، ولكنها في ذات الوقت تقضي بدماره، هناك خطب ما أقوى من المعبد. هناك ما يجري في مديم أرغون ونحن لسنا على علم به يا سادة، بل إنها أيضا تحاول أن تصرفنا عنه بالنزاع فيما بيننا.

نظر زاكوم إلى جاميل وبدا مهتمًّا بمنطقها لكنه فوق كل شيء يريد أن يوقف نزيف الخرافة التي أبقته على رؤوس الجميع مدى حياته، والتي أصبحت فتاةٌ صغيرة تهددها.

– أنت محقة يا سيدة جاميل، كيف لم نفكر أن هناك من يساعدها؟ لكن الآن قبل التفكير في من يقف خلف الفتاة، علينا أن نجد حلًّا لتلك المشكلة، سأذهب بنفسي إلى قصر مديم أرغون لأمنع تلك المهزلة.

انصرف زاكوم متجهمًا متسرعًا لم يحسن التدبير، ليقع في شرك ماكو الذي

أعدته له جيدًا. قد كانت ماكو تعلم بما سيحدث في نفس " زاكوم" وتتوقع كل رد فعله؛ وهو أنه سيأتي ليجعلها تتراجع عن قرارها، وقد كان أخرق. إذ شق زاكوم طريقه إلى قاعة الحكم مصطحبا "جاميل" و"أكتيفوس" معه، ولكن لم تكن نهاية الخطاب ما قالته في الصرح أمام الناس، دخل الحاجب يستأذن دخول ثلاثتهم، فضربت بالرمح في القاعة، وانطلق الصوت:

- نأمر بدخول كبير الكهنة "زاكوم" فقط.

أرادت أن تشيع الفتنة وتؤكد على خيانة زاكوم في نفس "أكتيفوس" وجاميل، وما أعدته كان خطابًا خاصًا بـ "زاكوم" وحده.

عندما خرج الحاجب ليأذن بدخول كبير الكهنة وحده، ارتابت نفس "أكتيفوس" وتوقع "زاكوم" ذلك، فنظر إليه وعدّل الخطب:

- بنيَّ، لا تبتلع الطعم فتكون صيدًا سهلًا، بل فكر في حديث جاميل.

ثم دخل القاعة بعدما قدمه الحاجب، وجد "ماكو" تجلس في مكانها، انتظرها أن تنطق لترحب به أو تتحدث إلا أنها اكتفت بالصمت والنظر إليه من وراء ابتسامة ساخرة صغيرة. فزاد غضبه، وهذا ما أرادته بالتحديد؛ إذ بدأ زاكوم حديثه بالصراخ:

- أنت... أنت، ما أدراكِ بالآلهة؟! أنت تريدين الهلاك لتلك الأمة، لا يعنيني كيف نطقت، وكيف أتيتِ بكل تلك القوة لتخطبي في الناس. لكن هذا لا يعني أنني سأسمح لكِ بتدميرنا جميعًا، لقد حافظنا على هذه المدينة لعقودٍ مضت بفضل الآلهة، والآن أنت تريدين أن تغضبيها، تكذبين وتخدعين الناس، وتنسبين إلى الآلهة قولًا غير قولهم. أنت أين ستذهبين من

فتك الآلهة؟

كانت ماكو صامتة وتنظر بسخرية لتثير غضبه فتدفعه للتورط أكثر وهو مأخوذ بغضبه:

- ستفتك الآلهة بك وبقصرك كما قضت على السحرة والشياطين من قبلك، عليك التراجع عن قرارك هذا، على القرابين أن تستمر، وعلى الناس أن يخافوا بطش الآلهة.

كان ما قاله "زاكوم" كافيا ليقع في الفخ التي نصبته له "ماكو"، تحولت الابتسامة الساخرة إلى نظرة حادة وقامت من مقامها، وضربت الأرض برمحها ليبدأ الخطاب:

- أيها الحرس، أيها الحرس.

دخل "أكتيفوس" وهو يركض وخلفه "جاميل"، واستمر الصوت مناديًا.

- أحضروا كل حراس القصر، استدعوا الحرس الآن.

دخل عدد كبير من حراس القصر حاملين سيوفهم القصيرة في وسط جلبة عامرة، فرفعت "ماكو" يدها، وعادت تضرب الأرض برمحها:

- نأمر بحبس الكاهن الأكبر "زاكوم"؛ لتطاوله على الآلهة وعلى القصر الحاكم.

صُعق الجميع وانطلقت الأصوات معارضة، قال زاكوم:

- هذا لم يحدث.

واستنكر أكتيفوس وجاميل الأمر:

- ماذا؟!

- هل جننت؟!

تعالت الأصوات محاولة مقاطعة صوت خطاب "ماكو" إلا أنها استمرت ولم تكترث، لم يكن هناك مجال لأن تهتم، كان عليها النطق وكان على الصوت أن ينطلق، وكأنه سيمفونية هزت أرجاء القصر كله:

- الآن أيها الحراس، ضعوا "زاكوم" في السجن، وكل من يعترض على أمري.

صرخت "جاميل":

- "ماكو"، ماذا تفعلين؟! خافي غضب الآلهة يا ابنتي.

عادت "ماكو" تضرب الأرض برمحها، وعاد عزفها الجامح:

- نأمر بقطع رأس الحراس الممتنعين عن تنفيذ الأوامر.

عندها هب الحراس يوجهون أسلحتهم ناحية "زاكوم" الذي كان من هول الصدمة لا يصدق ما يحدث، فأمر "أكتيفوس" الحراس بالتراجع، وقام هو بنفسه بالإمساك بـ "زاكوم" ليمشي معه مطمئنًا دون أن يتحامل عليه الحراس، بينما كان ينظر لـ"ماكو" بعين تفيض بالحقد.

وبينما يغادر بصحبة "زاكوم" مصحوبا بالحراس صرخ "زاكوم":

- ستحل لعنة الآلهة على القصر الحاكم، ستحل لعنة الآلهة على الأميرة "ماكو"، صلوا للآلهة لتزيل الغمام، صلوا للآلهة لتزيل الغمام، لا توقفوا القرابين، صلوا للآلهة.

فزع كل من في القصر من خدم وحراس؛ إذ إنه للمرة الأولى منذ عقود يتجرأ أحد الحكام على الكهنة كما فعلت ذات الاثني عشر ربيعًا.

كان الخطاب قد انتهى عندما انتهت جملة: قطع رؤوس الحراس، ولم يعد لدى "ماكو" و"ليليان" ما يقولانه، لكن أمها كانت لا تزال مأخوذة بوقع الصدمة:

- "ماكو"، كيف تفعلين ذلك؟ كيف تأمرين بحبس "زاكوم"؟ تراجعي حالًا وصلي للآلهة كي تسامحك؛ إنه كبير الكهنة يا ابنتي!! هل جننتِ؟!

نظرت إلى أمها بحدة، وكانت تتمنى لو تنطق في هذه اللحظة لتقول: تبًّا لآلهتكم، ثم همت بالمغادرة ولم تعقّب ولم تعطها فرصه لقول شيء يضطرها للرد، وانصرفت من أمامها مغادرة القاعة دون أن تنطق بكلمة، في الوقت الذي كان فيه "زاكوم" و"أكتيفوس" للتوّ قد وصلا إلى الزنزانة التي سيوضع فيها "زاكوم" بأمر من الأميرة:

- عذرًا سيدي، لم أكن لأسمح للحرس بإيذائك، كان عليّ تنفيذ الأمر رفقا بمقامك.

- الآن صدقتَ فقط يا "أكتيفوس"؛ إن هذه الفتاة تتلاعب بالجميع.

- لقد زادت قوتها وصلابتها منذ أن نطقت.

- وهل تظنها حقا تنطق؟

استغرب أكتيفوس حديث زاكوم، وعلّق متجهم الوجه:

- ماذا تقصد سيدي؟

– هناك أمر غريب في هذه الفتاة، إنها تتحدث بترتيب، ترتيب بليغ كأنّ خطبًا ما في حديثها، هناك من يساعدها كما قالت جاميل حتماً.

حينها تذكّر أكتيفوس طريقتها في النظر بين الناس أثناء خطابها:

– لقد لاحظتُ اليوم أثناء خطابها في الناس انشغالها بالبحث بين الجموع، كأنها كانت تبحث عن وجه مألوف، الآن أصبحتُ متأكدًا أنها تخفي أمرًا ما، اُعذر حماقتي يا سيدي؛ لأني كنت دائم الشك أن ما يجري هو من تدبير المعبد.

– لقد فات الأوان على التكهن، لقد كان خطؤنا من البداية أننا تعاملنا معها على أنها مجرد طفلة وستكلّ ويصيبها الملل، لم يعد أمامنا سوى الإطاحة بكل عائلة سيزوس.

– اُؤْمُر بدم "سيزوس" وأتيك برأسه، فكر في الأمر، لقد ولّت أيام سيزوس، وليس هناك المزيد من الوقت، لو عاد "سيزوس" حيا من المعركة لَجَزّ أعناق الجميع بداية بالحمقاء ابنته، هي لا تعرف دموية أبيها حق المعرفة. لن نعود للحياة من بعدهما فارغي الوفاض، سنعيش كالعبيد في الطرقات، إن لم نؤمّن ما يكفي من الذهب في المعبد، ولن تفعل ذلك، لو أن ابنة "سيزوس" بقيت على عرش المدينة، الآن اؤمر برأس "سيزوس" ونقول إنها لعنة الآلهة حلت على القصر الحاكم، وتعود لمنصبك تطالب بالمزيد من الثروات من أجل الآلهة، فإن ربحنا الحرب بقينا ملوكًا، وإن ولّينا عن المدينة رحلنا بالغنائم.

فرح أكتيفوس بقرار زاكوم وبدا ذلك في صوته:

– إنه القرار الأفضل يا سيدي.

- لا تفكر سوى في رأس "سيزوس"، تخشى عودته كثيرا يا "أكتيفوس"؟

- ليس عليَّ القلق وحدي بشأن عودة "سيزوس"، تعلم هذا جيدًا.

بدا زاكوم أكثر جدية من أكتيفوس:

- إن وحش الرقعة ليس "سيزوس" الآن، بل إنها "ماكو"، الناس يصدقونها، إنها تقول إن الآلهة منحتها النطق لتقود البلاد، سيكون ذلك أقوى من أي ادِّعاء.. لكن أنت محق، لقد انتهى دور "سيزوس" هنا، وحان الوقت ليتجرع من نفس كأس "عالية"، أرسل إلى "تيانو" لينهي الأمر كما اتفقنا.

- ماذا عن "ماكو"؟

- سيكون علينا التخلص منها، لكن ليس بالدم؛ فـ "جاميل" لن تمسك لسانها لو أن مكروهًا أصاب ابنتها.

- و ما داعي وجود "جاميل" نفسها؟

- الكثير من الدماء في القصر لن يبارك عرشك يا بني، أَبْقِ على "جاميل"، أنت لا تعلم متى تحتاج لصديق متورط معك في نفس الوحَل، فلو ضاقت الأمور هب ليخلص نفسه فيخلصك معه.

كان على أكتيفوس أن يكبح تعطشه للدماء ويكون مطيعًا لـ زاكوم:

- حسنا، سأبعث برسول من فوري إلى "تيانو".

خرج "أكتيفوس من غرفة السجن، وترك "زاكوم" ليرسل برسول إلى وزير "سيزوس" تيانو" ليُجهز عليه ويُنهي قصته.

وهو في طريقة بين السراديب ارتطم بـ "جاميل" التي كانت تلهث إلى غرفة "زاكوم":

- على مهل أيتها الملكة؟

- أهو بخير؟!

- بخير!! ولقد جُنت ابنتك، فقدت عقلها حتما، أتأتي بـ"زاكوم" الحكيم إلى السجن؟!

- هناك شيء خاطئ، لا أعلم كيف تتخذ قرارًا مثل هذا؟! لقد حاولت منعها لكنها لم تردّ حتى عليَّ.

انتبه "أكتيفوس" إلى حديث "جاميل" وعقب قائلا:

- لم ترد عليك لماذا؟

- لا أدري، لا تعطني فرصة للحديث معها، لا ترد عليَّ، ولا تسمح لي حتى بدخول غرفتها إنها تثق في خادمتها أكثر مما تثق فيَّ.

- تعنين أنها لم تتحدث إليك منذ أن استعادت النطق؟

- كلا هي لم تفعل.

شك أكتيفوس في الأمر وأراد العودة إلى زاكوم في غرفته:

- تعالي معي، سنذهب الآن إلى "زاكوم".

اصطحب "أكتيفوس "جاميل" إلى زنزانة "زاكوم"، عندما دخلت بدت مذعورة لرؤية "زاكوم" في هذا المكان السيئ في غرفة صغيرة ليس فيها سوى سرير حجري صغير، وعند رؤيته للوهلة الأولى خرت على ركبتيها:

– سيدي كبير الكهنة، أرجو السماح لابنتي، إنها طفلة صغيرة لا تعي ما تفعله يا سيدي.

– لا بأس يا ابنتي، لا بأس، فلتغفر لها الآلهة.

تدخل أكتيفوس ليسرع في ما جاء به:

– تقول جاميل: إنها طلبت من "ماكو" التراجع عن قرارها لكنها لم ترد عليها، كيف للابنة التي تعلمت آداب الأميرات ألا ترد على أمها يا سيد "زاكوم"؟!

نظر "زاكوم" إلى "أكتيفوس" فعرف أنه يحمل في نفسه خطبًا ما:

– لا بأس يا ابنتي، لا تقسي عليها إنها مجرد طفلة.

– لا أصدق أنها تفضل صحبة الخادمة على صحبتي، إنها تتحدث إلى خادمتها ولا تتحدث إليَّ.

– الخادمة! من هي تلك الخادمة؟

– خادمة في القصر تُدعَى "ليليان".

– "ليليان"، أليست "ليليان تلك هي التي اعتادت أن تقرأ رسائل "ماكو"؟ أليست هي التي كانت برفقتها عندما اجتمعت بالكهنة والشيوخ للمرة الأولى؟

– بلى هي.

– وأين هي "ليليان" تلك الآن؟

– لا أعلم، إنها وصيفة "ماكو" التي لا تغادر غرفتها، لقد منعت الدخول

عليها في المجالس، ومنعت الدخول إلى غرفتها حتى عليَّ أنا، أمها.

الآن بدأت الخيوط التي في رأس "أكتيفوس" تتصل أيضا في رأس "زاكوم".

- هل تسمح "ماكو" لـ "ليليان" تلك بالبقاء معها في حين أنها لا تسمح لكِ بذلك؟

- بلى إنها تفعل، ربما كانت "ليليان" أقرب لها مني فقد تربيا معًا، وليليان وصيفة "ماكو" منذ طفولتها.

- تعنين أنها الوصيفة الأولى لها؟

- بلى سيدي.

- "أكتيفوس".

- بأمرك "زاكوم".

- إن "ليليان" تلك هي بداية الخيط.

الآن أفاقت جاميل:

- ماذا تعني يا سيد "زاكوم"؟ أنا ربيت "ليليان" حينما كانت طفلة، لا يمكن أن تحيك المكائد ضد ابنتي.

قطع أكتيفوس حديث جاميل:

- ربما هي لا تحيك المكائد ضدها، لكنها حتما تساعدها.

- ما الذي تقوله يا "أكتيفوس "؟ أتعني أن ابنتي استعانت بالخادمة في

الحكم؟!

- ابنتك؟! تتحدثين وكأنك تفخرين بنسب كل ما حدث إلى ابنتك وحدها، لو كنت مكانك لتمنيت أن تكون الخادمة متورطة في سحرٍ ما ألقته على "ماكو" كي تنطق وتحكم هي من خلالها.

- مستحيل!! إن "ليليان" فتاة صالحة أنا أعرفها جيدًا، لا يمكنها اتباع دروب السحر.

تدخّل زاكوم ليعدلها عن الوقوف في غير صفهم:

- كلنا ظننا أننا نعرف "ماكو" جيدًا، من غير الحكمة يا ابنتي ألا نتوخى الحذر من الجميع الآن، أنا لا أطلب من أكتيفوس أن يجزّ عنقها، نحن فقط نريد أن نتأكد من أنها لم تلقِ سحرًا ما على "ماكو"، وإلا فسّري لي كيف تنطق من بعد صمت أبكم؟ في الَماضي كانت هناك طبيبة تُدعَى غيم، كانت ذات جاه وسلطان، لكن هذا لم يمنعها من ممارسة السحر على أفراد القصر الحاكم، وأطاحت بأسرة بأكملها، فكيف بخادمة؟ ألا يكفي ما حدث من شرور إلى الآن؟

- لكن ماذا عن "ماكو"؟

- يا ابنتي، اِرجعي إلى الآلهة، أنا "زاكوم" الكاهن الأكبر، أيعقل أن أطلب الشر لرعايا الآلهة؟ عليك أن تساعدي "أكتيفوس " ليعلم ما السر الذي تخفيانه "ماكو" و"ليليان"؛ لنساعد "ماكو"، ألم تَرَي كيف تحولت طفلتنا الوادعة إلى فتاة تأمر بحبس الكهنة؟!

لم يثلج كلام زاكوم قلب "جاميل" في الحقيقة، فهي تعرف سوء نيته وسوء

عمله. لكن كان عليها أن تبقى معهما لتعرف ما ينويان لابنتها. بعدها انطلق "أكتيفوس" في رحلته ليرسل رسول الهلاك إلى وزير "سيزوس" ويعود حاملاً رأسه.

في ذلك الوقت كانت "ماكو" في غرفتها تتمايل بين الشرفة الأخرى وتطيح بناظرها ناحية الغابة، وتؤدي بجسدها رقصات صامتة فلا موسيقى غير تلك التي تدق من داخل قلبها المضطرب، إنه ذلك الشعور الذي يصيب المرء عندما يقف على حافة الهاوية لا يرى من ورائه ولا من أمامه سوى أنه منساق بخطوات لا تراجع عنها.

تأمُل في الغد المستحيل، وتسلم رأسها للحاضر المشتعل، لكن الحقيقة الواحدة هي أنها لا يمكنها إطفاء ما قامت بإشعاله. ومن جوارها ليليان تحاول إحكام السيطرة على الفزع الذي أصاب قلبها وتنظر إلى ماكو كمن به جِنّة، تتخبط نفسها ما العالم من حولها بفاعل بهما، وهل ستكون ماكو قادرة عَلى حمايتها أم ماذا؟

لكن ما وقعت فيه ماكو هو أنها كانت تنظر ناحية الغابة متأملة في من يسكنها، لكنها لم تلحظ الواقع الملتهب من جوارها في ليليان، لم تفكر أنها تضعها معها على حافة الهلاك.

– لتسامحني الآلهة، لتسامحني الآلهة، سيدتي "ماكو" أميرتي، أرجوك تراجعي عن هذا القرار، لا أعرف كيف سوّلت لي نفسي المشاركة في هذا؟

أفاقت ماكو إلى تلك الهالكة من أمامها، مدت "ماكو" يدها إلى كتفَيْ "ليليان" وأعانتها على النهوض، ثم أتت بقرطاس وقلم وكتبت لها:

عزيزتي ليليان، لقد تجاوزنا كل هذا معًا، لا يمكننا أن نترك أهل المدينة يقدّمون الغالي والنفيس إلى بطون الكهنة، الذين يستعدون للهروب تاركين الناس خلفهم يعانون الجوع والفقر، فعلنا هذا لأجل الجميع، كيف للآلهة المحبة للخير أن تسخط علينا؟ هل رأيتِني أمرت برأس زاكوم؟! أنا لا أنوي إيذاء الكاهن الأعظم، أنا أرفق بكبر سنه، وشيب شعره، وفور ما ينتهي كل هذا ويعود أبي سآمر بخروجه من السجن، لا يمكنني أن أترك المدينة لـ"أكتيفوس" و"زاكوم" الآن. عليك أن تكملي معي، وتكوني عونًا لي حتى النهاية، وأعدك أن ينتهي كل هذا قريبًا.

ثم أعطت القرطاس لـ"ليليان" وانتظرتها حتى يهدأ روعها بينما تقرأ كلماتها.

ربما هدأ فزع "ليليان"، لكن فزع ماكو وتيهها لم يخمدا، فكان عليها اللجوء إلى من يؤمن فزعها هي الأخرى؛ فبدّلت ثيابها مع "ليليان"، واتجهت صوب "أودين"، خرجت من غرفتها، لكن هذه المرة لم تكن تعلم أن عيون القصر لن تراقب "ماكو" بل ستراقب "ليليان".

كان "أكتيفوس" بنفسه يتعقب لحظة خروج الخادمة من غرفة "ماكو"، والحقيقة أنه كان يتعقب "ماكو" نفسها وهو لا يعلم بالأمر. كانت كل خطواتها المضطربة والمريبة وهي تتحسس إن كان أحد في القصر يراقبها تدفعه للتأكد بأنها تخفي شيئا، فلحقها إلى أن غادرت القصر إلى فتحة السور التي اعتادت اختراقها إلى الغابة، وظل يتابعها من بعيد إلى أن فُجع باقترابها من تماثيل الشياطين، وظل يراقب وهو يرتجف من بعيد، ويأخذه الذهول؛ كيف لخادمة مثل "ليليان" ألا تهاب الاقتراب من التماثيل التي تتحاشى

الجيوش المرور بها؟

استمر في مراقبتها إلى أن رآها وهي تخترق التماثيل دون أن يصيبها أي مكروه، ففزع وانتفض قلبه، وعاد أدراجه إلى القصر مهرولًا، يتخبط في ركضه، فتارة يسقط على وجهه، وتارة يصارع الطريق. وغدر الحظ بـ "أودين"؛ إذ لم يكن يراقب ما يحدث من الخارج، وكان في الكوخ ينتظر أن تظهر "ماكو" من بين التماثيل، وقد كان.

إذا به وهو ينظر ناحية التماثيل من أمامه يجدها تدخل إليه في فزع وعيناها تتحدثان بالذعر وهو يعرف ذلك في غير نطق منها؛ إذ وقفت أمامه دون حراك والأنفاس تتكالب على رئتيها:

- لا بأس.. الخطوات الكبيرة تكون مصحوبة غالبًا بهذا الشعور المليء بالخوف في داخلك الآن.

اقتربت ببطء وهي تنتظر منه أن يقول المزيد فيطمئنها:

- إن الخوف شعور سيئ حقا، لكن ما دمنا نشعر به فهذا يعني أن قلوبنا لا تزال بخير، ليس من السيئ دائما أن نخاف.

تذكرت كل خطاباتها وهي تنبذ خوفه، والآن هي تعذره؛ لأنها تخوض الخوف ذاته فتحدثت بشفتيها:

- "أودين"، قد يقتلني الناس لو أني خرجت إليهم، قد أبحث عنك بين الجموع ولا أجدك يا صديقي، قد يمنعك الخوف من إنقاذي، وقد أموت وأنا التي خسرت رهانها بكل شيء على صديق يخاف.

فكان رده أكثر خيبة في هذا العالم من خوفها:

- ليس لديَّ ما أقدمه لكِ أكثر من أن أخبرك أن هذا العالم ليس نهاية كل شيء، وأن الخوف لن يبقينا أحياء، فلو منعني الخوف من إنقاذك فأغمضي عينيك للموت، وابتسمي وأنت تعلمين أن الخوف قد قتلني قبل أن يقتلك الرعية.

جلست بقربه في هدوء تنظر للنجوم كما يفعل ولا شيء آخر. ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة، إنه أسوأ من العاصفة نفسها.

أن تهطل المصائب على نفوسنا لهو أقل فتكًا من انتظارها، شعور غريب يعترينا بالخدر، قد لا نرغب بشيء، ولا نريد شيئا سوى أن لا نشعر بشيء، سوى سكون وهدوء مسمم بالفزع، وهذا كل ما في الأمر.

نظر أودين إلى "ماكو" وهي تبدو كالمقاتل الذي ولى عنه كل دفاعاته، وفقد رمحه، وليس أمامه من سبيل، فأراد أن ينفض عن كتفها غبار اليأس كي لا تستسلم، فهو يعلم أن الخوف سيقتلها أسرع من أعدائها.

- أتذكرين عندما أخبرتك أن خطأ واحدًا سيكون كافيا لإنهاء الأمر.

فهزت رأسها إيجابًا.

- الخوف الآن هو من الخطأ، أنت لا تريدين أن تُفني حياتك بلا قيمة، ربما القليل من الشجاعة بعد سيكون كافيًا لتجاوز الأمر. سأكون هناك، سأكون هناك لأجلك.

ثم قام ووقف على قدميه، ونظر إليها من الأعلى؛ حيث كانت السماء تعلو المشهد، مد يده إلى قناعه؛ حيث كانت عيناها تنظران بشغف كأنها للتو وجدت ما يُلهيها عن كل الفزع في داخلها، ثم دفعة واحدة نزع قناع وجهه

ليطل من ورائه بجمال فريد، واختلط وجهه في ناظرها بنجوم السماء لتراه "ماكو"، إن جمال خلقه مختلف كأنه الوحيد الذي صُوِّر به، وقد فتنت به إلى حد الصمت وثبات النظر في غير دراية بما حولها، وقد فُتن بعدم خوفها إلى حد أنه تمنى لو أن العالمين يرونه بعيونها.

- أنت لا تشعرين بالخوف الآن، أليس كذلك؟

فرفعت ذراعيها صوبه وأشارت بيدها لوجهه، وتحدثت بشفتيها:

- أرى جمالًا.

- يا ليت عيون العالمين كمثل عينيك!! تغفر الاختلاف ولا تقتل صاحبه.

ثم عاد يأخذ بقناعه إلى داخل الكوخ، وترك "ماكو" بمفردها في الخارج تفكر في شأن الشيطان الطيب، ووجدته قد ترك خلفه سكينه الصغيرة، وعيدان الخشب التي ينحت بها، فأتت بساق خشبية ملتوية وقامت بصنع طوق صغير يشبه قرون الغزال، ثم قامت إلى داخل الكوخ وغمست الطوق في وعاء اللون المضيء في الظلام، وذهبت به إلى "أودين" وهو يجلس إلى موقد صغير على طاولة الصحف، ووضعت الطوق الخشبي حول رأسه فبدا كأنَّ له قرونًا، ثم قامت باستخدام اللون برسم هلال فتحته لأعلى على جبينه وخط ونقاط على وجنتيه، ثم أطفأت الموقد الصغير من على الطاولة فأضاءت الكتابات على الجدار، وأضاء وجه أودين والطوق الخشبي.

قد كان يشبه حينها الملائكة ونجوم السماء إذا ما زاد بريقها في غياب ضوء القمر، قد كان وجهه يشع ضوءًا كضوء النجوم في الليالي القاتمة، كان

ذلك كافيا لتستمر في النظر إليه بهدوء وسكون في الظلام كأنها تراقب نجمًا قد هطل من السماء ليكون بين أيديها، وهو يجلس أمامها مأخوذًا بكل ذلك البريق في عينيها الذي لم يعهده في عين أحد، ولم يعهد أحدًا بعد "غيم" يطمئن إليه بهذا الشكل وهو الشريد صاحب الشؤم والشر وهو المطرود من رحمة الجميع وهو الذي لم تشفق عليه عين، الآن عين أميرة جميلة صامتة تنظر إليه كأنما تنظر إلى جمال عُجاب.

إلى أن أغمضت جفنها، وسلمت رأسها لنوم هانئ آمِن كأن جفنها يروق له النوم المطمئن للمرة الأولى وهو يَعجب كيف تجد أمانها في وكر الشيطان؟! الشيطان الذي للمرة الأولى يغمض عينيه كأنه يرى حلما جميلا لفتاة جميلة تطمئن بقربه، فتجعله يشعر بالأمان.

غفل "أودين" وغفلت "ماكو"، لكن الحياة لا تريد مَن يغفل عنها ولو لدقائق؛ فإنه يدفع الثمن باهظًا. كان صاحب الشؤم الحقيقي "أكتيفوس" قد أنهى هرولته إلى زنزانة "زاكوم" ليبثَّ له سُمَّ ما ظن أنه عرفه. في منتصف الليل يأمر الحارس بفتح باب الزنزانة والرحيل ليتركه برفقة "زاكوم" الذي فزع من مرقده ليرى "أكتيفوس" يتصبّب عرقًا، ويكاد يسمع نبض قلبه كأنما يحمله على يده، فاعتدل "زاكوم" من مرقده وهو ينتظر أن يخبِره "أكتيفوس" بخطب جَلَل.

- ماذا هناك؟ ماذا حصل؟

- لقد كنتَ محقا، لن تصدق ما رأيته للتو.

- ماذا هناك؟ انطق!!

- لقد رأيت "ليليان" الخادمة وهي تخترق سياج الشياطين إلى مخبأ الشيطان "أودين".

هب "زاكوم" واقفًا على قدميه كأنه قد طُعن لتوه برمح مسمم، كالذي ظل يكذب إلى أن صدق كذبه.

- ماذا؟!

- لم يره أحد منذ سنين، لم يره أحد منذ أن استيقظت الشياطين في تلك الليلة الملعونة حتى ظننت أنه ولّى عن المنطقة.

- كيف عبرت؟ ألم يصبها مكروه؟

- لقد عبرت كأنها معتادة على ذلك، لم يصبها أي مكروه، ولم تستيقظ التماثيل، لقد كانت هناك ساحرة تعيش في القصر الملكي طوال هذا الوقت، ليس هذا وحسب بل إنها الأقرب إلى الأميرة التي نطقت من بعد صمت.

وقف "زاكوم" يفكر في حديث "أكتيفوس" الذي كان بالنسبة إليه على وشك أن يقلب كلَّ الموازين.

- أخبرني شيئا، هل أرسلت إلى "تيانو"؟

- نعم بعثت برسول إليه.

- انتظر حتى يعود الرسول برأس "سيزوس"، وحينها اخرج إلى الناس وقل ما رأيته الليلة، وسآمر بقطع رقبة "ليليان" و"ماكو" في ميدان عام.

- ماذا عن "جاميل"؟

- ستتفهم الأمر.

- لكن "جاميل" تحب ما أصبحت ابنتها عليه، لن تسمح لنا بالاقتراب من ابنتها.

- أتعصي أمر "زاكوم"؟! إذًا فقد فُتنت بشرور السحرة والشياطين، ووجب حرقها.

أصابت ليلة واحدة في السجن غصن العظمة في قلب الكاهن الذي اعتاد أن يبجله الجميع كما الآلهة، والآن تخلّى عن لباس الحكمة وبدأ يقترف الأخطاء. كان هذا كلّ ما أدركه "أكتيفوس" عمّا يدور في رأس "زاكوم"، لكن كان عليه أن ينفّذ، فهو لن يرغب بمواجهة السحر بمفرده، وما كان يقدر أن يسلم لـ"زاكوم" رأس ماكو؛ خوفا من أن تنطق "جاميل" بخطتهما للإطاحة بـ"سيزوس" وابنته، علما بأن الناس سيصدقونها؛ إذ إنهم لن يصدقوه لو قال إنه رأى "ليليان" تخترق سياج الشياطين، فجاء رده موافقا على حديث زاكوم، ولكنه أضمر في نيته شيئا آخر:

- حسنا، سأنتظر حتى يعود الرسول حاملًا رأس "سيزوس".

الآن أدرك أنه أخطأ المقصد، وأن "زاكوم" ليس في كامل عقله لإدارة الموقف، فذهب إلى جناح الملكة "جاميل" وهو يفكر في الحجة التي سيخبرها للحارس ليصل إلى جاميل في هذا الوقت:

- أخبر الملكة الأم "جاميل" أن الأميرة "ماكو" تستدعيها للحضور الآن.

نظر الحارس عبر النافذة فإذا بالوقت قد اقترب من الفجر، ثم عاد ينظر للقائد "أكتيفوس":

- نفّذ الأمر أيها الحارس.

دخل الحارس جناح الوصيفات ليوقظهن لكي يوقظن "جاميل"، وبقي "أكتيفوس" خارج جناحها يصارع الانتظار دون أن يطيقه حتى تخرج "جاميل" إليه. وبمجرد خروجها في عجلة وهي تظن أن "ماكو" تستدعيها في هذا الوقت وقلبها ينتفض، فقد فقدت السيطرة على ابنتها والقدرة على توقع ما يجول في رأسها، بمجرد أن خرجت إلى "أكتيفوس" ووجدته يذهب ويجيء في حيرة اشتعلت الريبة في قلبها من أن ماكو قد اتخذت قرارا أحمق آخر.

- ماذا الآن؟ هل أمرت برأس "زاكوم" أم أنها تنوي هدم معابد الآلهة؟

- الأسوأ.

سكتت "جاميل" وهي تنظر بريبة إلى "أكتيفوس":

- اتبعيني من فضلك ملكتي.

فتبعته بصمت، بمجرد أن غادرا جناح الملكة راح "أكتيفوس" يتخذ رواقًا في القصر بعيدًا عن جناح "ماكو" وجاميل تتبعه في صمت إلى أن وصلا إلى شرفة تطل من القصر على السور الفاصل بين الغابة والمدينة، بحيث يمكنهما بالكاد رؤية الصدع الصغير في سور المدينة وجاميل لا تفهم الأمر بعد.

- أيقظتني في هذا الوقت من الليل لكي نأتي إلى الشرفة؟!

- إنها ليست شرفة عادية سيدتي.

- ما الأمر "أكتيفوس"؟

- سيكون عليك مراقبة هذا الشق في سور المدينة، ولو استلزم الأمر

الباقي من الليل كله.

من عالم السكون كان "أودين" و"ماكو" لا زال كلاهما في غفلته، كلاهما يستمتع بالنوم الهانئ كأنه يشعر للمرة الأولى أن حارس خيالي يقف على فراشه ليمنع عنه أي مكروه خارقا كان أم بشريًا، ثم فتحت صاحبة القلب عينيها لتجد أنها غطت في نوم عميق؛ حيث كان مجلسها، وكذلك صاحب الغموض الذي كشف عن كل غموضه دفعة واحدة وأسقط قناعه.

كانت تعلم أنها عليها الرحيل قبل أن يحل الصباح فيلاحظ أحد تسللها في ثياب الخادمات فقامت لتهم بالرحيل، ولكن أوقفها وعاء اللون المضيء في الظلام، ونظرت إلى الجدار فإذا به جزء مظلم لم يكتب "أودين" عليه شيئا من العلوم، فقررت أن تترك له رسالة على الجدار قبل أن ترحل، جاء فيها:

عزيزي أودين،

لم أشعر أني نمت نوما هنيئا كهذا منذ مدة طويلة جدًا، ربما من ذلك الحين الذي أصبحت أدرك فيه حقائق الأمور؛ أن الجميع ليسوا رائعين بما يكفي، والكذب ليس أمرًا مستحيلًا، والدماء من السهل إراقتها، والشعوب بالجهل تُحكم، والقائد قد يسير على رؤوس رعاياه، والألوان لا تكفي لجعل هذا العالم مكانا جميلا يا صديقي. ربما لم تكن المدينة هي سبب رغبتي بطلب المساعدة منك، ربما أردت أن أسلم العرش للكهنة، ربما لم أشأ أن أخوض حربا لأجل قضيةٍ ما من البداية، ربما أردت أن أكون مجرد أداة يُفعل بها ولا تفعل.

ربما لم أكن تلك القوية صاحبة الهمة، وربما لا يعنيني لو أفاق الناس من غفلتهم أو لا. ربما أنت منحتني القضية لأقاتل من أجلها، ومنحتني الحكمة

لأدير المعركة، لكني أردت أن أراك، عليك أن تعرف حقيقة ذلك بشدة، أردت أن أرى ذلك الضوء الذي شعرت به فيك.

اليوم، وقد رأيتك، والأمس وقد عرفتك يا صديقي، لتعلمِ أنه قد كان ذلك يستحق العناء، قد كنتَ رائعا بما يكفي لترضي سؤالي: لمَ أهتم بك؟ فأنت في حالتك مختلف عن كل الذين عرفتهم، مختلف عن كَل المظلمين، فيك شيء من الضوء، حتى وإن كنت تخاف فلا بأس، في الحقيقة هذا الخوف يبقي فيك حياة، فإننا نتوقفَ عن الخوف عندما يموت فينا أشياء عدة كالأمان والحب والسلام والطمأنينة، إن الخوف لا يموت أولًا يا صديقي بل إنه آخر ما يموت فينا، وما دمت لا زلت تخاف فإنه حتما لا يزال فيك شيء من الأمان في داخلك، والحياة بدون شيء نخاف عليه من الفقد تبدو باهتة مظلمة يا صديقي، نحن نصادف في الدنيا مرة مَن نشعر بقربهم أننا برفقة أنفسنا، مَن نشعر بالخير فيهم فترتاح نفوسنا وتطمئن. صديقي، لقد كنت كل ثقتي وأماني وراحتي.

عزيزي أودين، شكرًا.

ثم وضعت اللون جانبا وتركت الكوخ لتمضي إلى القصر في ظنٍّ منها أنها هذه المرة تعود إلى القصر في غير علم من أحد كما اعتادت، لكن قد كان في انتظارها ما لم يكن ضمن خطتها هي و"أودين"؛ فبينما عادت لتخترق السور مرة أخرى رجعت إلى القصر، من الشرفة انتفضت "جاميل" لما تراه، وقد كانت من بعيد ترى أن "ليليان" تخترق السور عائدة إلى القصر. ظلت هي و"أكتيفوس" يراقبانها من بعيد إلى أن دخلت غرفتها وهما يظنان أن "ليليان" هي التي تدخل غرفة "ماكو":

- ما الذي تفعله "ليليان" في الغابة في هذا الوقت من الليل؟

- بل السؤال: أين كانت؟... في أي جزء من الغابة؟

- ماذا تعني؟!

- تريدين أن تعرفي كيف نطقت ابنتك من بعد صمت؟

ثار غضب جاميل إذ لم تكن تحتمل غموض حديث أكتيفوس:

- "أكتيفوس" هات ما لديك.

- إنه السحر يا سيدتي، سحر الشياطين هو الذي أنطق ابنتك... للتو عادت الساحرة من سياج الشياطين المحرَّم.

- ماذا؟!

- أنت لا تصدقين. لا بأس لكن هذا ما حدث، لقد رأيتها بنفسي وهي تخترق سياج الشياطين.

- مستحيل.

- هناك خطب ما، جميعنا يعلم جيدًا أن ماكو نطقت، لكن لماذا تمنعك من دخول غرفتها؟ ولماذا تمنع الحضور من دخول بهو الحكم؟ ولماذا لا تتحدث إلا من على صرح أمرت ببنائه؟ والسؤال الأهم: أين تكون "ليليان" عندما تنطق "ماكو"؟ وكيف لطفلة مثل ماكو أن تأتي بثقة تجعلها تأمر بحبس كبير الكهنة؟!

- أمعقول هذا؟ "ليليان" ساحرة!! وابنتي قضت كل هذا الوقت برفقتها.

- عليك إنقاذ ابنتك، لو علم "زاكوم" بالأمر لأمر بحرقها هي والخادمة

للتخلص من شرهما. في الصباح سيعرف الناس بما حدث في القصر ويسألون عن سبب حبس "زاكوم"، ولن تجد ماكو ما تقوله، لم تكن الآلهة هي التي ساعدت ابنتك بل إنهم السحرة والشياطين.

ظن "أكتيفوس" أنه أمن شر "جاميل" بعدما أعلمها بالأمر، وعرف أن عليه أن يأتي برأس "ليليان" ليتخلص من قوة "ماكو" وينتهي الأمر، وتابع بث السم في أذنيها:

- "ليليان" يجب أن تهلك وإلا هلكنا جميعًا.

- لا أكاد أصدق أنها في غرفة ابنتي في هذا الوقت، وأنا لا أستطيع الدخول.

حينها أخرج "أكتيفوس" خنجرًا من يده ومدّه إلى "جاميل":

- الآن نحن نسبق الساحرة بخطوة، فهي لا تعلم أننا عرفنا حقيقتها، ولن تتوقع ما سيحدث، أَبقِي عينيك عليها جيدًا، وحينما تحين اللحظة المناسبة أنقذي مدينتك أيتها الملكة.

أخذت "جاميل" الخنجر من يد "أكتيفوس" وبيتت نيتها.

مع صوت دوابّ الصباح استيقظ "أودين" ليرى أن الفتاة قد غادرت، وأن الضوء قد عاد يملأ المكان والألوان المضيئة على وجهه، وطوقه الخشبي قد أظلم، وكذلك الكتابات على الجدار، فلم يدرك رسالة "ماكو" التي تركتها. لكن كان همّه أن يتسلل للمدينة مغطيًا رأسه ليتأكد من رؤيتها تؤدي خطابًا في الحشود ردًّا على حبس زاكوم.

أما عن الحشود فقد كان الناس أجمعوا على مصيبة ما حدث في القصر

الحاكم، والكهنة خرجوا يتساءلون: ما بال الأميرة تحكم بحبس "زاكوم" الذي ساعدها لتستعيد صوتها؟ وكانت "ماكو" أيضا تستعد لتلقي خطابًا في الناس يجعلها تحل مكانة "زاكوم" في قلوبهم وتكون هي صاحبة الكلمة الصادقة.

أما من غرفة الحدث كانتا تستعدان للخطاب في الناس، كان الفزع يلتهم قلب ليليان وماكو شيئا فشيئا، ثم استجمع الاثنان قوتهما وبدأ الحدث الأعظم.

بالفعل خرجت ماكو في موكب عظيم، وهي ترى السخط والغضب في قلوب الجميع، إلا أنها لم يكن يعتريها أي ذرة من الخوف أمامهم كأنما هي في خدر الكارثة، وقد كانت أمها تراقب جيدًا، فتخلفت عن الموكب لتكون في مراقبة "ليليان"، فظلت تتبع خطواتها بهدوء إلى أن وجدت أنها تكون مجودة هي الأخرى خلف الستار الذي تقف ماكو أمامه على الصرح.

اعتلت ماكو منصتها كالعادة، ودخلت ليليان عرينها، وبدأت كالعادة حديثها بضرب الأرض بالرمح:

-أيها الناس، أعلم كم هي مصيبتنا جميعًا في خيانة الكاهن "زاكوم"، إن الآلهة التي أنطقتني لأكون في عونكم هي بنفسها أمرتني بحبس الكاهن "زاكوم"، لقد تأكدنا أنه كان يملك أكثر مما تملكه معابد الآلهة على مدار السنوات التي مضت، وتأكدنا أيضًا أنه رفض قرار الآلهة عندما أمرتنا أن نتوقف عن تقديم القرابين، نحن نقدم القرابين لسنوات مضت ورغم ذلك هي لم تمنع هجوم السحرة تلك الليلة المشؤمة حينما فقدنا الحاكم وزوجته وحينما فقدنا سلفه. إن الآلهة التي كلّفتني بحماية هذه المدينة هي نفسها

أمرتني أن ألقي الكاهن "زاكوم" في غيابات السجن.

في تلك اللحظة وصل أودين جموع الحضور في زي عجوز مغطيا الرأس متكأ إلى عصا من الخشب ليتابع الأحداث، ويستمع إلى الخطاب.

... وإن كانت الآلهةُ قد غضبت لذلك، فقد مرت ليلة كاملة على بقاء الكاهن في السجن ورغم ذلك لم يصبنا أيُّ مكروه، إن الآلهة تفعل الصواب.

ثم قامت بضرب الأرض برمحها معلنةً انتهاء الخطاب، وغادرت الصرح في صمت من الجميع الذين لا يكادون يصدقون أن الآلهة أمرت بحبس الكاهن الأعظم. وبدأ الجميع يغادرون حتى صغار الكهنة، حتى أودين لم يكن يسعه البقاء كي لا يلفت الأنظار إلى وجوده فرحل هو الآخر، و"أكتيفوس" كذلك إلا "جاميل" التي قررت الانتظار في موكبها بالقرب من الصرح إلى أن ولّى الجميع، وشاهدت "ليليان" وهي آخر مَن غادر، ثم ذهبت إلى الصرح وصعدته وفتحت الستار لترى ما وراءه؛ إذ لا شيء سوى الصندوق الخشبي العمودي الفارغ، تساءلت في نفسها عن سبب وجوده هنا من وراء ستار.

عادت إلى القصر فذهبت إلى كبير الإنشائيين الذي أمرته "ماكو" ببناء الصرح، وسألته: ما بال الصندوق العمودي من وراء الستار؟ وكان رَدُّه أن الأميرة ماكو أرسلت "ليليان" إليه بمرسوم يحمل مواصفات الصرح وأنه اشتمل على صندوق خشبي عمودي من وراء ستار من دون داع، لكن الأميرة قالت: إنه لكي يضع فيه العارضون أغراضهم أثناء العروضً التي ستقدم من خلال صرحها. و لم يكن حديث كبير الإنشائيين مقنعا بما يكفي بالنسبة إلى "جاميل" التي أمرته بألا يخبر أحدًا عن سؤالها له.

ظنت "ماكو" أنه بسلب السلطة من "زاكوم" فهي تأمن شرور "أكتيفوس". فبدأت تهدأ وراحت تعد هدية تقدمها إلى "أودين"؛ وهي فرصة للحياة، فرصة للعودة للمدينة والعيش بين الناس.

وبينما تجلس أمام شرفتها تفكر إذ بـ "ليليان" تدخل الغرفة كأنها للتو عادت من مطاردة الوحوش، وارتمت بجوار السرير تبكي من شدة الفزع، وماكو تنظر إلى ما سبّبته لها من تعاسة، لكنها أيضا كانت تعلم أنه ما من سبيل للتراجع، لذلك عليهما أن ينهيا الأمر سريعًا. قامت إلى كتفها تربّت عليه، لتهدئ من روعها، وأتت بقرطاس وقلم، ودعتها إلى الجلوس إلى الطاولة لتقرأ ما تكتبه:

-عزيزتي "ليليان"، لا بأس، قريبا سينتهي كل هذا العبث.

فكفّت ليليان دموعها، وراحت تنتبه إلى ما ستكتبه "ماكو":

-تعلمين أني لم أكذب يوما، وقد صدق حدسي دائما، أليس كذلك ليليان؟

- نعم أميرتي.

فعادت ماكو للكتابة:

-الآن أخبرك بخطب لتعلمي مدى ثقتي فيك.

تبادلا نظرات الشك؛ فلا ماكو تثق في أن ليليان قد تصدقها، ولا ليليان تتوسم الهدوء في حديث ماكو.

فـراحت ماكو تكتب الحروف بيد ترتعد:

-ليس هناك شيطان يسكن الغابة.

فزعت ليليان وانتفض جسدها.

– لكن أميرتي لقد شاهده الناس جميعًا بأعينهم وهو يحاول إحراق المدينة برمتها.

تابعت ماكو الكتابة بثقة:

–لقد رأوا طفلا يركض ليطلب الاستغاثة لأمه التي كانت تحتضر، ولكنهم خافوا منه وهاجموه لما يعتقدون ولما أذاعه "زاكوم" على مسامعهم لأعوام. الآن الناس تصدق أني أنطق عن الآلهة، وقد حان الوقت لنُزيل خوفهم من الغابة، ونعيد هذا الضال إلى المدينة.

وقفت "ليليان" على قدميها، وتكاد عيناها تخرجان من مقلتيها من شدة الفزع:

– أتعنين أن نأتي بالشيطان إلى المدينة؟

عادت ماكو تكتب بسرعة:

–اِهدئي "ليليان"، أخبرتك أنه ليس شيطانًا كما يَدّعي المعبد، أتذكرين ذلك اليوم عندما تسللتُ من الخدم إلى الغابة ولم أعد؟ في الحقيقة تعرضت لهجوم ذئب كان على وشك أن يلتهم لحم جسدي، لكن "أودين" هو الذي أنقذ حياتي، هو الذي أنقذني من الذئب، وعالج جرحي لمدة أيام، لقد كنت لديه في الكوخ، مكثت عنده، وقد أعطاني العلاج والطعام، سهر على جرحي ليشفيه، إنه طبيب، ولديه الكثير من المعرفة عن العلوم المختلفة، كيف يكون شيطانًا إذًا؟

– مستحيل، هل ذهبتِ إلى سياج الشياطين؟

عادت لتكتب:

-لقد جُبت الغابة كلها برفقة "أودين"، هو الذي علّمني كيف أستخدم الرمح والقوس، وعلّمني كيف أنطق بشفتيّ، فيصدق الناس أني أنطق. صدّقيني إنه بشر عادي وطيب القلب أيضًا.

- أصحيح أن لون عينيه مختلف؟

عادت الروية إلى يد ماكو؛ إذ بان على ليليان شيء من الاطمئنان، وراحت تكمل الكتابة:

-هو لا يعرف سبب ذلك، ويظنه سبب لعنته، لكني أراه جميلًا جدًا ومختلفًا؛ إذ ما من أحد يملك هذه الميزة في لون عينيه.

- لقد سحرك هذا الشيطان بفعله أميرتي.

فأشارت ماكو إليها بيدها لتوقف الحديث، وتابعت الكتابة:

-توقفي عن قول شيطان، إن كنتِ لا تصدقين سأصطحبك معي اليوم إليه لتري بنفسك أنه ما من خطرَ لاجتياز السياج، إنها مجرد تماثيل من العِصي والطين.

- لكنها استيقظت في الليلة التي هجم فيها الشيطان على المدينة!!

عادت ماكو تكتب:

-لم تستيقظ؛ إنها مجرد حيلة منه، هو أشعل النيران خلف التماثيل لتبدو من ظلالها أنها تستيقظ، فتحميه من هجمات أبي وجيش المدينة. كما أخبرتك أستطيع أن أجعلك تأتين معي.

فزعت ليليان من الجملة الأخيرة حين قرأتها وانتفضت:

- لا... لا أريد، سأفعل أي شيء تطلبينه أميرتي لكن أرجوك لا تأخذيني إلى هناك.

-لا بأس اهدئي، الآن سأرى كيف سنخبر الناس الحقيقة، ومن ثم نخرج لهم في آخر خطاب، وينتهي الأمر برمته، ولن يكون هناك سبب للفزع بعد ذلك. بمجرد عودة أودين للمدينة، سيطالب بحقه في العرش من أبي، وسيكون ذلك منطقيا؛ لأنه ابن الحاكم، وليس شيطانًا، وسينتهي معه كل هذا العبث، لن نستمر في الخوف من الغابة، وستزدهر المدينة بالعلوم، وسننفض عن الناس غبار الخوف من السحرة والشياطين الذين لا وجود لهم في واقع الأمر.

أرادت ليليان أن تفيق ماكو من غفلتها وتخبرها أن البلاد كلها على حافة الهاوية ليس مديم أرغون فقط، لكنها ارتضت الاقتناع بحديث أميرتها:

- حسنا أميرتي سأفعل ما تأمرينني به.

ابتسمت "ماكو" واطمأنت أن "ليليان" ستساعدها مرة أخرى، وعكفت تكتب الخطاب الذي ستخبر فيه الناس الحقيقة.

في هذه الأثناء كان رسول "أكتيفوس" قد وصل إلى جبهة القتال التي تحتوي على كتيبة "سيزوس"، وأعطى الإشارة إلى "تيانو" الذي كان ينتظرها على أحرّ من الجمر، وبيّت عزيمته أن يوم المعركة التالي سيكون آخر يوم لـ"سيزوس".

أما "أودين" فقد كان عند الشجرة التي تأوي قبر "غيم" يناجيها في نومها

العميق، ويحلم بالمعابد عندما تتحول لأماكن تلقي العلوم بدلا من أماكن ممارسة الخرافات. يحلم باليوم الذي يغادر فيه الغابة ويرى الناس ويحدثهم دون أن ينفروا منه، يحلم باليوم الذي يكفّ فيه عن الكره والحقد، باليوم الذي ينظر فيه إلى الزهور وهي تنمو من على شرفات المنازل. باليوم الذي يجرّب فيه الجلوس إلى مائدة عليها أناس حقيقيون وليس رؤوس الحيوانات، باليوم الذي يجرب فيه طعامًا غير لحم الغزلان والأرانب البرية.

وما إن اقترب المساء حتى عاد إلى الكوخ والتماثيل؛ تلك التي حمته على مدار سنين مضت. تلك التي كانت مصدر خوفه وأمنه لعمر قضاه وحيدًا بلا رفيق. أشعل مواقد النيران وجلس يقضي ليلته، على أن الليالي القادمة في مثل هذا المكان لن تكون بطويلة كتلك التي سبقتها.

بينما "ماكو" كانت قد بدأت تكتب خطابها الذي يحمل الحقيقة كاملة، وجاء فيه:

-أيها الناس، لقد كذب الكهنة والعرّافون في الماضي بشأن الشيطان الذي يسكن الغابة؛ ما من شيطان هناك، حدّثتني الآلهة أنه إنسان مثلنا وليس بساحر أو شيطان، وإن كنتم لا تصدقون فامنحوني الفرصة لأثبت لكم صدق قولي؛ الآن وفي هذا الجمع سأذهب بنفسي إلى سياج الشياطين وأحضر الفتى الذي يعيش هناك، وآتي إليكم سليمة معافاة لا ينقص مني شيء، ولا يصيبني أي أذى.

سآتي به إليكم ليحدثكم وتحدثوه دون خوف أو فزع، إن الآلهة تقول إنه ليس عليكم أن تخافوا بعد الآن من الغابة؛ فما من شر يسكنها، ما من داع للخوف أبدًا، بإمكاننا عبور الغابة والوصل بيننا وبين المدن الأخرى دونً

الحاجة للسير شهورًا وأميالًا، بإمكاننا تجاوز الأزمة معا، وتجاوز غيابات حرب الرومان... بإمكاننا أن ننجو معا..

....

الآن أذهب إلى الغابة بنفسي على صهوة جوادي وأعود لكم بالفتى أودين؛ الوريث الشرعي لعرش مديم أرغون.. الأمير أودين.. إن النقوش على جدران المعابد كاذبة، وكذبت روايتها.. وعندما أعود إليكم به سأثبت ذلك للجميع.

كان ذلك الخطاب الذي أعدته ماكو للحديث عن عودة الشريد إلى وطنه. بينما ذاك المقصود كان يناجي عالمًا آخر. كان الليل قد حل على سياج "أودين" والغابة، فدخل الكوخ، واستعد للنوم وأطفأ النيران ولم يعد من ضوء سوى ضوء الكلمات المشعة على الجدار، فلاحظ ضوءًا من جانب على الحائط لم يكتبه هو ولم يُضِف له شيئا، وكانت تلك هي رسالة ماكو التي كتبتها قبل أن تغادر في الليلَة الماضية، والتي جاء فيها:

-عزيزي أودين، لم أشعر أني نمت نوما هنيئا كهذا منذ مدة طويلة جدًا، ربما من ذلك الحين الذي أصبحت أدرك فيه حقائق الأمور؛ أن الجميع ليسوا رائعين بما يكفي، والكذب ليس أمرًا مستحيلًا، والدماء من السهل إراقتها، والشعوب بالجهل تُحكم، والقائد قد يسير على رؤوس رعاياه، والألوان لا تكفي لجعل هذا العالم مكانا جميلا يا صديقي.

ربما لم تكن المدينة هي سبب رغبتي بطلب المساعدة منك، ربما أردت أن أسلّم العرش للكهنة، ربما لم أشأ أن أخوض حربًا لأجل قضية ما من البداية، ربما أردت أن أكون مجرد أداة يُفعل بها ولا تفعل. ربما أنت منحتني القضية

لأقاتل من أجلها، ومنحتني الحكمة لأدير المعركة. ربما لم أكن تلك القوية صاحبة الهمة، وربما لا يعنيني لو أفاق الناس من غفلتهم أو لا. لكني أردت أن أراك، عليك أن تعرف حقيقة ذلك بشدة، أردت أن أرى ذلك الضوء الذي شعرت به فيك. اليوم، وقد رأيتك، والأمس وقد عرفتك يا صديقي، لتعلم أنه قد كان ذلك يستحق العناء، قد كنتَ رائعا بما يكفي لترضي سؤالي: لِمَ أهتم بك؟ فأنت – في حالتك – مختلف عن كل الذين عرفتهم، مختلف عَن كل أولئك المظلمين، فيك شيء من الضوء، حتى وإن كنت تخاف، فلا بأس في الحقيقة؛ هذا الخوف يُبقي فيك حياة، فإننا نتوقفَ عن الخوف عندما يموت فينا أشياء عدة، كالأمان والحب والسلام والطمأنينة، إن الخوف لا يموت أولًا يا صديقي، بل إنه آخر ما يموت فينا، وما دمت لا زلت تخاف فإنه حتما لا يزال فيك شيء من الأمان في داخلك، والحياة بدون شيء نخاف عليه من الفقد تبدو باهتة مظلمة يا صديقي، نحن نصادف في الدنيا مرة مَن نشعر بقربهم أننا برفقة أنفسنا، مَن نشعر بالخير فيهم فترتاح نفوسنا وتطمئن. صديقي، لقد كنتَ كل ثقتي وأماني وراحتي.

عزيزي أودين، شكرًا.

عندها اطمأنّت روحه إلى أن تلك الليالي المظلمة الباردة على وشك أن تتبدل بالدفء في قرب الرفاق الأوفياء له، وَرَقّ قلبُه الذي ظن أنه قلب شيطان لفعل أميرة صغيرة جعلته ينبض بالخير من جديد.

ولكن ما كاد يغمض عينيه حتى أحس بحركة أقدام تخترق السياج، وهذه المرة ليست أقداما تعود لشخص واحد، هَبّ إلى قناعه النحاسي قبل رمحه، وخرج من الكوخ فجأة ليرى "ماكو" تقف وإلى جانبها فتاة تكاد تفقد

النبض من شدة الفزع في جسدها الذي يرتعد، فرفع رمحه نحوها، لكن "ماكو" حالت بينه وبينها، وراحت تهدّئ من روعه، وتتحدث بشفتيها:

- اِهدأ أرجوك، إنها "ليليان" التي كانت تنطق عني للناس.

- وماذا تفعل هي هنا؟ هل فقدتِ عقلك؟

- كان يجب أن تأتي لتطمئنَّ أنك بشر عادي، أرجوك اهدأ وضع الرمح جانبًا.

فراح "أودين" يهدأ ويضع رمحه جانبًا على مضض من فعلتها، ثم استدارت "ماكو" إلى "ليليان" لتشير لها بالاقتراب، لكنها كانت تخشى ذلك حد الموت. وبدأ "أودين" يفقد السيطرة على غضبه، فثار فجأة وقال:

- لست شيطانًا أيتها الحمقاء.

حينها زاد فزع "ليليان" وسقطت على ركبتيها تحتمي في الأميرة "ماكو"، فنظرت "ماكو" إلى "أودين" بغضب ولاحظ ذلك؛ فتراجع للخلف:

- ماذا؟! إنها تبالغ بفزعها هذا!! أنا لن ألتهم رأسها على كل حال.

عادت "ماكو" تأخذ بيد "ليليان" وتساعدها على النهوض علَّها تستجمع شيئا من الشجاعة لتنظر في وجهه، ولكن كيف وهو يضع قناع المسخ هذا على وجهه؟ فأعادت النظر إليه لتحدثه بشفتيها:

- اِنزع القناع؛ إنك تخيفها.

- ماذا؟ لا.. لن أفعل.

عادت تتحدث بشفتيها.

- أيها الأحمق، إنه لقاؤك الأول بالناس، أنت لا تنوي أن تجعلهم يفزعون من قناعك هذا.

- قلت لن أفعل.

نظرت ليليان إليهما وهما يتحدثان، وعلى الرغم من ذلك هي لا تسمع سوى صوت "أودين" الذي يبدو آدميا بالنسبة إليها، لكنها كانت لا تستطيع الكف عن البكاء، ونظرت إلى "ماكو" وهي تتحدث بشفتيها، وتقترب منه:

- أودين، يا صديقي، عليك أن تثق بالناس، عليك أن تنزع القناع ليروك، يجب أن يفهموا أنك إنسان ولست شيطانًا. إنه اختبار بسيط جدًا، إن كنت عاجزًا عن إظهار كونك أمام شخص واحد فقط، فكيف بباقي الناسِ؟

وقف "أودين" أمامها، وسمح لها بالاقتراب، و"ليليان" تنظر في ذهول، ثم مدت ماكو يدها ونزعت القناع عن وجهه، فنظرت "ليليان"، وإذ بكل ما قيل في وصفه حق، وأن وجه الشاب مكلل بعينين إحداهما باللون الأزرق، والأخرى باللون الأسود، ففقدت الوعي من فورها.

- تبًّا! الآن اُنظري ماذا فعلتِ؟ لماذا أتيت بها إلى هنا؟

أشارت إليه ليساعدها في حملها إلى داخل الكوخ، فحملها إلى فراشه على غصنٍ قلبه، وبدأت "ماكو" ترش الماء على وجهها علّها تفيق، لكن أودين كان مهتمًّا بشأن آخر:

- هل أبدو مخيفا إلى هذا الحد؟

نظرت ماكو إليه وهي تشعر بالأسى لما قد يصيبه لو أن الناس خافوا منه، كانت تعلم أنه سيكون من الصعب عليهم تقبله، لكن أيضا كانت تعلم

أن فيه ما يكفي من الخير ليكسب ودهم، ولم تكن لتيأس منه، فابتسمت في وجهه لتطمئنه، وتحدثت بشفتيها:

- كلا لستَ مخيفًا أبدًا.

فتبسم ثغره في أمل، وتنفس الصعداء، ثم قال:

- لقد قرأت رسالتكِ، لقد كانت... لقد كانت جيدة في الحقيقة، شكرًا لك.

عادت "ماكو" تبتسم، والتفتت إلى ليليان لتحاول إفاقتها، فترش على وجهها الماء تارة وتمسح على جبينها تارة أخرى إلى أن استعادت "ليليان" وعيها، وكان "أودين" بوجهه الواجم أول من رأته، فراحت تحدق فيه ويبدو عليها أن قلبها يكاد أن يتوقف عن النبض، فعلّق قائلا:

- هي ليست قوية مثلك "ماكو" عندما أفقتِ للمرة الأولى، فقد جعلتِني أنا أخاف منك من شدة الثبات في نظرتك.

عندها نطقت "ليليان" وهي تتمتم بالحديث:

- أنت.. أنت.. أنت لست شيطانًا؟

فصرخ أودين في وجهها:

- ماذا؟! أخبرتك أني لست شيطانا أيتها الحمقاء.

نظرت إليه "ماكو" بغضب، فرد بغيظ:

- ماذا؟! هل سأقضي الليل كله أحاول إقناعها أني لست شيطانًا، هل أبدو كشيطان؟!

فأشارت إليه بيدها أن يصمت، فرد وهو يكتم غيظه:

- حسنا، توقفي عن الإشارة إليَّ بغضب.

عادت تشير مرة أخرى؛ " الآن ابتعد "، فراح يجر جسده في غير راحة ثم جلس إلى زاوية بعيدة عنهما في الكوخ. كان الأمر يبدو وكأن طفلة صغيرة تحرك وحشا بطرف أصبعها بالنسبة إلى ليليان التي كانت تراقب قوتها رغم الصمت في عجب. عادت "ماكو" تمسح بيدها على رأس "ليليان" لتهدئ من روعها، وكان أودين يراقبها وهي تفعل ذلك بشدة، فذكرته بالساعات التي اعتاد أن يقضيها في مراقبة الحيوانات، وكيف أنه كان يحب أن يرى الأم إذا ما بدأت بمسح رأس أبنائها بلسانها، الآن يرى أن البشر يفعلون الأمر ذاته، ليُطمئنوا بعضهم أيضًا. الآن وقد هدأت "ليليان" قليلًا راحوا جميعًا ينظرون لبعضهم البعض على أمل أن تنجح الخطة وينتهي هذا الكابوس.

عندما خرجت "ماكو" بصحبة "ليليان" عبر شق السور إلى الغابة لم يكن لمراقبتهما شأن يغني "أكتيفوس" فقد كان يعلم وجهة كلتيهما، إلا أن شأنه كان الدخول إلى غرفة ماكو لمعرفة ما ينويان، فترك "جاميل" تراقب موعد عودتهما إلى القصر من الشرفة المقابلة للشق وذهب هو إلى غرفة "ماكو". فأخبر الحراس أن الأميرة أرسلته بنفسه لجلب بعض القراطيس المهمة، وأن عليه الدخول فسمحوا له.

عندما دخل ظل يبحث بين القراطيس، ولم يدرك سوى آخر قرطاسين كتبتهما "ماكو"؛ ذلك الذي كتبته إلى "ليليان" لتحدثها عن أودين، وذلك الذي أعدته لتلقيه أمام العامة، وكان فيهما ما يكفيه ليملك مفاتيح القضاء عليها، وليس عليها فقط بل وعلى "أودين" أيضا.

-عزيزتي "ليليان"، لا بأس، قريبا سينتهي كل هذا العبث.

...

-تعلمين أني لم أكذب يوما، وقد صدق حدسي دائما، أليس كذلك ليليان؟

....

-الآن أخبرك بخطب لتعلمي مدى ثقتي فيك؛ ليس هناك شيطان يسكن الغابة.

.....

لقد رأوا طفلا يركض ليطلب الاستغاثة لأمه التي كانت تحتضر، ولكنهم خافوا منه وهاجموه لما يعتقدون ولما أذاعه "زاكوم" على مسامعهم لأعوام. الآن الناس تصدق أني أنطق عن الآلهة، وقد حان الوقت لنُزيل خوفهم من الغابة، ونعيد هذا الضال إلى المدينة.

...

-اِهدئي "ليليان"، أخبرتك أنه ليس شيطانًا كما يَدّعي المعبد، أتذكرين ذلك اليوم عندما تسللتُ من الخدم إلى الغابة ولم أعد؟ في الحقيقة تعرضت لهجوم ذئب كان على وشك أن يلتهم لحم جسدي، لكن "أُودين" هو الذي أنقذ حياتي، هو الذي أنقذني من الذئب، وعالج جرحي لمدة أيام، لقد كنت لديه في الكوخ، مكثت عنده، وقد أعطاني العلاج والطعام، سهر على جرحي ليشفيه، إنه طبيب، ولديه الكثير من المعرفة عن العلوم المختلفة، كيف يكون شيطانًا إذًا؟

....

لقد جُبت الغابة كلها برفقة "أودين"، هو الذي علّمني كيف أستخدم الرمح والقوس، وعلّمني كيف أنطق بشفتيّ، فيصدق الناس أني أنطق. صدّقيني إنه بشر عادي وطيب القلب أيضًا.

...

هو لا يعرف سبب ذلك، ويظنه سبب لعنته، لكني أراه جميلًا جدًا ومختلفًا؛ إذ ما من أحد يملك هذه الميزة في لون عينيه.

...

توقفي عن قول شيطان، إن كنتِ لا تصدقين سأصطحبك معي اليوم إليه لتري بنفسك أنه ما من خطَر لاجتياز السياج، إنها مجرد تماثيل من العِصِي والطين.

...

-لم تستيقظ؛ إنها مجرد حيلة منه، هو أشعل النيران خلف التماثيل لتبدو من ظلالها أنها تستيقظ، فتحميه من هجمات أبي وجيش المدينة. كما أخبرتك أستطيع أن أجعلك تأتين معي.

...

لا بأس اِهدئي، الآن سأرى كيف سنخبر الناس الحقيقة، ومن ثم نخرج لهم في آخر خطاب، وينتهي الأمر برمته، ولن يكون هناك سبب للفزع بعد ذلك. بمجرد عودة أودين للمدينة، سيطالب بحقه في العرش من أبي،

وسيكون ذلك منطقيا؛ لأنه ابن الحاكم، وليس شيطانًا، وسينتهي معه كل هذا العبث، لن نستمر في الخوف من الغابة، وستزدهر المدينة بالعلوم، وسننفض عن الناس غبار الخوف من السحرة والشياطين الذين لا وجود لهم في واقع الأمر.

انتهى قرطاس الأوامر إلى "ليليان" وعرف "أكتيفوس" أنه أخطأ النظر في تلك الليلة؛ إن "ماكو" هي التي خرجت في زي "ليليان" وليست "ليليان"، وعرف الحقيقة كاملة، وأن "ماكو" كانت تخدع المدينة طيلة هذا الوقت. ولم يتوقف بل تابع القراءة لما جاء في القرطاس الآخر:

-أيها الناس، لقد كذب الكهنة والعرّافون في الماضي بشأن الشيطان الذي يسكن الغابة؛ ما من شيطان هناك، حدّثتني الآلهة أنه إنسان مثلنا وليس بساحر أو شيطان، وإن كنتم لا تصدقون فامنحوني الفرصة لأثبت لكم صدق قولي؛ الآن وفي هَذا الجمع سأذهب بنفسي إلى سياج الشياطين وأحضر الفتى الذي يعيش هناك، وآتي إليكم سليمة معافاة لا ينقص مني شيء، ولا يصيبني أي أذى.

سآتي به إليكم ليحدثكم وتحدثوه دون خوف أو فزع، إن الآلهة تقول إنه ليس عليكم أن تخافوا بعد الآن من الغابة؛ فما من شر يسكنها، ما من داع للخوف أبدًا، بإمكاننا عبور الغابة والوصل بيننا وبين المدن الأخرى دونً الحاجة للسير شهورًا وأميالًا، بإمكاننا تجاوز الأزمة معا، وتجاوز غيابات حرب الرومان... بإمكاننا أن ننجو معا..

الآن وقد اتضحت أمامه الحقيقة كاملة عرف أن "زاكوم" كان محقًا، وأن الصواب كان يقتضي قطم رأس "ماكو" و"ليليان" معًا، فأخذ القراطيس

وذهب بهم إلى "زاكوم" في محبسه وعرضهم عليه، وعندها أدرك "زاكوم" الأمر تماما.

- كيف تجرأت الفتاة الصغيرة على فعل كل هذا؟

- لقد كانت هي وحش المعركة طوال الوقت ولم يدرك أيٌّ منا ذلك.

جلس "زاكوم" يفكر فيما هو فاعله في شأن "ماكو" وقد أربكته كل تلك الحقائق دفعة واحدة، فلحقه "أكتيفوس":

- يا سيدي، الحكمة الآن تقضي أن نحسن التفكير، لو أن ذلك المسخ الذي يسكن الغابة عاد وعاش بين الناس واعتلى العرش لعلّق رؤوسنا جميعًا على بوابات مدن مصر.

- لا يجب أن يعود ذلك المسخ من مخبئه، يجب قتله فيه وإنهاء الأمر.

- ويجب التخلص من "ماكو" أيضا، فلا تجد سبيلا تخبر به الناس الحقيقة.

- هل تعلم "جاميل" بأمر هذه القراطيس؟

- كلا، إنها تنتظر في الشرفة إلى أن تعود "ماكو" و"ليليان" من الغابة.

- جيد، لا يجب أن تقرأ كلا القرطاسين، عليها أن تقرأ خطاب "ماكو" إلى العامة فقط، لا بد أن هناك وسيلة ما كانت تخدعنا بها طوال الوقت كي تجعل "ليليان" تنطق ونحن نصدق أنها تنطق.

- لقد علمها المسخ أن تحرك شفتيها بالحديث، ولا بد أن الصوت كان صوت "ليليان". أخبرتني جاميل أنها عثرت على صندوق خشبي خلف ستار على الصرح الذي تقف عليه "ماكو" لتحدث الناس، لا بد أن "ليليان" تختبئ

فيه.

تأكدت شكوك زاكوم وبيّت نيته:

- نعم، لقد كان يحرك الأميرة كقطع الشطرنج طوال هذا الوقت، الآن حان دوري لأحرك القطع.

- ماذا تعني؟

- جاميل!!

- ماذا عنها؟

- أرسل إليها عرافات المعبد ليخبرنها أنهن رأين نبوءة بأن ابنتها "ماكو" ستُقتل على يد خادمتها "ليليان".

- و لكن لماذا؟

قام زاكوم وعينه تفيض بالغيظ والشر وتابع الحديث:

- أريدها أن تقتل ليليان ويرى الناس البؤس الذي أصاب الأسرة الحاكمة بعد أن أمرت الأميرة بحبس كاهن المعبد.

- لكن يا سيدي، الناس يصدقون "ماكو". يرون أنها تنطق عن الآلهة.

- لا بأس، سيعرف الناس كذبها لو أنا كشفنا لهم خداعها طوال الوقت.

- ماذا عن أودين؟

التفت زاكوم وبدا عليه الغيظ والشر:

- أودين... أودين.. ذلك الأودين كان مصدر إزعاج بما يكفي، لقد

حان الوقت لتغرب شمسه عن هذه الأرض، بل عن الأرض كلها، أقسم بالآلهة أني سأطعمه للذئاب.

انفعل "أكتيفوس"، وارتجفت فرائصه:

- هل تعني أنك ستذهب إلى سياج الشياطين؟!

- ألم ترَ ما كُتب في الخطاب؛ ليس هناك من شياطين إنها مجرد تماثيل من طين وعصي.

- وإن كان، ماذا لو كان الخطاب كاذبًا؟

- أيها الأحمق، ألم تَرَ "ماكو" بعينك تخترقه ولم يصبها مكروه؟ ألم تقرأ حديثها عن أنه مجرد إنسان عادي؟ كيف يكون الخطاب كاذبًا إذًا؟ ثم من قال: إني سأذهب، سنذهب جميعًا.

- ماذا، كيف؟

- عندما يعود رسولك حاملًا رأس "سيزوس" وتقتل "جاميل" "ليليان" أمام الناس أجمعين، ويخرس صوت "ماكو" وهي تحاول إخبار الناس حقيقة أودين، ستعتلي أنت المنصة لتخبر الناس الحقيقة كما سأطلعك أنا عليها.

وبقي "أكتيفوس" وزاكوم يستعدان لتحريك اللعبة طبقا لخطتهما، بينما كانت "جاميل" لا تزال تقف في الشرفة لا تحيل ناظرها عن شق السور، تنتظر عودة ابنتها التي تؤمن بأنها الآن في عش الشياطين، ويكاد قلبها يذهب مع الريح كلما هبّت على وجنتيها غير أنها لا تحرك ساكنا عن الثبات في الوقوف بمفردها بغير وصيفاتها.

كان الفجر قد بدأ يقترب وليليان ممددة في سرير أودين وهو وماكو يجلسان إلى الجدران المضيئة، إلى حيث رسالة ماكو المكتوبة على الجدار. وكان أودين قد أطفأ الشعلات لتضيء الكلمات على الجدار، فزعت ليليان مما تراه عندما فعل ولاحظ هو ذلك، لكنه لم يبدِ أي اهتمام للفتاة التي تفزع من كل شيء حولها، وعاد ينظر إلى رسالة ماكو، لكن ماكو هي التي نظرت إلى ليليان وابتسمت وأشارت بيدها ورأسها أن لا تقلقي؛ ليس في الأمر سوء، فعادت ليليان تستلقي في فزعها من كل ما يدور حولها، وعادت ماكو لتشارك أودين قراءة ما أتى على الجدران.

فقال أودين:

- أنا أيضا، لا أظن أني ساعدتك؛ لأني أرغب في شيء، لم أكن أعرف سببًا واضحًا لفعل ذلك، ليس أكثر من أني أردتك أن تبقي هنا.. ربما أردتك أن تكسري حاجز الصمت في أيامي.

و نظر إليها فإذا هي متبسم ثغرها، فعاد يقول:

- لكن من سخرية قدري أن تكوني بكماء.

فعادت تتوجم، وتعقد جبينها، فعاد ينظر لما كتبته، وقال:

- لكن رغم ظلام صمتك، كان الضوء في قلبك كافيًا ليكسر عتمة هذا الكوخ.

وعاد لصمته وهو ينظر للكلمات وهي لا تحيل ناظرها عن وجهه، لا تدري إن كان عليه حقًا أن يخرج للناس أم يبقى في صمت جدران ذلك الكوخ، فقد كانت هي التي ضاقت ذرعا بالصوت المسموع، وتمنت لو أن

الجميع كانوا صامتين، فتسمع صوت خرير الأوراق، وشق الزهرة للغصن للتفتح، ذلك ما كانت تفرّ للغابة في بادئ الأمر لأجله.

قد كانت هي التي هربت من صوت الجميع إلى صمت الغابة، لتجد مَن غيَّر حياتها إلى الأبد، من جعل لها سببا لتحيا بشغف، تتساءل في نفسها: ألن يكون قاسيًا لو أنها تُخرجه من نعيم الصمت إلى زخم الأصوات؟ ألن يكون ظلما لعرفان صنعه معها أن تسلبه الحرية التي خرجت تبحث عنها في الغابة؟ أتأتي الآن لتعيده إلى جدران المدينة وأسوارها؟ ألن يكون صعبًا أن تبعده الأقدام السارية في داخل المدينة عن الطريق المؤدية إلى الزهور فيفوت موعد تفتحها في الربيع ولا يراها في أوج جمالها؟

ثم عادت تنظر إلى الجدار لتواجه خوفها الأعظم، هل سيتقبل الجميع أن يفهموا علومه وفنونه التي عكف يدونها على جدران الكوخ؟ ألن يطفئوه من الداخل؟ ألن يقتلوا أحلامه فيه؟ وكيف سيبدو؟ وكيف سينطق؟ وكيف سيخلع عن جسده وشاحة الأسود ليسير بين الناس وهو يخشى اقترابهم حتى منه؟

- ماكو.

انتبهت فجأة من كل خيالتها إليه وهو ينطق اسمها للمرة الأولى، فعلمت صنيعها به؛ لقد رَقّ قلبه وأصبح هشًا ضعيفًا، ولن يصعب على أحد كسره، لقد صدّق حقيقة كونه، وأصبح يريد أن يتقبله الجميع، لقد ناداها للتو باسمها، وينتظر أن يناديه الجميع باسمه.

- تعالي، أريد أن أطلعك على شيء.

ثم أخذها إلى جدار من الكوخ مكتوب في بدايته "إبراهيم"، وقال:

– لقد كنت أجوب الأقاليم خلسة فأرى ما يصنعون، وأسمع قصصهم، وأراقب قوافل تجارتهم وطرقهم بعدما ضقت بالغابة من بعد رحيل "غيم".

فنظرت إليه بدهشة، فقال:

– نعم، لم أقضِ كل الأيام بين جدران هذا الكوخ، لطالما غادرت قضباني خلسة، لكن وجهي وقناعي لم يخرجا للنور أبدا قبل قدومك، كنت أتسلل في وشاح يغطي جسدي من الشعر إلى القدم، فلم يعرفني أحد، ولم يلحظ وجودي أحد، ولو فعل أحدهم كنت أغادر المكان بلا عودة.

فعادت إلى فزعها من مواجهة شخص مثله بالناس، وعادت تنظر إلى المكتوب على الجدار؛ فإذا بقصةٍ عن فتى يقال له "إبراهيم"، أشعلت قريتُه النارَ وعلى رأسهم أبوه ثم وضعوه فيها، وذلك؛ لأنهم استيقظوا ذات صباحٍ فوجدوه قد هدم تماثيل آلهتهم، وتحكي القصة أن الفتى خرج من النار مُعافًى دون أن يمسه سوء.

– لقد كان أبًا وألقى بجسد ابنه في النار؛ دفاعا عن معتقد خاطئ في رأسه، دفاعا عن جهل قومه..

فعادت ماكو تنظر إليه وهو يتابع الحديث:

– لقد أحببت "إبراهيم" كثيرًا.. أحدهم قبلي عَرَفَ ظلمًا من جهل قومه، أحدهم من قبلي عرف العقاب بالرمي في النار، ورغم ذلك انتصر عليهم، وعاش بعدها لينجب إسحاق وإسماعيل.. إن أهل القرية التي أتيت بالقصة من عندهم يبجلونه ويبجلون الإله الواحد الأحد الذي دَعا لعبادته

إبراهيمُ.. إنها القرية الوحيدة التي شعرت فيها بالدفء والطيبة والأمان حتى إني كنت أجوبها بلا قلق أو خوف.

نظرت إليه وقد صدقت أن تهدئ من روعها قليلًا بعدما عرفت أنه عرف الناس، وسمع أحاديثهم، لكنها ما كانت تأمن جهل قومها، وتابع هو الحديث:

- أتظنين أني قد أنجو من النيران لو ألقوني فيها أيضًا؟ أليس من طقوسهم حرق السحرة والشياطين، وهم يرون أني شيطان؟ أتظنين أن جسدي لن يذوب مع لهيبها، أتظنين أني قد أنجو لأنجب أطفالا ألقنهم العلم ليمحوا به الظلام؟!

فدمعت عيناها؛ إذ كانت غير متأكدة من ذلك، ونظر إليها وتأكدت شكوكه هو الآخر، فابتسم بدفء ليهوّن عليها هول ما تشعر به، وقام إلى خارج الكوخ مغادرًا، لكن قبل أن يغادر من باب الكوخ أوقف سيره وقال:

- لقد اقتربت الشمسُ من قتل الليل الطويل، عليكما العودة كي لا يلحظ أحدٌ غيابكما.

فقامت ماكو تلفّ جسدها بالوشاح واستعدت ليليان للمغادرة وهي لم تصدق أنها دخلت وخرجت من سياج الشياطين على قيد الحياة.

في ذلك الحين كان أكتيفوس قد انتهى من مجلسه مع زاكوم، وذهب إلى جاميل فأطلعها على خطاب ماكو إلى الناس، وأعاد الخطاب والقرطاس إلى مكانهما في غرفة ماكو، وأمر بتغيير الحرس على باب غرفتها فلا يطلعها أحد على دخوله أو خروجه منها.

وجلست "جاميل" في الشرفة تناجي أحزانها وكل أفعالها وهي الآن تخسر كل شيء، حتى ابنتها التي أرادت إبعادها عن السلطة ليتسلمها أكتيفوس، فتتخلص من معاملة سيزوس السيئة لها، وتبدأ عهدا جديدا في القصر برفقة أكتيفوس. لكن الآن ترى أحلامها وهي تتحطم فوق رأسها مع عودة ابنتها من شق السور - برفقة الخادمة - من عند سياج الشياطين.

كانت ليلة طويلة بالنسبة إلى ماكو، وأطول بالنسبة إلى ليليان التي يكاد عقلها يذهب من شدة التفكير، ولا تكاد تصدق ما حدث. فرأت ماكو أن نومًا قليلًا لكليهما سيكون أفضل لمواجهة يوم جديد وخطاب جديد. وعندما دخلت الغرفة لاحظت تغيير الحرس على الباب، لكنها لم تأبه وظنت أنه الإجراء العادي في تبديل دوريات الحراسة.

وبينما كان جنودها هي وأودين على رقعة الشطرنج ساكنة كان زاكوم يحرك القطع، لم يكد أكتيفوس ينتظر بزوغ النهار، فقصد منزل العرافة "سامير"؛ كبيرة العرافات في المعبد وأخذ يخبرها بما قاله زاكوم وما يأمرها به بأن عليها الذهاب إلى الملكة في الصباح العاجل لتخبرها أنها رأت نبوءة بأن ابنتها ستُقتل على يد خادمتها، كانت تلك هي القطعة الأولى.

أما القطعة الثانية فقد كانت من أرض القتال؛ في الجيش استيقظ قادة الفيالق من الصباح الباكر لتنظيم الصفوف ومن بينهم سيزوس ووزراؤه والوزير تيانو الذي قضى الليل يسن خنجره، وجاء الصباح حاملا دقات طبول الحرب، واشتعلت النيران، وبدأ التشابك طوال المعركة، كان سيزوس وتيانو يقاتلان جنبا إلى جنب، ويحصدان الأرواح ويقطعان الرؤوس، ويغرسان الرماح في صدور المقاتلين، ويهللان بالنصر رغم سوء

حالة جيوش البطالمة، وأثناء القتال اقترب تيانو من سيزوس وكلٌّ منهما يلوح بالقتال من فوق صهوة جواده:

- أنت تقاتل ببسالة اليوم يا صديقي.

- يبدو أننا سننهي الأمر ونعود إلى الديار سريعًا يا تيانو.

فسحب تيانو خنجره واقترب ناحية سيزوس الذي لم يتوقع غدره، وظن أنه أمر طبيعي أن يسحب خنجره في زخم المعركة، ولكن قبل أن يدرك صدق نيته كان تيانو قد اقترب بما يكفي ليغرس خنجره في صدر سيزوس ثم اقترب من أذنه وقال:

- لم يعد لك من ديار هنا يا صديقي، أشعر بالأسى لأجلك، لو أنك سألتني لقدّمت لك النصيحة؛ لم يكن عليك يا صديقي إبقاء أعدائك بقربك لتأمن غدرهم، قد كان عليك قطع رؤوس الجميع عندما سمحت الفرصة بذلك.

ثم سحب خنجره وانصرف لينخرط بين الجموع المتشاحنة، وسقط سيزوس عن حصانه للمرة الأولى في حياته، ومضى حصان القائد بين الجموع حاملًا سرجًا مزخرفًا بلا راكب عليه، وكلما مر بأحد من جنود سيزوس أطلعه على حقيقة مقتل قائده، وفي الواقع لم يتأسفوا كثيرًا لهذا الأمر.

فزعت ماكو من نومها على قلب منقبض، لم يكن لعينها أن ترى نومًا، وظنت أن غص قلبها هو بسبب خوفها من عواقب الخطاب الأخير، فراحت تنظر عبر النافذة، ناحية الغابة، وكأنها تتطلع لليوم الذي تأتيها الحرية فيه لتغادر جدران تلك المدينة إليها. ربما تسير بفستان أبيض بسيط بين الأزهار

والمروج من دون تاج يثقل رأسها، وفي غير حرس يحيطونها كأنهم قضبان متحركة.

وعلى غفلة منها بلغت مسامع "جاميل" وهي تجلس في غرفتها إلى ماشطتها، تمشط شعرها، وتنظر في المرآة وهي في عالم غير العالم، أن كبيرة العرّافات تقف على باب غرفتها تنتظر الإذن للدخول، فقامت جاميل وصرفت الماشطات، وذهبت بنفسها إلى باب الغرفة تفتحه لترى سامير المرأة العجوز تقف عل بابها بوجهها المجعد المليء بالوشوم، ومن خلفها عرافتان صغيرتان تحملان قماش ثوبها المهلهل في تبجيل، فقالت جاميل وهي ترتجف من شدة القلق:

- سيدة "سامير"!!

لم تتحدث العرافة العجوز، ودخلت إلى الغرفة مباشرة، ونظرت إلى جاميل، ففهمت أنها تريد طرد الخادمات والوصيفات من الغرفة، فأمرتهن وهي تصرخ:

- اُخرجن جميعًا الآن، اُخرجن هيا.

عندما خرجت الخادمات من الغرفة جلست سامير على كرسي ووقف خلفها العرافتان ينتظران في صمت، وانحنت جاميل على ركبتيها أمام سامير، وراحت تنتظر أن تنطق العرافة بما لديها.

- إن نبوءة تقول: إن لعنة شيطانية أصابت قصركم الحاكم، وأن الأميرة البكماء سيُنحر عنقها بخنجر في يد خادمتها التي باعت نفسها للشيطان الأعظم أودين.

انحنت جاميل على ركبتيها، وخارت كل قواها، ولم يعد لها من حول، وتمتمت:

- ما الذي تقولينه... سامير؟ أرجوك أنبئيني بشيء يمنع ابنتي من الهلاك.

ردّت سامير في ثبات دون الالتفات إلى جسد جاميل الهالك:

- بعد فجر واحد من اليوم، سيُنحر عنق ابنتك في صدع على مَرْأى ومسمع الناس من فوق صرح هي بنته.

ثم قامت سامير بمغادرة الغرفة تاركة جاميل خلفها غارقة في دموعها وخوفها والفزع الذي ذهب بما بقي في عقلها، دخلت الوصيفات لتقع أعينهن على الملكة وهي تبكي ومنهارة على أرض غرفتها، فهرعن إلى ملكتهن يُعِنّها على النهوض، لكنها قامت تصرخ وتأمرهن بالابتعاد والخروج من الغرفة، وراحت تذهب وتجيء في أرجاء غرفتها وهي تضع يدها على صدرها من شدة الألم الذي كاد يفتك بروحها وجسدها وكل أركانها، وهرعت الخادمات خارجات من غرفتها يذرفن الدمع على حالها.

وعلى الجانب الآخر في المعركة عاد تيانو إلى جثة سيزوس، وصرخ في الكتائب: "قضي القائد سيزوس، وغربت شمسه"، وبينما يصرخ من على صهوة جواده لم يدرك مَن حوله أنه غربت شمس الجميع؛ حيث أتاه سهم مُعادٍ اخترق صدره ليخرج من الظهر، وسقط هو الآخر عن جواده بجوار الجثةٍ صُنع غدره وخيانته.

كان صوت مياه البحر وسفن الرومان تخترق أرضَ مصر أقوى من

صرخات الموت في جيوش البطالمة، وأدرك رسول أكتيفوس هول الوقع وأتت الأنباء عن غروب شمس كليوباترا والبطالمة، وأن اليوم يوم الرومان، فَقَطَع رأسَيْ تيانو وسيزوس وحملهما على صهوة جواده منطلقا إلى مديم أرغون حاملاً في كل خطوة يضرب فيها حصانه الأرض أنباء الفوضى والفزع؛ فوضى القيامة والميلاد حينما تحين لحظة النهاية لأمة فتنهض أخرى.

انتهت أكتيوم البحرية ٣١ ق.م، وانتهى معها أنطونيوس وكليوباترا، ودخل أكتافيوس مصر، وبدأ عهد الرومان، وقضت كل المدن التابعة لدولة البطالمة في مصر.

حل المساء على الجميع ولا يزال الرسول يضرب الأرض بصهوة جواده نحو المدينة البعيدة في غير هوادة أو راحة، ولم يكن من هوادة وراحة لأحد.

كان أودين في كوخه يتفقد كل شيء؛ الوقت والسنين التي قضاها بين أروقة الغابة والمدن التي جابها، والقصص والعلوم التي جمعها، و"غيم" وذكراها، وأمه وأبيه، وكيانه وكل شأن يعنيه، وماكو وليليان في غرفتهما يستعدان للخطاب، ماكو تحفظ ما كُتب فيه وتجرّب نطقه بالشفاه وليليان تتدرب متى تسكت ومتى تنطق لكي لا تخالف حركات شفاه ماكو، والملكة التي فقدت ما بقي من عقلها كانت في غرفتها تجلس إلى إحدى الطاولات وتضع عليها الخنجر الذي أعطاها إياه أكتيفوس، وأكتيفوس لا يغادر ناظرُه بوابة القصر الأمامية ينتظر عودة الرسول، وزاكوم ينتظر أن يُفتح باب زنزانته غدًا فيشهد خطاب ماكو وعودته إلى المعبد، كان لكل امرئ شأن يُغنيه.

لم ينم أحد ولم يرتح بدن، كانت رائحة القلق والخوف تفوح من أبدان الجميع، وصرخات الجنون الفوضوي التي تحين في لحظات النهاية تتسلل

من نوافذ الجميع.

استيقظت طيور الفجر تغرِّد من فوق النوافذ فوق الرؤوس، وحانت اللحظة التي ينتظرها الكل، كلٌّ على هواه وهوادته؛ فقام أودين يغطي جسده من الشعر للقدم في الوشاح الأسود، وينتظر وقت عودة الفلاحين إلى المدينة فيدخل معهم، وقامت ماكو ترتدي زي القتال، وتحمل رمحها وسهامها والقوس على أن يكون اليوم يوم أكبر معاركها، والوقت الذي يجب أن تُظهر فيه كلَّ ما لديها من قوة، ووقت الاختبار لكل ما علمها إياه أودين. ومن غرفة الملكة ارتدت أبهى وأجمل فساتينها، وتزينت في كامل زينتها بشيء من النرجسية العمياء، ولم تنسَ حمل خنجر أكتيفوس، ومضت إلى المنصة في غير حرس أو رفقة، وأكتيفوس ذهب ليفتح باب السجن لـ زاكوم، ليستعد هو الآخر في أبهى ثيابه ليخرج إلى الناس بعدما تغرب شمس ماكو. والرسول وصلت أصوات أقدام جواده مسامع الغابة، ولم يلاحظها الذي كان بين صفوف الفلاحين عابرًا.

ونادَى مُنادٍ في الناس أَنْ: "يا أيها الناس، الأميرة ماكو تخرج إليكم، فلهموا واجتمعوا".

استقرَّ الجمع، ووصل الرسول إلى المدينة حاملًا رأسَيْ سيزوس وتيانو ونبأ انهيار البطالمة. لكن كان الوقت قد تأخّر على تغيير الخطط، وتأخر على الفرار، وكان الجنون قد وصل أوجَه لدى الجميع.

كان موكب ماكو قد وصل إلى منصتها وسبقتها ليليان، وليس ليليان وحدها؛ فقد كانت الملكة تتبعها بحذر. عندما صعدت ماكو المنصة رأى الناس محاربة أكثر من أميرتهم التي تنطق عن الآلهة، وكان أودين يراقب

عن كثب، وكانت تشعر به بين الحضور، وتثق في قربه إلى حد أنها لم تبحث عنه بعينيها، فضربت الأرض برمحها فأعطت إشارة بدء الحديث، فصمت الجميع وبدأ الصوت:

- أيها الناس، لقد كذب الكهنة والعرّافون في الماضي بشأن الشيطان الذي يسكن الغابة، ما من شيطان هناك، إنه إنسان مثلنا وليس بساحر أو شيطان وإِن كنتم لا تصدقون فامْنَـ....

و قف الصوت وبدا للجميع أن الأميرة تتحدث بدون صوت يخرج منها، حينها كانت جاميل قد وضعت الخنجر على رقبة ليليان وهي تختبئ في صندوقها الخشبي من خلف الستار فأخرستها.

سكت صوت ماكو، وأدركت أنه ما من صوت يخرج فوقف أودين من بين الحضور، ورأته ماكو فنظرت إليه وعيناها تخبرانه أنها تشعر بالخوف، ثم استدارت إلى جانب المنصة فإذا بـزاكوم يخرج في كامل زينته أمام الجميع مصطحبا الكهنة الذين يتغنون بالصلوات من حوله، ويقرعون الطبول الصغيرة في أيديهم، مصدرين صوت الموسيقى المصاحب للصلوات، فعرفت أن الخطب جلل.

استدارت ناحية الستار وفتحته على مصراعيه فإذا بالملكة جاميل تمسك بذراع الخادمة ليليان من الخلف وتضع خنجرا على عنقها على مَرْأى ومسمع من الجميع. نظرت ماكو إلى عين أمها التي كانت تجعلها تبدو كامرأة غريبة لا تعرفها ذات عين تفيض بالشر، ولكنها لم تكن لتصدق أنها حقا ستنحر عنق ليليان التي كانت ترتجف وتنهمر عيناها بالبكاء، ومدت ذراعها ناحية ماكو واخترقت الصمت في قلب ماكو بكلمة واحدة:

- أميرتي.

و لم تكد تكملها حتى شدت جاميل الخنجر من على رقبتها بقوة فذبحتها، وأخرستها للأبد أمام أعين الجميع، وماكو التي لم تملك صوتًا لتصرخ كأن العالم كله انهار فوق رأسها بين طرفة عين والتي تليها، ولا تملك صوتًا لتصرخ به فتخرج غضبها المحتم في صدرها كأنها هي التي نُحر عنقها وهي مقيدة من الرأس إلى الأقدام لتخرج روحها بصمت في سكون تام من جسدها دون صرخة واحدة، لا تكاد عيناها تصدقان ما يحدث وجسدها ثابت كما الأصنام.

واختلطت أصوات الكهنة المغنين بالصلوات بأصوات صراخ الجميع، فصعد أكتيفوس على المنصة من أمام ماكو وأمها اللتين كانتا مستمرتين في النظر إلى بعضهما البعض.

وأودين لا يكاد يصدق ما يحدث، ولا يكاد يحسن الحكم، أيسحب سهمه ويصوبه ناحية المرأة التي يبدو عليها الجنون أم إلى صدر الكاهن العجوز الذي يتغنى بالصلوات؟ كانت لحظة من غياب الوعي وسكون ما بعد الذبح، كأنَّ الأجساد لم تُدرك بعدُ ما أصابها إلا الذي كان على علم بكل شيء فصعد يصرخ في الناس:

- إنها لعنة الشياطين..

ولم يكد يكمل صراخه إلا وصعد الرسول بإعلان اللعنة الصادقة؛ إذ بينما يقف زاكوم وأكتيفوس وجاميل وماكو على المنصة، وجثة ليليان تنتفض الروح منها، صعد الرسول على المنصة وألقى برأسَيْ تيانو وسيزوس تحت أقدام الجميع في مشهد ملحمي ودموي تقشعر له الأبدان في يوم سقوط

السادة كأوراق الشجر البالية وصرخ قائلا:

– إنها نهاية البطالمة وبداية يوم الرومان؛ ففروا في الأراضي، إنهم يقطمون الرؤوس ويحرقون المدن والبلدان، ماتت كليوباترا مات البطالمة...

عندها سحب أكتيفوس سيفه في جنون ونحر عنق الرسول فأرداه قتيلا، وأودين لا ينفك ينظر إلى ماكو في صمت ويده على القوس والسهم وقلبه ثابت كما المغيَّب عن المشهد، ينبض بثبات، وتابع أكتيفوس الصراخ في الجموع الفزعة:

– كلا.. هذا الرسول يكذب، إن شيطان الغابة الأعظم "أودين" ألقى لعنته على القصر الحاكم لينتقم من المدينة؛ فقتل "سيزوس" وأرسل رأسه إلى بوابات المدينة، ولعن الملكة فدفعها إلى قتل الخادمة المسكينة، وسحر الأميرة لتمارس السحر، فتنطق من بعد صمت وتدّعي أنها تنطق عن الآلهة، لكي تقنعكم أن أودين ليس شيطانًا، وأنه يريد أن يحكم المدينة، يريدون أن يحكمنا شيطان يعيث في الأرض فسادًا!!

أفاق الجميع وكأن لحظة من التنوير أصابتهم، فعرفت ماكو ابنة الربيع الثاني عشر أنه الآن حان الوقت لقطع الرأس بالرأس، وأرادت الانتقام من الجميع بدءًا برأس أمها، فرفعت رمحها في وجه أمها، ولكن قبل أن تصوب لحق أودين "جاميل" بسهم في القلب، فما كان في الحقيقة يحمل قوسه ليحمي ماكو ممن هم حولها، بل أراد حمايتها من نفسها.

أراد في الحقيقة حمايتها من تلوث يدها بالدماء، حتى وإن كان طالبها بذلك إلا أنه في اللحظة الحاسمة تخلَّى عمَّا آمن به، ولم يفكر كثيرًا عندما رفعت رمحها في وجه أمها فما كان ليسمح لها بفعل ذلك، ما كان ليسمح بأن

تلوث يدها بدم أمها حتى لو كانت تستحق القتل في نظره.

نظر "أكتيفوس" باتجاه السهم؛ فإذا بشاب يافع يقف بين الناس وقد انكشف عنه غطاؤه وفي يده قوس وسهم، وعيناه مكللتان بلونين مختلفين، فصرخ كالمجنون:

– أودين، إنه هنا بيننا الآن، لقد أتت به الأميرة إلينا... أتت بالشيطان إلينا.

عندها عدلت ماكو رمحها إلى صدر أكتيفوس وأصابته بقوة وغيظ كأنها عثرت على صرخة لها أخيرًا تَنْفُثُ فيها كلَّ ذلك الغضب، فنظر إليها أكتيفوس وهو يلتقط آخر ذرة في قدرته على الوقوف على قدميه، ثم سقط مدركًا أنه قَضَى برمح الأميرة التي ظن أنها طفلة صغيرة بلا حول ولا قوة، وانطفأت نيران شروره، وهذه المرة لم يستطع أودين أن يُطلق سهمه قبلها، كل ما أراده هو أن تبقى نقية ولا تتلوث يدها بدماء أحد، لكن القدر أبى دون ذلك فقد كان على الأميرة أن تقتل الشر بيدها.

بدأ الكهنة يصرخون: أودين الشيطان، أودين الشيطان.

فسحبت ماكو سهمها وقوسها وأطلقت السهم على أحد الكهنة فأخرسته. فسحب زاكوم الرمح من صدر أكتيفوس وأراد غرسه في قلب ماكو، لكن أودين الذي ثار قلبه وأصبح كالوحش الغاضب لحقه بعدة سهام متتالية أسقطته أرضًا، وارتفعت الصرخات بسقوط كبير الكهنة، وبدأ الناس يلتفون حول الجنود، وينظرون بسخط ناحية أودين، وبدأ الحرس يجتمعون من كل حدب وصوب، فكان على أودين أن يفر إلى الغابة؛ هربًا من ملاحقة الحرس والناس، ولكن ما كان ليمضي؛ فقط كان ينظر باتجاه ماكو بسلام

وسكون وكأنه لا يأبه للموت الذي يلاحقه من كل اتجاه كأنه الآن يريد أن يستسلم للموت أكثر من الفرار.

لكن ماكو هي التي أنقذته؛ إذ نزعت الرمح من يد زاكوم الملقى على الأرض، وصوبته ناحية قدم أودين ليفيق، وأشارت إليه بعينها أن يفر بعيدًا، فنزع رمحها من الأرض، وبدأ يركض إلى أحد الأحصنة، وصعد على متنه، وانطلق ناحية الغابة والناس يلاحقونه.

***

*وقتٌ ما لا أذكره *

كنتُ وأبي وأمي في رحلة صيد للسمك بالقرب من فيلا أبي بالإسكندرية.

- من الجيد أني لم أُخلَق سمكة.

ضحكت أمي ولم تعقب، فلم أستطع استدراجها للكلام بعد صمت دام أكثر من ساعتين في النظر إلى البحر، وانتظار أن يأتي الصيد بشيء فعدت أتحجج حديثها:

- ماذا لو أننا اخترعنا زعانف صناعية للسمك تمكنه أن يتنفس بها خارج الماء؟ هل سيكون من الممكن أن نربيه بعيدًا عن الماء؟ هل سنرى الناس يربطون الأسماك بأطواق كالكلاب والقطط ويتمشون بهم في الطرقات؟

- هل تتحدثين عن سلسلةٍ ما من أفلام الخيال العلمي؟!

ضحكتُ أنا على حديث أمي فلطالما كانت تخبرني أني أعيش مغامرة خيال علمي بعيدا عن الواقع، ولكن عاد الحديث للصمت، ورحنا ننظر ناحية

المياه، وبعد قليل من الصمت عادت أمي تتحدث:

– ربما ستملّ السمكة... ربما سترغب في الانتحار رافضةً التكيفَ في بيئة أخرى حتى لو كان في إمكانها ذلك.

– هل هذا بسبب طريقة العيش أو ما شابه؟

– لا.. هذا بسبب ما اعتادت هي عليه، قد ترفض أي شيء جديد لمجرد أنه جديد، قد تقبل بالموت على أن تجرّب أمرًا جديدًا لم تعتد عليه من قبل.

– هذه حماقة.

– هذا ولاء للذات يا ابنتي، ولاء لحقيقة كون الذات، إنها سمكة خلقت لتعيش في الماء، وكل ما عرفته كان الماء، فكيف تقبل بحياة بدونه حتى لو توفرت الاستطاعة على التكيف والعيش؟

عدتُ للصمت وتذكرت مشهدًا كنت قد قرأته في أحد الكتب في مكتبة أمي، لكني لا أذكر اسم الكتاب.

– أمي يذكرني هذا بمشهد قرأته في كتاب لديك؛ عن جارية رفعت رأسها حينما حانت لحظة جَزّ عنقها هي والفتى الذي أحبته على منصة عامة، وذلك لأن أحد الملوك كان قد اتخذ منها جارية له لكن حبها لذلك الرجل جعلها تقبل بالموت على أن تقبل الشيء الجديد حتى لو كان ملكًا... فيحكي المشهد أنها لم تدمع لها عين، ولم ينكسر لها أمل كأنها كانت تعرف أن في تلك اللحظة أنه خير لها أن تموت على أن تقبل بغير ما أرادته، وأحبته كأنها أرادت ذلك السلام في الموت بعيدًا عن كل الصراع في الحياة.

أذكر أن أمي لم تعقّب ولم ترد حينها، فقط استمرت في النظر ناحية

الأمواج في صمت...

***

بقيت ماكو في حالة من الذهول، تنظر إلى كل الجثث من حولها والدماء التي تسيل من الجميع، وإلى ليليان وهي غارقة في دمائها وأمها ورأس أبيها، ولا تزال لا تملك صوتًا لتصرخ به وسط كل تلك الأصوات التي تصرخ فتنفث الغضب والخوف عن أصحابها.

ما كانت تفكر في شيء ولا حتى أودين الذي كان على وشك أن يحترق بعدما تبعته المدينة كلها والحرس إلى الغابة حاملين المشاعل لقتل الشيطان.

بقيت ماكو بين الجثث صامتة لا تحرك ساكنًا في حين انفضّ الجميع للركض خلف أودين الذي كان يركض وهو يعلم أن هذه المرة لن يحميه سياج التماثيل والجميع يركض خلفه، وقد أفضى الكهنة إلى ضرورة حرق الغابة كلها للتخلص من شرورها، فأشعلوا النيران في كل ما وطئته أقدامهم واستمر النهار في سكونه يشهد على المشهد الجنوني للناس وهم يحرقون كل شيء من خلفهم.

وماكو التي كانت تقف على المنصة شهدت ألسنة اللهب تخترق السماء من شدة النيران إلى أن احترقت الغابة كلها، وأصبح من الصعب أن ينجو فيها أحياء، هُدمت أعشاش الطيور، وغادرت الحيوانات أزقّتها وفرت من هول النيران التي كانت حولها من كل مكان، وتعالت الذئاب في عُوائها، ورأت اليوم أنه مهما بلغت شرورها فهناك مخلوق شروره فاقت كل ما عرفته عن القتل والصيد؛ إنه الإنسان.

من مكانها رأت ماكو أن الشياطين الحقيقيين كانوا يسكنون المدينة وليست الغابة؛ فقررت عقابهم بالعقاب المتبع؛ الحرق، فأخرجت النيرانَ التي اشتعلت في داخلها إلى خارج محيطها، فراحت تمشي في هدوء إلى مشعل من على جانب المنصة، وقامت تحرق كل شيء وهي تسير على قدميها في ثبات وهدوء، أشعلت النيران في الطرق والسوق والمنازل والمعابد.

في مشهد مفزع أكثر من ذلك الذي خلفه الناس في الغابة، مشهد فتاة تمشي بهدوء وهي تحمل مشعلا في يدها فتحرق كل شيء، كانت تجوب جدران المعابد فتحرقها، والمنازل فتحرقها، والأزقة وحظائر الحيوانات، أصبح الوادي كله يشتعل كقطعة من جهنم على الأرض، احترقت الغابة والمدينة في آنٍ واحدٍ وانتصر الجهل، وحلّت عواقبه.

***

في نفس ذلك اليوم الذي لا أذكر تاريخه:

بعد صمت طويل في ذلك اليوم، وبعدما انفض الصيد، وجاء وقت الخلود للنوم كنت أجلس إلى حاسوبي أستمع إلى بعض موسيقى الموسيقار ياسر عبد الرحمن؛ فقد كنت من أشد المعجبين بأعماله الموسيقية، أذكر أني كنت أستمع إلى المقطوعة: "عراق"، ولكن جاءت أمي فاعتدلت في جلوسي على فراشي، فجلستْ بقربي، وتابعتْ ما كنتُ قد فتحته لها من حديث في صباح ذلك اليوم:

– تلك الجارية التي فضلت الموت؛ لأنها أحبت رجلًا، ورفضت أن تكون إحدى جواري الملك، هي رفضت حياة كريمة داخل قصر منعم لأجل كوخ صغير بجوار رجل كانت ترى أنه النعيم، في الحقيقة القصة ليست كاملة؛

إن ذلك الملك أصابه ألمٌ أكثر من ذلك الذي أصاب تلك الجارية، هو الذي جَزّ عنقها وظل يعاني عقبات ذلك لباقي أيامه وليس هي؛ فالجارية ذهبت روحها مع مَن أحبّت ووجدت النعيم، لكن الملك ظل يعاني حقيقة أنه ملك، إنه ذو مُلك في عالم يروي القصص عن المكافحين والفقراء الأبطال، وأن الكادحين والمظلومين وحدهم هم الفقراء، والذين حرمتهم الحياة من أشياء كثيرة، ونسي أولئك الذين أعطتهم الحياة الكثير والكثير فأثقلتهم وأرهقت كاهلهم بالعطاء الذي لم يستطيعوا تحمله كإناء مُلئ بأكثر من قدرته على الاحتواء فتشققت جوانبه وأصبح عرضة للحطام في كل لحظة، لكنه حتى لا ينال الحطام. ربما الملك ذاته أراد أن يكون مكان الجارية عندما شعر بالعجز عن الوقوف ضد القانون الذي شرعته دولته، والذي يقتضي بذبح جارية الملك إذا ما أحبت غيره.

عليك يا ابنتي أن تعلمي أن الحقيقة تحتاج لأكثر من مشهد لكي ندركها جيدًا، فربما الصالح ليس فيه خير، وربما الفاسد أهلكه فيض الخير فيه بسبب افتراءات البشر.

إن الكذب يتجول في عالمنا مرتديًا ثوب الحقيقة، ويصفق له الجميع، ويقيمون له التماثيل، ويتغنون فيه بالأشعار، فلا تسلمي لأي قاعدة كانت، واتَّبعي قلبك دائما؛ إنه يعرف الطريق إلى النور. عليكِ أن تبحثي دائما عن الخير في الناس، ولا يخدعنّك لباسُهم أو عذبُ رواياتهم أو حتى سوؤها.

***

من بين النيران خرجت الحوامل والأرامل والأطفال والخادمات فَنَجا مَن نجا وهلك في النيران من هلك، والناجون كانوا يحتمون بساحة المدينة

علَّها تحميهم من النيران، والأميرة كانت تمشي على الأرض ومن خلفها النيران التي تلتهم كل شيء، واستمرت ماكو في السير إلى أن ذهبت بالشعلة إلى القصر الحاكم، وعندما اقتربت فزع الحراس من الأميرة التي تسير على قدميها والمدينة تشتعل من خلفها، فظنوا أنها مصابة بالسحر، وفروا من أمامها، ولم يوقفها أحد، فأحرقت القصر من بدايته لنهايته كأنها كانت تشهد نهاية انتحار أمة كاملة على يدها، كان الانتحار العظيم والهلاك الأعظم الذي أصاب واديًا بأكمله وحرق الغابة ومديم أرغون بأيدي قاطنيه.

بعدما جابت المدينة كلها سيرًا على الأقدام، وأحرقتها كلها حتى القصر الحاكم استقرت في جلوسها على كرسي الحكم في القصر الفارغ تماما من الناس إلا هي والنيران التي تلتهم كل شيء حولها، وكأنّ نوبة من الجنون أصابتها، وظنت أن جسدها سيحترق مع كل شيء، وينتهي الأمر برمته، فاحترق أثاث قاعة الحكم، وصعدت النيران فالتهمت زينة وزخرفات الجدران والنوافذ من حولها.

وزادت الحرارة شيئا فشيئا، وصعد الدخان حتى فقدت وعيها من شدة النيران، واحترق القصر كله والمدينة، ولم يعد من أحياء سوى أولئك الذين بقوا في الغابة فمكثوا في النهر لتحميهم مياهه من النيران، وأولئك الذين بقوا في ساحة المدينة منتظرين أن تخمد النيران من حولهم ويتمنون ألا تلتهم أجسادهم كما التهمت كل شيء، واستمرت النيران في الاشتعال لباقي اليوم والليلة التي تلته واختفى أودين وتبخّر مع ألسنة اللهب.

و صلت أنباء الوادي المحترق لمسامع الرومان، فظنوا أنِ قادة البطالمة حرقوا الوادي قبل فرارهم منه لكي لا يستفيد منه الرومان، فأُرسل فيلق إلى

المدينة ليعثروا على الأحياء فيها، وأخذوا كل مَن وجدوه في طريقهم كعبيد وسبايا للدولة الجديدة، وعندما دخل قائد الفيلق الروماني على صهوة جواده إلى القصر المحترق راح ينظر إلى الخراب وإلى فنون العمارة المهدرة حوله من كل مكان، ولكن ما كان من أحد في القصر سوى هو وجواده الذي كان يطأ على الخراب. وهُجر الوادي واعتُبر أرضًا بورًا تفوح منه رائحة المخلوقات النافقة من كل الأجناس ولا يصلح للعيش فيه.

***

- يحدث أن ينتصر الجهل يا ابنتي... يحدث ذلك.

***

بعد عدة أيام أفاقت ماكو، فإذا هي في فراش صغير دافئ في منزل صغير، لا تدري أين هي، فقامت تلملم جسدها الضعيف، تنظر حولها علَّها تتعرف على شيء، هل يكون أودين لا زال حيًّا؟ هل هو أنقذ حياتها هذه المرة أيضا؟!

خرجت مسرعة تبحث عنه، ولكنها لم تجده، لم تجد شيئا تعرفه أو شيئا رأته من قبل، بل وجدت امرأة عجوزًا تجلس إلى وعاء من الحبوب تطعم به بعض الحيوانات من الماعز والدجاج من أمامها، فشعرت بأقدام ماكو وأحست بقربها منها:

- استيقظتِ أخيرًا، تعالي يا ابنتي.

عندما اقتربت منها وجدت في اتجاه ناظرها أنها في الحقيقة لا تبصر، هرعت إليها ماكو بيأس تسألها عن أودين بشفتيها، فتتحدث بشفتيها وتشير رغم علمها أن العجوز كفيفة لا تبصر، فأحست السيدة بقربها فأمسكت

يدها، وقالت:

- لا تخافي، الآن لقد انطفأت النيران، أنت في أمان هنا، لن يأخذك الرومان جارية، فأنت ستعيشين كابنة لي، سأطعمك وترعينني وأرعاك.

لم تصدق ماكو ما تسمعه، فقامت تبحث في الأرجاء فإذا هي في قرية فيها الناس غرباء لا تعرفهم، ويبدو كل شيء من حولها كحياة بسطاء عادية، فيما عدا حراس الرومان الذين يملؤون الأرجاء كلها كأنها غفلت قليلًا لتعود فترى أن العالم كله قد انقلب رأسًا على عقب، وأن الحياة كما كانت تعرفها ذهبت مع الريح بين ليلة وضحاها، لتحل مكانها حياة أخرى هي لا تعرفها.

***

مطار القاهرة الدولي

١٥-٨-٢٠١٦

- أتشوق للرحلة، لا أصدق أننا أخيرًا سنحلق إلى الجميلة باريس، أعتقد أني سألتهم أطنانًا من الشكولاتة الباريسية عندما نصل، ما رأيك بل؟

نظرتُ إلى ماريان، وعدت أنظر إلى اللوحة الإلكترونية اللعينة علَّها تأتي بموعد انطلاق الطائرة وينتهي هذا الانتظار الفاتر، قد مَرّ ما يقرب من ساعة وأنا وأمي نجلس هنا، لكني أظن أني هنا بمفردي، وكلما نظرت ناحية أمي وجدتها صامتة في عالم آخر، كنت أعلم أين هي، كنت أعلم دائما أين تذهب، كنت أعلم أنها تفر من كل شيء إلى حيث ذكريات والدي.

- أمي!!

- عزيزتي.
- سأفتقدك..
- علينا أن نشعر بالفقد يا ابنتي ما دمنا أحياء.
- و متى لا يكون علينا ذلك؟
- عندما نلتقي بمن نفتقدهم.
- ومتى نلتقي يا أمي؟
- عندما أنظر في عينيك وتعرفين من قلبك أني أراك...

لا أظن أن شعور الغربة حينها كان مُحدَثًا عليَّ، فإني أشعر بالغربة عن أمي منذ أن رحل أبي.

***

خرجت تهرع كمَن به جِنّه بين الأرجاء، فإذا بأحدهم ترك حصانه وغفل عنه فامتطته وذهبت بعيدًا دون وجهة تعرفها، إلى أن وجدت طريق الغابة، فهرعت إليها فإذا بها تشبه القبر الذي تفوح رائحة الموت من كل جوانبه كأن قومًا أضحوا هالكين، وحياة أصبحت كأنها ما كانت يومًا، كل شيء حولها ميت محترق؛ الغابة والحيوانات والأشجار.

ذهبت إلى سياج التماثيل فإذا هي مهدمة، لا أثر لطول بنيانها، دائرة من الطين والعصي المهدم من بين الأشجار المحروقة تحيط بكوخ قديم مهدمة جدرانه، فنزلت من على الحصان تتفقد الجدران المهدمة، وكل شيء تبحث كالمجنونة بين الحطام، على أثر له، وتتفقد الأشجار العارية من الأوراق

فتكشف لها رؤيته لو كان موجودًا. ما من أثر له!! ما من أثر لشيء كأن كابوسا مزعجا يخيم على الأجواء.

هنا كان جلوسها معه، وهنا أخافها وهنا أسعدها، وهنا شعرت بالأمان بقربه، ولا شيء الآن، لا شيء سوى الحطام يملأ الأرجاء في كل مكان.

عادت تركب الحصان وتابعت الركض به إلى مديم أرغون، فوجدت بيوتها كبيوت الأشباح، لا يكاد الدخان يكون قد انقضى كأن الحريق كان بالأمس، و ليس من أحد هناك، ليس من شيء، كل شيء محترق تمامًا، جابت الطرقات والمنازل والمعابد من على حصانها، ولا شيء يدل على الحياة، ورسومات المعابد التي حملت قصة الشيطان أودين لسنوات احترقت، وولت مع الريح، كل شيء ولَّى وذهب؛ الآلهة، وصلوات المعابد، والقرابين، وخزائن الذهب، لا أثر لشيء.

تابعت الركض بالحصان ومرّت بالمنصة، فتذكرت ما حدث؛ كيف نُحر عنق ليليان أمامها، وقضت أمها، وأُلقِي أمامها رأس أبيها، وزاكوم الذي سقط على الأرض قتيلا ككومة من اللحم الهالك، وأكتيفوس، وأصوات صلوات الكهنة وطبولهم الصغيرة.. ما من شيء، هدوء وسكون ولا شيء آخر.

من أمامها كان أعلى مباني المدينة القصر الحاكم يبدو كقطعة سوداء تترك آخر علامة على حكام هذه المدينة، فانطلقت إليه بالحصان وجابت أروقة القصر كلها حتى غرفتها وقاعة الحكم.

لا شيء سوى غبار المحروقات الذي يغطي المكان كله، إلى أن وصلت بالحصان أمام كرسي الحكم المحترق، هذا الكرسي الذي حرق الوادي كله،

وحرق كل من سعوا إليه، هذا الذي يبدو الآن كومة من التراب المحترق. كرسي ثابت محترق كالمجنون الذي ولّت عنه كلُّ زينته وعزته، والآن يقف على أعمدته ورواسيه محترقًا ذليلًا.

لم تنزل من على صهوة الجواد فقد بقيت تنظر إليه من أعلى، تتذكر كل الصراعات والنزاعات التي أُحيكت لأجل كومة الخراب هذه، تتعين إلى أي مدى قد ينقاد الإنسان بغرورة لأجل أمور بالية. ثم أدارت ظهرها لكل شيء وانطلقت إلى الغابة ثانية، حينها كان الظلام قد أسدل ستائره على الغابة السوداء والوادي المحترق، ظلام دامس إذ لم تجد مواقد النيران مَن يشعلها فتضيء شيئا من ظلام ليلة معتمة بلا قمر أو نجوم، فما كان من ضوء.

أثناء عودتها إلى القرية رأت ضوءا أزرق من مسافة بعيدة، فهرعت إليه، وإذا هي كتابات أودين باللون المضيء تشع عبر الجدران المهدمة، فتقرأ على تلك القطعة من الجدار شيئا في الطب وعلى هذه شيئا في الفنون وعلى هذه شيئا من القصص، ورسالتها التي بدأت بعزيزي أودين، وجزءًا من قصة "إبراهيم" مكتوب فيه:

" إن ضوءًا من الإيمان في قلب الفتى "إبراهيم" جعل النار بردًا وسلامًا عليه؛ فنجا منها ولم تحرق جسده ".

فعكفت على تلك القطعة من الجدار وانهارت بالبكاء، تمنت كل المنى لو أن ذلك الضوء في قلب أودين كان كافيًا ليُنجيه من النيران التي التهمت كل الظلام من حولهما، وانقضت الليلة وهي تشعر بآخر جزء من الأمان في عراء الغابة على الباقي من أحجار جدار كوخ أودين.

***

الآن:

- أين ذهبتَ؟

- ذهبت إلى كل مكان؛ إلى الهواء والماء والأرض والجبال والمدن والصحاري القفار.

- أليس لك مكان تعيش فيه؟

- بلى.. أنا أعيش في كل مكان، هنا وهناك وأبعد من هنا وهناك.

- ...

- بلقيس... بلقيس، أنت تنزلقين عن اللوح.

انتبهتُ، وانتفض جسدي؛ إذ كنت على وشك أن أفقد اللوح ووصلت المياه إلى أعلى رقبتي حتى فمي وحلقي.

- تَبّا!!

- عليك البقاء مستيقظة قليلًا بعد.

- بلى... ربما عليَّ ترك اللوح الآن، ربما حان الوقت لأرى أمي من جديد.

- و ربما لم يحن الوقت بعد.

***

جاء الصباح واستيقظت ماكو، فإذا هي قضت الليل على الحجارة، ولا يزال الحصان الذي امتطته من القرية يقف بجانبها، وإذا بالكتابات قد ولّى ضوؤها أمام ضوء الشمس البراق، فراحت تنظر حولها إلى البقايا الأخيرة

من أودين التي ولّت مع ضوء النهار. ثم عادت إلى الحصان، ورجعت إلى القرية وإلى العجوز الكفيفة التي استيقظت في بيتها في الصباح دون أن تعود الفتاة إليها بعد. عندما وصلت ماكو كانت العجوز تتكئ على عصاها مغادرة المنزل، وتحمل في يدها صرة صغيرة من القماش بها بعض الخبز والثياب، فشعرت بها العجوز، فقالت:

- كنت سأترك البيت.

اقتربت ماكو منها، فتابعت العجوز:

- إن الذي اشترى البيت أخبرني أنه لأجل فتاة صغيرة ستعيش فيه، ومنحني البيت ليعتني كلانا ببعض، ظننت أنك لن تعودي، فكرهت وحدتي في هذا البيت الذي لا أعرف ملمس جدرانه، كنت سأذهب إلى زقاق القرية؛ حيث اعتدت تسول الطعام من الناس، فأنا أعرفه أكثر من هذا البيت بمفردي.

عندما سمعت حديثَ العجوز، تمنت لو أنها تنطق فتسألها عن الذي أتى بها، وتمنت لو أن العجوز كانت مبصرة فتخبرها كيف كانت هيئته، لكن اليأس كان قد تملّك منها، فعادت تستسلم لما بقي لها، وأخذت بيد العجوز عائدَتَيْن إلى المنزل.

عرفت حينها ماكو أن أودين هو الذي أنقذها من النيران، وأتى بها إلى هذه القرية، لتبدأ من جديد مع تلك العجوز الكفيفة، فأمسكت بيدها، وأدخلتها إلى البيت، وراحت تجعلها تسير بالقرب من كل الجدران تتحسس، وتعرف ملمسها لتبقى فيه، وبينما تفعل وجدت أشياء جذبت انتباهها؛ قراطيس وأقلاما ومحابر وسكين أودين الصغيرة التي اعتاد أن ينحت بها أشكالا

لحيوانات من الخشب، فرأت شيئا من الأمل يعود لقلبها، فحتى لو لم يكن موجودًا إلا أنه حي في مكان ما. فأمسكت بمقتنياته جميعًا وقربتها إلى قلبها، وقبِلت بالخضوع لما حولها.

عاشت مع العجوز في القرية المصرية، لا يعلم أحد من قاطني القرية عنها شيئا، ولا يعلم مَن تنتظر سوى أنها فتاة جميلة تسكن في بيت بعيد، مع عجوز كفيفة. لكن كان لديها سرها الخاص، فقد كانت تخرج إلى غابة الوادي المحترق بين كل حين وحين؛ لتضع الرسائل المكتوبة بخط يدها قرب كومة من الحجارة تضيء في الليل وتعتم في النهار.

و جاء في بعض رسائلها:

عزيزي أودين، تدين لي بتفسير يا صديقي؛ أين اختفيتَ وتركتني كنجم وحيد في كون شاسع تأتي وتذهب بي الأيام؟ تقتلني الغربة يا صديقي.

***

عزيزي أودين، يا صديقي، لقد احترق كل شيء، ولكن لم أشعر بالحزن على كل شيء بقدر حزني في هذه الأيام بدون صديقي الوحيد. أشتاق إليك وكل الأيام ينقصها وجودك يا صديقي.

***

عزيزي أودين، كل تلك الأصوات في العالم تبدو صاخبة غير منظمة، مثيرة للجلبة والتعصب، يبدو العالم مكانا مقفرا بلا روح فيه، أتساءل: ما الذي كنت تفعله لتُبقيَ كلَّ ذلك الكم من الروح فيك؟ لا أنفك أذهب إلى أطلال كوخك وحكاياتك عَلِّي أجدُ في ريحك ما يكفي لتمضي الأيام.

***

عزيزي أودين، لقد عادت النباتات الخضراء تنبت في الغابة، وهطل المطر بغزارة هذا العام، أتظن أن يومًا سيأتي لأجدك فيه قد عدت لتنبت الروح في قلبي من جديد؟

لقد ذهب كل شيء مع الريح، مع كل تلك الدماء، وكل تلك الأيام السوداء التي لا أنفك أتذكرها وكأنها تمضي أمام عيني، إنها ترافقني حيثما ذهبت، أشعر بليليان وأمي وأبي يتبعون خطواتي، أشعر بخطوات الأموات كلهم يا صديقي حولي في كل مكان، ولكني لا أشعر بخطواتك، هل ما زال فيك شيء من الحياة؟

***

عزيزي أودين،كيف الحال من عندك؟ أتمنى أنّ كل شيء على ما يرام، ومن عندي فإنه ليس من شيء على ما يرام. لقد قارب الناس يدعونني في عزلتي بالبكماء التعيسة عاثرة الحظ، فيخافون مني، ولا يقربونني، لا أريدهم أن يقتربوا، وأشتري بُعدَهم بغالي الأثمان، لكن أصواتهم ليست ببعيدة عن أذني فتؤذيها، ونظراتهم ليست بوادٍ غير وادي عينيَّ فتصيبني بالحزن.

لكن لا بأس، هكذا تجري الأمور، أشعر دائما أنك قريب في مكان ما. كأنك تراني بوضوح ولكن لا تسمح لي برؤيتك ولا أدري ما السبب.

***

عزيزي أودين، اليوم درستُ شيئا جديدا في العلوم يُدعَى الفلسفة، أتى معلم روماني إلى القرية وظل يتحدث عنه كثيرًا، إنه علم يهتم برأي الإنسان

في الطبيعة والحياة والنفس، إن الأمر يشبه أن تنظر للأمور بقرب عن كثب، فتبصر حقائقها، أردت أن أخبرك يا صديقي أني نظرتُ إليك عن كثب فأبصرت الضوء فيك، ضوءًا جعلني أحبّ البقاء بقربك، لكن كأن شيئا أصابني، فأصبحت لا أرى في أي شخص آخر أي شيء عن كثب كأن الناس أصبحوا في عيني مياهًا ضحلة لا يُرى خلالها شيء.

***

عزيزي أودين، لا أنفك أذهب إلى الغابة في كل يوم فأترك الرسائل هناك تذهب مع الريح وأمضي، هل تلتقطها يا صديقي؟ ألا تنظر إلى البدر في منتصف كل شهر فتسمع صوته يهديك مني السلام؟ ألا ترسل لي سلاما يجعلني أشعر بقربك؟

بدأتُ أصدق أنك لم تكن يوما هناك، لولا أطلال كوخك، تذكرني بك في كل ليلة، لولا بقايا تماثيلك وقضبانك لفقدت عقلي، وصدّقت بأني كنت أتوهم وجودك في كل يوم مضى، ولولا ذاك الشعور بقربك لمللت من كتابة الرسائل، لكني لا زلت أتفقد الطريق في كل يوم عَلِّي أجد ريحك تأتيني.

***

عزيزي أودين، هل كنت هناك حقًا؟

***

عزيزي أودين، أدين لكل تلك الأيام التي مضت بالتصديق والإيمان، أنا أؤمن بك... أنا أراك.



عزيزي أودين، يا صديقي، ربما تشتعل الحرب، وتهدم أسوار الأمان في البيوت فتلجأ إليَّ للحظات من الأمان قبل أن نحترق مع مدينتنا. ربما يضرب مدينتنا بركان غاضب فتهرب إليَّ، وننظر للسماء وهي تشتعل في اللحظات الأخيرة قبل الارتطام وتقول: اسمعي قولي، لقد كنت أعرف دائما أنك وطني.. وكنت دائما غريبًا بعيدًا عنك، أو ربما نترك العالم في سلام وتأتيني وينتهي هذا الكابوس المزعج يا صديقي.

***

عزيزي أودين، الأمر يشبه الوقوف ببئر، أحدنا يذهب والآخر يجيء وإذا التقينا صدفة كان كل منا يحمل خلف ظهره أسفارًا من اللوم، نقول في كل مرة سنلقيها في وجه بعضنا البعض، لكن في كل مرة ننسى تلك الأسفار كأنا يومًا لم نحملها، وكأنها لم تحنِ ظهورَنا.

فقط يصيبنا صمت مطمئن كأنا بنا أرواح تبيع العالم بقليل من السكينة والهدوء، كأنا بنا أرواح متعبة من كثرة الصخب، حينها يكون الزهد مطلبًا والسلام يطوف بالبئر رغم الضوء الشديد الذي يجعل المشهد مليئا باللون الأبيض الناصع كأنه أقرب للخيال.

***

عزيزي أودين، يا صديقي، سأظل أبحث بين النجوم عن تلك التي تتحرك من بين سكونهم، فتأتي لي بسبيل إليك، وعندما أصل سأجدك وسأعرفك من بين الملايين في نفس جلدك ولونك ورسمة أنفك، وبعثرة شعرك، ضيق ثغرك، سأعرفك بقلبك، وعندما أفعل سيكون عليك أن تعيد إصلاح ما فسد بداخلي، عليك أن تحرك في ذلك القلب كل ساكن، عليك

أن تعثر عليَّ..

***

عزيزي أودين، بعضِ الطرقُ أكثر جمالًا من الوصول ذاته، وقد كانت طريقي إليك تستحق كلَّ ما فيها من عناء يا صديقي. لقد كنت تستحق.

***

عزيزي أودين، يبدو الأمر منصفا بطريقة ما أن تكون هذه هي الحياة، وأن تكون كائنًا بشريًا، تبدأ بطفل صغير يلهو ويمرح، إلى حين شبابك، فتحب وتغضب، وتحزن، وتفرح وتتدفق المشاعر باختلاف أنواعها إلى قلبك صفية نقية لا يشوبها نقص أو إزعاج مسؤولية، ثم يأتي منتصف العمر ليسرقك من كل هذا بقوة إلى العمل لأجل الحياة، لأجل ذرية تستحق أن تُؤمّن لها حياة عادلة آمنة، إلى كرسي الشيخوخة من أمام شرفة منزلك؛ حيث تنظر للسماء، وتنتظر الصعود إليها بسلام، وبكل نفس راضية.

***

عزيزي أودين،

- مرحبًا يا صديقي.

***

- بلقيس.. بلقيس استيقظي الآن.. بلقيس.

- ماذا؟

- أنت لم ترغبي في ترك اللوح من البداية.

- ...

- بلقيس!

- نعم، نعم لا أريد الموت الآن، لا أريد ذلك يا أمي.

- بلقيس!

- أريد أن أصنع معروفًا في الحياة؛ بأن أحياها بإكرام لنفسي.

- نعم.

- ...

- ... بلقيس تابعي الحديث.. بلقيس.

- ما هذا؟

- لا أدري.. ألا تتفقدين، يبدو كصوت يقترب.

صوت ينادي من قارب بعيد:

- بلقيس!! بل!! تمسكي.

- أودين.

- ماذا؟

- هذا ليس صوتك!

- بلقيس!! بلقيس نحن هنا.

- أودين.

- ماذا؟

- كيف تجلس على الماء؟!

- ....

- يا إلهي كم من الوقت بقيت في الماء؟

- أودين... أودين.

- ....

الآن أدرك تمام أني انزلقت عن اللوح وأفلتت يدي إلى ذلك السائل الذي عاد يحيط جسدي من الرأس إلى القدم من جديد، لكن هذه المرة لم تعد لدِيَّ الطاقة لمقاومة هذا الغرق. لكن هناك ذراعان أخريان، على ما يبدو أنهما أَبيَا دون ذلك.

- يا إلهي بلقيس... بلقيس، بل، هل أنت بخير؟ هل تسمعينني؟! يا إلهي..

- ...

***

٢٤-٩-٢٠١٨ / ١:٠٠ PM

- أودين.

- هل تعلقتِ بقصة أمك إلى هذا الحد أم أن ذلك الأودين سرق قلبك؟

هذا يجعلني أشعر بالغيرة.

- مرحبًا يا أميرة الأحلام.

- أين كنت؟ كنت على وشك الموت هناك.

- بل أنا الذي كان على وشك الموت، كنتِ تعلمين أين أنت وكيف هي حالك، لكني كنت أبحث عنك في المياه كالمَجنون ليس لي علم عنك، لا أعلم أين أنت، لا أعلم كيف هي حالك، لا شيء...

- ...

- بلقيس.

- ماذا؟

- أحبك.

- حسنًا.

***

عزيزي أودين، شكرا.

***

يحدث الآن...

قضيت عدة أيام في مَشفَى في القاهرة، وعدت بعدها إلى الإسكندرية، كان إياد قد تقدم لخطبتي ووافقتُ على ذلك، نقلتُ كلَّ مكتبة أمي من القاهرة إلى الإسكندرية، وعلى رأسها مجلد أودين.

لا أدري ما حدث في الماء ذلك اليوم، وكيف تخيلته بهذه الصورة، لكني أظن أنني أدين لإحدى شخصيات حكايات أمي بحياتي الآن.

ليس هذا وحسب بل إني أدين له بالتمسك بالحياة أيضًا كلما مررت بكوب قهوتي بقرب الشرفة ونظرت ناحية الماء تذكرت ذلك اليوم وتلك اللحظات بقربه كأنما كان هناك حقا، وعدتُ أبتسم بيني وبين نفسي، كيف تركت لي أمي صديقًا أجده في كل مكان وفي أي وقت؟!!

- مرحبا.

- أودين!!

تمت.